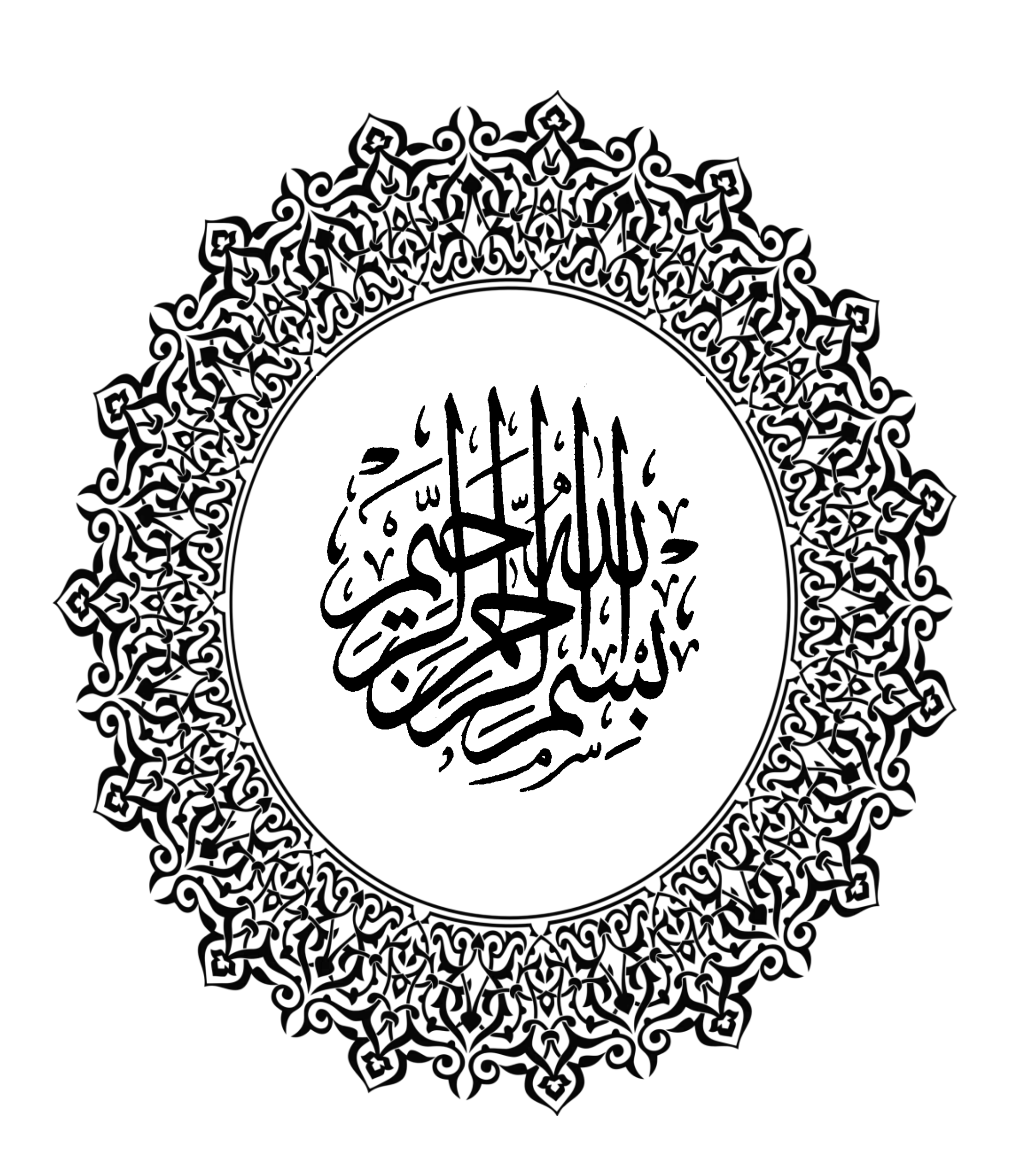
بناء الوعي

وإنارة الفكر


بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

بناء الوعي وإنارة الفكر

مقالات

فضيلة الشيخ

مُحَمَّد أَحْمَد عَرَفَة

(ت ١٣٩٣م-١٩٧٣م)

عضو هيئة كبار العلماء



الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

تليفون: ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦

فاكس: ٠٢٢٥٩٣٩٤٦

البريد الإلكترونى:

SeniorsCouncil@alazhar.eg

الموقع الإلكترونى: www.azhar.eg

العنوان:

ش الأزهر – أمام مسجد

سيدنا الإمام الحسين – القاهرة

****

فهرست الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية:

بناء الوعي وإنارة الفكر

الشيخ/ محمد أحمد عرفة

ص: ١٧,٥ × ٢٥ سم

عدد الصفحات: ٤٨٤

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠ م

متعهد الطبع:

مجمع مطابع الأزهر الشريف

تليفون: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

فاكس: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

****

تصميم الغلاف:

أ / إسماعيل محمد عبده على

جمع وإعداد : د / عطية السيد عطية

المراجعة العلمية: لجنة من الباحثين بالأمانة العامة للهيئة

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٧٥٨٥

افتتاحية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسولِ اللهِ، وآلِه وصحبِه ومَن والاه ... وبعد:

فإن مركزَ اتزانِ الكرةِ الأرضيةِ ـ جغرافيًّا وفكريًّا ومجتمعيًّا ـ هو العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ؛ الذي يستندُ إلى (**مصر الأزهر**) وبها قِوامُه؛ يأخذُ منها ويتلقى عنها؛ جيلاً وَراءَ جيلٍ.

وبريادة فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ وتوجيهاته؛ **يقوم الأزهر الشريف** بأداء واجبه من خلال منهاجه الوسطي الأصيلِ، وعالميةِ رسالتِه وعِلميتها؛ فيعمل على:

- إنارةِ العقولِ وهدايتها، والعملِ على رقيِّها ويقظتِها.
- وقايةِ المجتمعاتِ من انحرافِ الأفكارِ وتشددها، وباطلِ الآراءِ وساقِطِها، ومرذولِ العادات ودخيلِها.

وقد وسعت وسطيته وعالمية رسالته: تنوعَ الفهومِ، واختلافَ العاداتِ، وتعدُّدَ الثقافاتِ؛ وصار ما تُصْدِرُهُ أرضُ الكنانةِ محطَّ الأنظارِ، ومبعثَ القدوةِ والاحتذاءِ، وبخاصة فيما يمسُّ الشرعَ الشريفَ.

وتأتي هيئةُ كبارِ العلماءِ وهي قمةُ الجهازِ العلمي في الأزهر الشريف؛ لتقوم بدورها في هذا السبيل، مِن:

- تجليةِ صحيح الدين، وبيان وسطيته واعتداله: عقيدة وشريعة وأخلاقًا.
- تصحيحِ المفاهيم، وردّ الشبهات، وكشفِ عوارِ الأفكارِ المنحرفةِ والمتطرفةِ.
- معالجةِ قضايا العصر ومشكلاته.
- تلبيةِ حاجات المجتمع، وإجابة تساؤلاته.
- ترسيخِ قيم التعايش والمواطنة، ودعم رفعة الأوطان ورُقيِّها.

ويتجلى طرف من ذلك في هذه الإصدارات للسادة العلماء الأجلاء؛ أعضاءِ الهيئة–ومَن في درجتهم –قدامى ومعاصرين. الدكتور عطية السيد عطية، والمقالات التي بين أيدينا قام بجمعها وإعدادها، وتصنيفها، والتعريف بها، والترجمة لصاحبها، واختيار عنوان لها؛ الدكتـــور/ عطية السيـــد عطية، المدرس بكلية أصول الدين بالمنصورة–جامعة الازهر، وقد جاءت تلك المقالات لتشير إلى الرسالة التي أوقف كاتبها المجيد حياته للقيام بأدائها، وتفصح عن ارتباط علماء الأزهر –دوما– بواقع مجتمعهم وقضايا وطنهم، وعملهم على تقدم كل منهما ورفعته.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل في موازين كاتبه وجامعه ومراجعه، وكل من أسهم في ظهوره، وأن ينتفع به القارئ الكريم.

وبالله تعالى التوفيق

أ.د/ صلاح محمود العادلي

أمين عام الهيئة

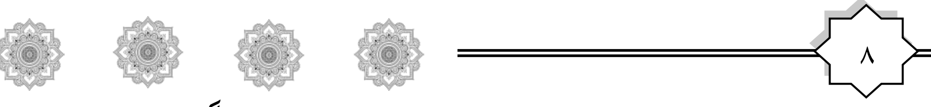
الشيخ محمد عرفة سيرة علمية ومواقف حياتية

هو محمد أحمد عرفة، واحد من الأعلام البارزة التي أضاءت سماء الأزهر الشريف، ولد في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حوالي سنة ١٨٩٤م[(١)]، والتحق بالتعليم الأزهري عام ١٩٠٤م، حيث التحق بمعهد دسوق الديني، ثم أكمل تعليمه الثانوي في معهد الإسكندرية الديني، ثم انتقل للقسم العالي في الأزهر الشريف، وحصل منه على شهادة العَالِمية عام١٩٢١م، وعلى إثر تخرجه عُيِّن مدرسًا بمعهد الإسكندرية الديني[(٢)]، وفي هذا التوقيت شغلت الجرائد بقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠م الخاص بالأحوال الشخصية، فرأى من نفسه القدرة على أن يُدلي بدلوه في قضية عامة يتهيب الكثير من أقرانه من ولوج دائرتها فسطَّر بقلمه الناشئ سلسلة من البحوث الفقهية، رأى فيها وجوب إعادة النظر في الطلاق المعلق، وطلاق الغضبان والمُكْرَه، وطلاق الأيمان بلفظ واحد، وكان يواري التصريح باسمه مستعيضًا عن ذلك بالرمز إليه بحرفي (م. ع)، وكانت آراؤه مصدر نقاش متصل بين المُشرِّعين الكبار، اضطرتهم للتساؤل في شغف عن صاحبها، ظانين أنه من

---

(١) لم يرد ذكر تاريخ ميلاد الشيخ بالتحديد في أي مصدر من مصادر الترجمة له، لكن ذُكر أنه تمت إحالته للتقاعد عام ١٩٥٩م، ولما كان التقاعد يتم عند سن خمس وستين سنة فيكون ميلاد الشيخ عام ١٨٩٤م.

(٢) الشيخ محمد عرفة، د. محمد عبد المنعم، مجلة الأزهر، السنة السادسة والخمسون، الجزء الثاني، ص ٢١٧-٢١٨، صفر ١٤٠٤هـ / نوفمبر ١٩٨٣م



ذوي المناصب العالية في الأزهر أو المحاكم الشرعية، وقد رشَّحت هذه السلسلة الفقهية صاحبها – بعد الاهتداء لشخصه – لشغل منصب الأستاذية بكلية الشريعة الإسلامية عقب إنشائها عام ١٩٣١م، ثم عُيِّن وكيلًا لها بعد ذلك عام ١٩٣٣م، فنهض بالمهمة على أكمل وجه، وكان من العلامات البارزة على سعيه للنهوض بالكلية إعطاؤه التوجيهات لتأليف مؤلَّف يشمل آيات الأحكام القرآنية في أجزاء أربعة، يختص كل جزء بعام دراسي من أعوام الكلية، ينأى عن التعصب للمذهبية الفقهية [(١)].

ثم انتقل –رحمه الله – بعد ذلك إلى كلية اللغة العربية (قسم الفلسفة) ليظل بها ثلاثة عشر عامًا؛ ليجمع بين التخصص في علوم الشريعة وعلوم اللسان.

وفي سنة ١٩٤١م تم اختياره ليكون عضوًا في هيئة كبار العلماء، وقد أهَّلَه لذلك كتابه (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) الذي ألفه للرد على الأستاذ/إبراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب صاحب كتاب (إحياء النحو)، وقد قدَّم له فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر/محمد مصطفى المراغي، فكان مما قال: " إنَّ هذا الكتاب عظيم الجدوى والفائدة، فليست جدواه مقصورة على أنه ناقش كتاب إحياء النحو، وبَيَّن ما فيه من مقبول أو مردود، لو كانت فائدته تلك لزالت بزوال هذه

---

(١) انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، (١/ ٥٢٨).

الحاجة، ولكن جدواه باقية، ولو لم يوجد كتاب إحياء النحو، ذاك أنه أسفر عن بيان مسائل كانت عويصة، وكان كلام النُّحَاةِ فيها كأنه رمز وإيحاء "[(١)].

وفي عام ١٩٤٦م اختير مديرًا للوعظ ومديرًا لمجلته، ثم عُيِّن مديرًا لمجلة الأزهر في شهر صفر عام ١٣٧٢هـ / أكتوبر ١٩٥٢م، وفي عام ١٩٥٩م أحيل إلى التقاعد، وظل عاكفًا على القراءة والكتابة والدعوة إلى الله حتى توفاه الله عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م[(٢)].

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ قد ترك نتاجًا علميًا انتفعت منه الأجيال، ومن أهمها:

١-النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة.

٢-رسالة الأزهر في القرن العشرين.

٣-نقض مطاعن في القرآن الكريم.

٤-اللغة العربية، لماذا أخفقنا في تعليمها وكيف نعلمها؟

٥-السر في انتشار الإسلام.

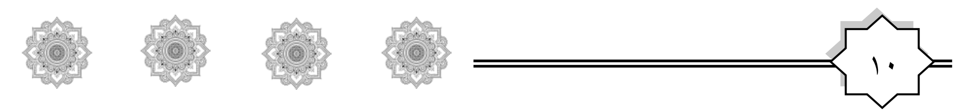
٦-الإسلام أم الشيوعية.

٧-إنقاذ البشر من أن يفني بعضهم بعضًا بالحرب الذرية.

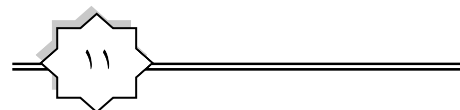
---

(١) النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، مقدمة الإمام الأكبر (المراغي)، ص ٧.

(٢) الشيخ محمد عرفة، د.محمد عبد المنعم، مجلة الأزهر، السنة السادسة والخمسون، الجزء الثاني، ص ٢١٨.



كما ترك الكثير من الأحاديث الإذاعية، والمقالات في الجرائد والمجلات، ولهذا استحق أن يصفه د/محمد رجب البيومي بأنه (ناقد تعددت صولاته، واتسعت ميادينه)، وكانت لديه مكتبة حافلة بشتى الكتب الحديثة والقديمة، وكان يقضي فيها معظم أوقاته.



بين يدي المقالات

الحمد لله أنار مصباح البيان من مشكاة الأفكار، وأصلي وأسلم على من اصطفاه الله من سلسلة الأخيار، وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ قيمة الإنسان ما يَعْلَمُ، وزكاةُ علمه نشرُه بين الناس لترتقي البشرية، وتسيرَ قدُمًا في مراقي الكمال، ومن هنا أعلى الإسلام من شأن العلم والعلماء، فالعلم في الإسلام قيمة يُربى عليها الفرد، ويحافظ عليها المجتمع، والعلماء في الناس كالنُّجُوم يهتدون بها في البر والبحر، والعالِمُ يستغفر له من في السموات ومن في الأرض.

وقد منَّ الله على هذه الأمة بقوافلَ من الأعلام النابهين، وثُلَّةٍ من العلماء المتقنين المخلصين، استهلالًا بعصر الصحابة والتابعين، ومن دَرَج على سَنَنِهم من صدر الأمة وسلفها الصالح، ومن أتى بعدهم فسلك طريقهم، واقتفى أثرهم.

هذا وقد تنوعت الميول العلمية في كل عصر ومصر، وصارت للعلماء طبقات وتخصصات، وكان منهم أعلام في مختلف فروع العلم، وفنون المعرفة كعلوم العقيدة، والشريعة، واللغة، والفقه، والأصول، والطب والكيمياء، والفلك والهندسة.

وكان الأزهر الشريف القلبَ النابضَ لجسد الأمة العلمي والمعرفي بعلمائه الأفذاذ الذين بددوا بعلومهم دياجير ظلام الجهل، وضبابية التخلف، ومن هؤلاء الأعلام الذين سعدت بهم الأمة فضيلة الشيخ/ مُحَمَّد أحمد عرفة وكيل كلية الشريعة، وعضو هيئة كبار العلماء، وصاحبُ المؤلفات الرَّصِينَة، والمصَنَّفات التي سدت ثغرة ما كان لغيرها أن تَسُدَّ مَسَدَّهَا أو تقوم مقامها.

وكان من ضمن ما تركه الشيخ من تراث علمي عددٌ كبير من المقالات المنشورة على صفحات عدد من الجرائد والمجلات المصرية، التي تناولت موضوعات شتى، وطرحت قضايا حيوية، لا تزال الأمة بحاجة إلى إعادة قراءتها والإفادة منها، ومن هنا جاءت فكرة جمع مقالات الشيخ – رحمه الله – المنشورة على عدد من صفحات المجلات المصرية، ومنها: مجلة الأزهر الشريف، ومجلة الرسالة، ومجلة المنار، ومجلة الهلال، ومجلة العربي الكويتية، منذ أن بدأ الكتابة فيها إلى أن أسلم الروح لباريها.

ومن الجدير بالذكر أن للشيخ الكثير من المقالات في عدد من الجرائد المصرية كجريدة المصري، والأهرام، والبلاغ، تحتاج لجمعها في سفر آخر إن شاء الله.



تصنيف المقالات وفحواها:

لمَّا كانت هذه المقالات تدور في فلك دوائر علمية مختلفة ما بين شرعية، ولُغويَّة، وأخلاقية وتربوية، ومناقشات وردود على آراء، فقد استلزم الأمر القيام بتصنيفها وترتيبها وتنظيمها في مجموعات مع وضع عنوان لكل طائفة منها؛ لذا جاءت على النحو التالي:

الأولى: مقالات تعلَّقَت بتفسير آي الذكر الحكيم وجاءت بعنوان: (نفحات قرآنية)، أظهر فيها الشيخ قدرة فائقة على حسن وجمال تفسير الآيات القرآنية بأسلوب تميَّز بالسهولة مع روعة البيان، ودقة التعبير، ليتنقل بعد ذلك من عالم التنظير إلى ضرورة الانتقال إلى حيِّز التطبيق والتنفيذ فرَبَطَ الآيات المختارة بالواقع الذي يحياه الناس، ونادى بضرورة تطبيق التعاليم القرآنية في دنيا البشر، لذا تجده يوضح منهجه في التفسير قائلًا: " ليس الغرض من التفسير أن تُعرف مدلولات الألفاظ اللغوية والجُمل، ولا نطبق ذلك على أنفسنا وعلى مجتمعنا، وإنما الغرض أن نتدبر القرآن ونفقهه، والفقه أعلى منزلة من الفهم، ونطبقه على أنفسنا ومجتمعنا، فنعتبر به ونهتدي، ولهذا أنزل القرآن ".

الثانية: مقالات دارت في فلك السيرة النبوية وعنوانها: (من عطر السيرة النبوية)، وقد انتقل الشيخ خلالها من دائرة رواية الحدث، أو حكاية القصة إلى دائرة استلهام العظة والعبرة، واتخذ من أحداث السيرة النبوية المؤثرة ركيزة انطلق منها لمعالجة

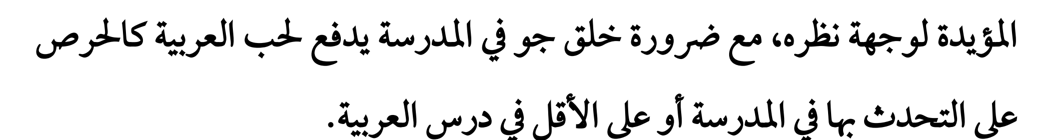
أدواء الأمة، وما تعانيه من أمراض خلقية واجتماعية، فتناول ذكرى مولده ﷺ من زاوية الحاجة الماسة والملحة إلى إحياء ما اندرس من سنته، وضرب لذلك مثالًا بخلق الرفق واللين، وتناول بيعة العقبة الأولى مُرَكِّزًا على كونها انطلاقة لتكوين المجتمع الإسلامي الجديد بما تحلى به هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم من المحبة والمودة والإيثار.

الثالثة: عَرَضَ فيها الشيخ لمشكلات تعليم اللغة العربية، والتي كان على رأسها الدعوة إلى استبدال اللغة العامية باللغة العربية، وأبان أن هناك ثلاثة اعتبارات تدعو للمحافظة على العربية وضرورة إتقان الطلاب لها كتابة وقراءة وتحدثًا، وهذه الاعتبارات دينية، واجتماعية، وتاريخية، ثم حدد نقده في مسارين:

الأول: نقد الطريقة التي تسلكها المدارس في تعليم العربية.

الثاني: نقد المادة العلمية المعروضة على الطلاب من نحو وصرف وبلاغة.

ولم يقف عند حد النقد وإنما انتقل إلى وضع العلاج الذي ارتآه في الانتقال من التعليم بطريقة حفظ القواعد الجافة الجامدة إلى طريقة المران والدربة والتي تتأتى بحفظ المقطوعات النثرية، والمنظومات الشعرية، والخُطب المنتقاة من تراث العرب، وأمثالهم وحكمهم، مع كثرة التكرار والإعادة، وراح يقدم الأدلة الدامغة



المؤيدة لوجهة نظره، مع ضرورة خلق جو في المدرسة يدفع لحب العربية كالحرص على التحدث بها في المدرسة أو على الأقل في درس العربية.

ولذلك جاءت هذه المجموعة تحت عنوان (اللغة العربية: مشكلات وحلول).

الرابعة: بحثت مسائل فقهية شائكة لطالما اختلفت حولها وجهات النظر وتباينت الآراء، فجاءت بعنوان (قضايا فقهية). وقد تناول فيها ثلاث قضايا، أولها: كانت ردًّا على استفسار وجهه أحدهم إلى فضيلته حول مسألة من مسائل الهبة، وثانيها: بَيَّن فيها الحكم الشرعي حول مسألة لطالما ثار حولها لغط شديد آنذاك بعد زوال عهد الملكية وقيام نظام الجمهورية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م، حيث اتخذت حكومة الثورة قرارًا بمصادرة أراضي الإقطاعيين التي زادت عن مائتي فدان، وتوزيعها على صغار المزارعين من الفلاحين، وبالتالي ثارت ثائرة أصحاب الأراضي الشاسعة من الإقطاعيين، وتساءلت الجماهير العريضة عن حكم تحديد الملكية في الإسلام، وهنا انبرى الشيخ موضحًا حكم الشرع الحنيف في تحديد الملكية مُقدمًا الأدلة الشرعية على جواز تحديد الملكية، والتي تمثلت في وقائع حيَّة من السنة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين. وأما ثالثها: فكانت معالجة لقضية الختان، وقد أدلى فيها بحكم الشريعة الإسلامية حول هذه القضية الشائكة خاصة عملية ختان الإناث التي اختلفت فيها وجهات النظر ما بين مانع ومجوز، ومناصر ومُشَنِّع، وانتهى فيها للحكم بأنها واجبة في حق الذكور مَكْرُمَةٌ في حق الإناث.

الخامسة: خواطر للشيخ حول نظرة الإسلام لمسائل الحرب وقضايا السلام، والتي جاءت بعنوان (حول الحرب والسلام)، وكانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥م) والتي نشبت بين قوات الحلفاء ودول المحور، أول ما استدعى الشيخ للكتابة في هذا المجال على صفحات مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠م، خاصة وأنه - بلا شك - تابع من خلال الصحف والمجلات، وغيرها من الوسائل المتاحة ما أحدثته هذه الحرب من دمار شامل طال الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وأكلت الأخضر واليابس، وأبان أن السبب في هذه الحرب الطاحنة تنازع الفريقين لمبدأين متناقضين هما: إرادة الحياة، وإرادة القوة، وبعد ما يربو على السنوات العشر تناول قضية السلام عبر مقدمة بليغة مقارنة بين الأديان من حيث الرغبة والقدرة على قبول الآخر والاعتراف به أو مناهضته ونفيه والعمل على إبادته، ثم قَدَّم الأدلة الدامغة على أن الإسلام من النوع القابل للآخر المرحب بالعيش معه على أرض واحدة في سلام ووئام.

السادسة: عَرَضَتْ للأخلاق الإسلامية والتوجيهات التربوية، فَوُصِفَتْ (أخلاقيات وتوجيهات تربوية). وقد دلَّت هذه المقالات على تمكن الشيخ من الإمساك بزمام حسن التوجيه للأجيال وتربيتها، فلفت الأنظار إلى الفضيلة التي نقل بها الإسلامُ العربَ من حالة الشتات والتشرذم إلى حال التجمع والتوحد، بفضل توجيهاته المستمرة نحو الوحدة، وانتقل للحديث عن فضيلة أخرى لا تقل



شأنًا عن الفضيلة الأولى وهي فضيلة الشجاعة التي رأى أنها كانت سببًا قويًا لانتشار الإسلام وظهوره بعدما ربَّى الإسلام أتباعه على حبها وتزيينها في قلوبهم بشقيها الأدبي والجسدي.

وكان من لفتاته التربوية حديثه عن الميزة الكبرى التي مَيَّز الله بها الإنسانَ عن سائر المخلوقات، ميزة العقل، وتركزت توجيهاته في هذا المقال على النصح لجموع الأمة للاهتمام بعقول أبنائها وضرورة تنميتها وتزكيتها بطرق متعددة شرحها وأفاض فيها.

وفي مقال آخر يستثمر فيه قضية الاعتقاد باليوم الآخر ليؤكد من خلاله على أنه من أعظم أسباب حلول البركات في حياة البشر، فما انتشار الشر في العالم إلا بغياب هذه العقيدة وما عمَّ الخير في المجتمعات إلى بزيادة الشعور واليقين باليوم الآخر.

ولأن الإسلام دين فرح وسرور، فقد شرعت فيه الأعياد للترويح عن النفوس، والتسرية عنها، وفي هذا الإطار الإيجابي دبَّج الشيخ مقالتين عن العيد ونظرة الإسلام لهذه الشعيرة المروِّحة عن القلوب.

ولمَّا كان للإشاعات خطرها وضررها، فقد أفرد لها مقالًا يحذر فيه الأمة من مغبة الوقوع في حبائلها، معتمدًا التوجيهات القرآنية، والأوامر والنواهي النبوية.

<u>السابعة</u>: ناقشتْ بعض الأفكار والآراء التي جانبت الصواب، وحادت عن الجادَّة، وسُمِّيَت (مناقشات وردود).

وهذه المجموعة تعد معلمًا من المعالم الرائعة في تاريخ المعارك الفكرية ونقاش الآراء ونقد وجهات النظر التي احتاجت لمن يقوِّمها ويُقَيِّمُهَا، وهو مجال لا يصلح فيه إلا أصحاب الهمم العالية والأنفاس الطويلة في البحث العلمي والتجرد للحقيقة؛ ليكون النقاش موضوعيًّا يصيب كبد الحقيقة بعيدًا عن الحماسة الهائجة التي لا تُقْنع بدليل ولا ترد بحقائق.

وقد كان الشيخ واحدًا من فرسان هذا الميدان وكانت أولى محاولاته في هذا المضمار رده على الآراء التي أوردها الدكتور/ طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي)، كما ناقش الآراء التي أوردها الدكتور/ زكي نجيب محمود في كتابه (خرافة الميتافيزيقا) رحمها الله تعالى، بردود تدل على رسوخ قدمه في علم المنطق والتمكن من امتلاك ناصيته، ولما تُرْجمت دائرة المعارف الإسلامية التي تولى إعدادها عدد من المستشرقين كانت له تعقيبات جوهرية ومناقشات علمية لعدد من آراء المستشرقين الواردة فيها، كرأيهم حول شعيرة الحج في الإسلام، ونقدهم للإجماع كدليل من أدلة التشريع الإسلامي، وطعنهم في الصحابي الجليل أبي هريرة – رضي الله عنه –.

الثامنة: عرضت لدفاعه عن الأزهر، ولرأيه ورؤيته فيما يتعلق بالتعليم بوجه عام.

ومن تتمة العمل أن تضاف عدة أمور:

١-أن يوضع تحت عنوان كلِّ مقالة اسم المجلة، وتاريخها الهجري والميلادي، ورَقْمَ المجلد، ورقم الجزء، ورقم الصفحات.

٢-توثيق الآيات القرآنية بنسبتها إلى السورة، ورقم الآية.





٣-تخريج الأحاديث النبوية من مُدَوَّنَات السُّنَّةِ النبوية، والحكم عليها

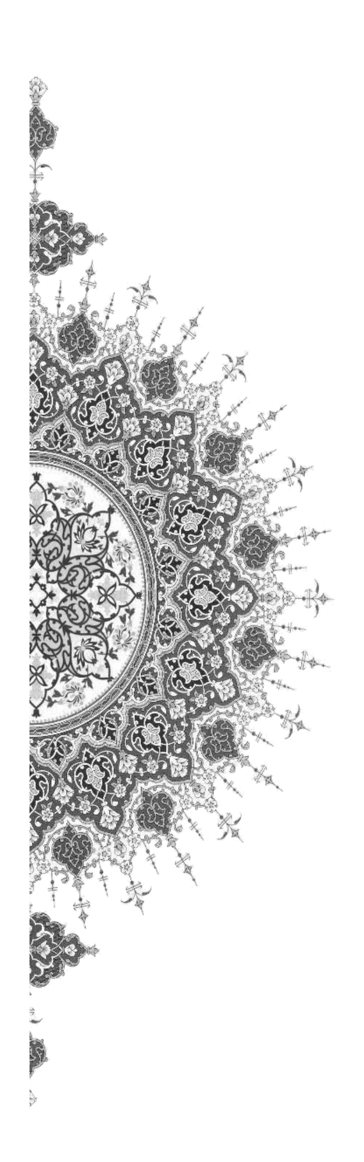
٤-نسبة الأبيات الشِّعْرِيَّة إلى قائلِهَا مع إثبات المرجع العلمي لذلك.

٥-التعليق بما فيه فائدة كتوضيح كلمة غامضة، أو ترجمة لعَلَمٍ من الأعلام، أو إزالة التباس، أو تعقيبٍ على أمر يحتاج إلى بيان.

٦-ضبط وتشكيل الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

وبالله تعالى التوفيق

المجموعة الأولى
نفحات قرآنية



تحتوي على المقالات التالية:

١-نفحات القرآن

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾.

٢-من هدي الكتاب العزيز

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾.

٣-من هدي الكتاب العزيز

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾.

٤-فتربصوا حتى يأتي الله بأمره.

١ - نفحات القرآن ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ (١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ * وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ * وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (٢).

هذه الآيات الكريمة من سورة آل عمران عظيمة الجَدَا (٣)، كثيرة الفائدة، فهي تُحَذِّرُ المسلمين من مَعَاول لا تزال تَنْقُضُ مجتمعهم وتحاول هدمه، وهي سِعاية الأعداء فيهم، ونشرُ النَّمائم بينهم، ولا سلامة لمجتمعهم إلا بعصيانهم والحذرِ منهم وردِّ نُصْحِهم عليهم، وكيف يُرْجى النُّصْحُ ممن ينطوي على غل وضِغْنٍ وحسد وحقد؟ ثم أمرهم الله بأوامر فيها قوة المجتمع وعونٌ على دفع الكائدين:

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثلاثون، الجزء التاسع، ص ٦٩٧-٧٠٠، رمضان ١٣٧٨هـ / مارس ١٩٥٩م.

(٢) آل عمران: ١٠٠-١٠٥.

(٣) الجَدَا: مقصور الجَدْوى، وهما: العَطِيَّة.

أولها: تقوى الله حَقَّ تُقَاتِه باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يلزم المؤمنون الإسلام، حتى لا يموتوا إلا وهم مسلمون.

ثانيها: أن يعتصموا بحبل الله جميعًا وهو كتابه وعهده الذي عهد إليهم فيه من الأُلْفَةِ والجماعة.

ثالثها: أن يذكروا نعمة الله عليهم إذ جعلهم إخوانًا متحابين بعد أن كانوا أعداءً متباغضين، وذلك أن جعلهم وحدة اجتماعية، جَمَعهم على دين واحد ورب واحد، فصاروا إخوانًا متعاونين على دفع الأعداء، يردُّون من أرادهم بسوء.

أراد منهم أن يذكروا ذلك دائمًا ليعلموا فَرْقَ ما كانوا عليه وما آلوا إليه، فيعلموا أن الخير الذي نالوه والشرَّ الذي نجاهم الله منه إنما كان بنعمة الإسلام، فيحافظوا عليه ويَعَضُّوا عليه بالنواجذ ولا يُفَرِّطوا فيه.

رابعها: أن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فتحافظ على هذه القواعد أن تنهارَ فينهارَ البناء.

وبذلك يكون المجتمع الإسلامي قوى البنيان متين الأركان، كالجبل الأشم ينحدر عنه السَّيْل ولا يَرْقى إليه الطَّيْر.

بَيَّن الله لنبيه والمسلمين في هذه الآيات: أن مِن أهل الكتاب مِن اليهود والنصارى مَنْ هُمْ منطوون لهم على غش وغل وحسد وبغض، وأن الحيطة تقضى ألا يقبلوا منهم رأيًا ولا نصحًا، فإنهم يبثون النميمة بين المسلمين مُتَنَصِّحِين، وهم السُّمُّ

الناقع والبلاءُ النازل، فإن أطاعوهم أضلوهم وردوهم بعد إيمانهم كافرين يتعادون ويتقاتلون.

ثم قال: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، المراد بالاستفهام هنا الإنكار والتعجب: أي من أين يتطرق إليكم الكفرُ والضَّلالُ وأنتم تتلى عليكم آيات الله على لسان نبيكم غَضَّةً طَرِيَّة، وفيها العظة والإرشاد لما فيه من نفعكم، والنهي والتحذير عما يضركم، وفيها الأمر بالاجتماع والألفة، والتحذير من الانقسام والفُرْقة.

ومن يتعلق بأسباب الله فيتمسك بدينه وطاعته، فقد وُفِّق لطريق واضح وبحجة مستقيمة لا أَمْتَ فيها ولا اعوجاج.

والاعتصام من العَصْمِ وهو المنع، فكل مانع شيئًا فهو عاصِمُه، والممتنع به معتصم به، قال الفرزدق:

أنا ابنُ العَاصِمِينَ بَنِي تَمِيمٍ ... إذا ما أعظمُ الحُدثَان نَابَا [(١)]

ولذلك قيل للحَبْلِ عِصَام، وللسَّبَبِ الذي يتسَبَّبُ بِهِ الرجل إلى حاجته عِصَام،

(١) البيت من بحر الوافر، والعاصمين: مِنْ عَصَمَهُ أي حَمَاه، ومنعه، والحدثان: حوادث الدهر ومصائبه، نَابَا: أصاب بسوء، ديوان الفرزدق قصيدة (أنا ابن العاصمين)، شرح وضبط: علي فَاعُور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص ٩١.

قال الأعشى:

إِلَى المَرْءِ قَيْسٍ أُطِيلُ السُّرَى ... وَآخُذُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ عُصُمْ (١)

يعنى بالعِصَم الأسباب وهي الذِّمَّةُ والأمان.

عن عكرمة قال: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألَّف الله بين قلوبهم، وجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعرًا قاله أحد الحيين في حربهم، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء، فقال الحي الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، قال: فقالوا: تعالوا نردُّ الحرب جذعًا كما كانت، فنادى هؤلاء: يا آل أوس، ونادى هؤلاء يا آل خزرج؛ فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبي ﷺ حتى قام بين الصَّفَّيْنِ فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون إليه، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانقَ بعضهم بعضًا وجعلوا يبكون.

---

(١) البيت من بحر المتقارب، وهو من قصيدة للأعشى مدح بها قيس بن معد يكرب، والمعنى: في سبيل قيس ما أطلت السرى، وفي سبيله ما لقيت من عناء في رحلتي، أَمُرُّ بالقبائل والأحياء آخذًا منها العهود. ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٦٩.

وقال زيد بن أسلم[١]: مَرَّ شاس بن قيس اليهودي وكان شيخًا قد غبر في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلْفَتِهم وصلاحِ ذاتِ بَيْنِهِم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شابًا من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذَكِّرْهُمْ بيوم بُعَاث وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين: أَوْس بن قبطى أحد بني حارثة من الأوس، وجَبَّار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا وقال أحدهما لصاحبه: إن شئت والله رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعًا وقالا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة وهي حرة، فخرجوا إليها فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين، بدعوى

---

(١) زَيْدُ بنُ أَسْلَم مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَيُكَنَّى أَبَا أُسَامَةَ، توفي سنة ١٤٣هـ، وقيل: ١٣٦. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٨هـ (١/ ٣١٤-٣١٦).



الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألَّف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟ الله الله». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وكبوا، وعانق بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ يعني الأوس والخزرج، ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾،يعني شاسًا وأصحابه، ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾.

فهذا شاس بن قيس اليهودي الذي انطوى صدره على غل وحقد على المسلمين، قد غاظته أُلْفتهم واجتماعهم، ففكَّر فيما يُفَرِّق جمعهم ويصدع أُلْفَتَهم، وأي شيء أبلغ من أن يذكرهم بحروبهم في الجاهلية، وما قالوا فيها من أشعار يفخر بعضها على بعض، ويُعَيِّرُ فيها بعضُهُم بَعْضًا بمن قُتِلَ منهم، وذلك يبعث الأضغان القديمة من مراقدها، والإحن الكامنة من مكامنها وكذلك كان.

لا تظنوا أيها المسلمون أن شاس بن قيس قد هلك وانقضى، بل هو حي يُرزق تجدونه في كل بيت وفى كل بلد وفى كل مملكة يمشي بينكم بالنميمة، ويُخَوِّفُ الأخَ من أخيه، والولدَ من أبيه، حتى يُفَرِّقَ جمعكم، وُيشَعِّب ألفتكم.

ومن عجب أن هذا الداء ساير الأمة الإسلامية من يوم وجدت إلى يومنا هذا، ولا يزال هناك داؤها العُضال هو شاس بن قيس! ينفث سمومه كالأفعى؛ فيحلُّ العُقَدَ الوثيقة والروابطَ المُحْكمة بين المسلمين ويَفْصِمُ عرى التعاون والتراحم بينهم.

ومن عجب أن الله تقدم إلى هذه الأمة من يوم وُجِدَت، فعرَّفها الداء وعرَّفها الدواء، في تلك الآيات الذهبية، فلم تفطن له ولم تَرُدَّ كيده في نحره، وخُدِعَت بدسائسه فيها، فنال منها ما أراد من تمزيق ألفتها وتصديع وحدتها، ثم لا يمنعها ما لاقت منه بالأمس أن تعود فتصدقَه اليوم، فهل آن للمسلمين أن يحذروا كيد الأعداء، وتَنَصُّحَ البُعَدَاء. ..!

ألا صيحة توقظ النائمين وتنبه الخامدين!

ألا قارعة من تلك القوارع تقرع أسماعهم!

ألا زجرة من تلك الزواجر توقظ قلوبهم!

ألا نفحة من تلك النفحات تفتح عيونهم على الأعداء والأصدقاء..! فيروا هؤلاء الأعداء المتنصحين على حقيقتهم يصدعون الجمع، ويفرقون الشمل، ويروا الضعف الناشئ عن الفرقة، والمصير السيِّئ المحتوم بالتشتت والانقسام، فيعصوا الأعداء المتنصحين ويلموا الشمل ويرأبوا الصدع، قبل أن يلتهمهم العدو الفاغر فاه...! وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

٢-من هدي الكتاب العزيز ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[(١)]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[(٢)].

يقول: يا أيُّها الذي آمنوا خافوا الله حقَّ خوفه، وراقبوه بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وتقوى الله حق تقواه أن يُطاع فلا يُعصى ويُشكرَ فلا يُكْفَر، ويُذْكرَ فلا يُنسى، ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، مذعنون ومخلصون لربكم أي داوموا على الإسلام حتى إذا جاءكم الموت جاءكم وأنتم مسلمون، فإن قيل كيف أمر بتقوى الله حق تقواه وهذا أمر لا يقدرون عليه وهو من قبيل التكليف بما لا يطاق؟ قيل إن ذلك نسخ بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[(٣)].

وروي ذلك عن سعيد بن جبير قال: إنها لما نزلت اشتد على القوم العمل فقاموا حتى وَرِمَتْ عَرَاقِيبُهُمْ[(٤)] وتَقَرَّحَتْ جِبَاهُهُم فأنزل الله تخفيفًا عنهم: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[(٥)].

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثلاثون، الجزء العاشر، ص ٨٦٢ -٨٦٧، شوال ١٣٧٨ﻫ / مارس ١٩٥٩م.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢.

(٣) سورة التغابن من الآية ١٦.

(٤) العراقيب: جمع العُرْقُوب: وهو العَصَبُ الغليظُ، المُوَتَّرُ، فَوْقَ عَقِبِ الإنسان. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤م، مادة: (عَرْقَبَ)، مج٥، (١٢٠/١٠).

(٥) التغابن: ١٦.

والظاهر أنه لا نسخ وأن التكاليف كلَّها مأخوذ فيها شرط القدرة والاستطاعة، فالمعنى: اتقوا الله حق تقاته فيما تستطيعون.

وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –ما يفهم منه عدم النسخ فقد فسَّرها بأن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم، فهي بمعنى الآيات التي جاءت بهذه الأمور الثلاثة ولم يقل أحد بنسخها.

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾[1]: وتعلقوا بأسباب الله جميعها، يريد بذلك وتمسَّكوا بدينِ الله الذي أمركم به وعهدِه الذي عهده إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق.

والحبل هو السبب الذي يوصل به إلى البنية والحاجة، ولذلك سمى الأمان حبلًا لأنه يوصل إلى زوال الخوف والنجاة من الفزع والذعر.

ومنه قول أعشى بن ثعلبة:

وإذا تُجَوّزها حِبالُ قبيلةٍ   أخذت من الأخرى إليك حِبالَهَا[2]

ومنه قول الله: ﴿ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3].

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) البيت من بحر الكامل، ديوان الأعشى، ص ٧٩.

(٣) آل عمران: ١١٢.

واختلف العلماء في المراد من الحبل، فقال بعضهم: القرآن والعهد الذي عهد فيه، قال قتادة: حبل الله المتين الذي أمر أن يعتصم به في القرآن، وقد ورد عن النبي ﷺ: «عليكم بكتاب الله فإن فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، من يدعه من جبار قصمه الله، ومن يبتغ الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وأمره الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لما سمعه الجن لم يتناءوا أن قالوا: «إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد»، وهو الذي لا تختلف به الألسنة، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»[(١)].

وقيل: هو الإسلام، وقيل هو الجماعة، والظاهر أن المراد به القرآن أو الإسلام، وهما عاصمان للمسلم من الشرور والآثام والفرقة والانقسام.

يروى أن أبا بكر مات وخالد بن الوليد قائد جيش المسلمين في حرب الروم، فلما تولَّى عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد، وَوَلَّى أبا عبيدة وأرسل إلى خالد بذلك، فقال: الحمد لله الذي أمات أبا بكر وكان أحبَّ إلينا من عمر، واستخلف عمر وكان أبغض إلينا من أبي بكر، وألزمنا طاعته، ثم تنَحَّى عن قيادة الجيش، وحارب جنديًا مع المقاتِلين.

فهذا هو الإسلام عَصَم خالدًا من الفُرْقَة وانقسام الكلمة، فإذا أخذ المسلمون به عصمهم كذلك، وكما هو عاصم من الفرقة والانقسام عاصم من الفحشاء

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، رقم (٢٩٠٦)، وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول.

والمنكر، وعاصم من غضب الله ومن ناره وعقوبته، ومن البلاء والفتن التي تصيب الناس بذنوبهم.

والقرآن هو قانون الله الذي ضُمِّن أوامره ونواهيه، فإذا مسَّ المسلم طائف من الشيطان تذكر أمر الله ونهيه فعصمه، فكِلا الإسلام والقرآن عاصم، فصحَّ أن يقال اعتصموا بحبل الله الذي هو الإسلام، واعتصموا بحبل الله الذي هو القرآن.

ولا تفرقوا كما كنتم متفرقين في الجاهلية، يعادي بعضكم بعضًا ويحاربه، وإدراك ذلك يكون بالامتناع عما يكون عنه التفرُّق وترك ما يصدع الوحدة ويزيل الاجتماع والألفة، نهى الله عن التفرق، لما في التفرق من زوال الوحدة، والوحدة هي القوة، والقوة هي الغلب والامتناع، والحق بحاجة إلى قوة تَذُبُّ عنه وعن أهله، ليسلم لهم حقهم وليستطيعوا نشره في العالمين.

وقد قال الشاعر ينصح بنيه عند الموت:

كونوا جميعًا يا بَنِيَّ إذا اعترى … خَطْبٌ ولا تتفرقوا آحادًا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا … وإذا انفردن تكسرت أفرادًا [(١)]

وخير ما يديم الوحدة بين المسلمين هو المحبة، وخير ما يحقق المحبة هو العدل، وشر ما يفرق الناس هو البغض، وشر ما يجلب البغض هو الظلم والجور، وقد

---

(١) البيت منسوب لأكثم بن صيفي، وهو من وصاياه لأولاده، بلفظ **القداح** بدل الرماح في الشطر الأول من البيت الثاني. مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٣م، (٢/ ١٤٥).

أوصى الإسلام بالتحاب والعدل والرحمة، ونهى عن التباغض والتظالم بعد أن وحَّد المسلمين وجمعهم على عبادة إله واحد، ووحد مشاعرهم وعقائدهم ومثلهم العليا، ونهي عن العصبيات المُفَرِّقَة وجعل لهم عصبية واحدة هي الإسلام، وأن يستظل المسلمون جميعًا بِظِلِّه ويقفوا تحت رايته خفاقة.

فإن قيل: إذا كان الإسلام كما ذكرت فما الذي جعل المسلمين أحزابًا متعادية أو شيعًا متفرقة، فهذا سُنِّي وهذا شِيعي، وهذا معتزلي وهذا خارجي... إلخ.

وما الذي جعلهم يتعادون حتى على الأمور السياسية؟ وما لهم محبوسون في المصيدة، يتعادون ويتنازعون، وقد تركوا عَدُوَّهم المشترك الذي لا يريد منهم إلا أخذ أرضهم وطردهم كما فعل بإخوانهم في فلسطين؟

إن من طاردتهم الذئاب والسِّبَاع والحَيَّات والأفَاعِي لا يَحْسُنُ بهم أن يُلْهَوا عن ذلك كله، ويشغلوا بنزاعهم الداخلي عن الخطر المحدق بهم؟

قلنا: إن علماء الإسلام من القديم إلى الآن قد قَصَّرُوا في حق الوحدة الإسلامية وأخوة الإسلام والتعاون الإسلامي فلم يبحثوها بحثًا مُسْتَقْصَى وبَيَّنُوا أسبابَها وموجباتِها، وما الموانع التي تَحُولُ دُونَها، وما الدور العظيم الذي قامت به في التاريخ، وما حِيلُ الأعداء في تَشْتِيت الوحدة وقطع المحبة وبثِّ الإِحَنِ والأضغان، قَصَّرُوا في ذلك وقَصَّروا في أن يقيموا مَجْمَعًا مهمته أن يبث المحبة ويحافظ على الوحدة، إنهم شُغِلوا بالطهارة ونواقض الوضوء وموجبات الغسل

فأعطوها من العناية ما لم يعطوه لجمع كلمة المسلمين وبث المحبة بينهم، مع أن الأخوة الإسلامية فيها عزهم ونصرهم وبقاؤهم.

كنا نريد أن تُفْرَدَ بالتأليف وتُسَلَّطَ عليها الأضواء ويدعى لها حتى يعلمَ المسلمون شأنهم، ويكونوا على بينة من أمرهم وتدرس في جميع معاهد التعليم.

ولعلنا نقوم ببعض هذا الواجب ويكمل العلماء ما بدأناه وبحسبنا أن نبدأ وبحسبنا أن نُنَبِّه.

﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾:

ذكرنا الرواية التي تقول إن هذه الآيات نزلت في الأوس والخزرج، لمَّا كاد اليهود يوقدون بينهم نار الحرب بعد أن أطفأها الله بالإسلام، فيكون معنى الآية: واذكروا أيها المؤمنون من الأوس والخزرج نعمة الله عليكم؛ إذ كنتم أعداء في جاهليتكم، لكم أيام مشهودة ينال فيها بعضكم من بعض، فتكون بينكم تراثًا ودماء، تورثكم أحقادًا وأضغانًا، فجاء الإسلام فغسل صدوركم من الغل وطهر قلوبكم من الحقد، فأصبحتم بنعمة الله إخوانًا، بينكم من المحبة والألفة ما بين الإخوة من النسب.

والرواية التي ستأتي عن قتادة تفيد أنها ليست في الأوس والخزرج خاصة بل هي عامة، وعلى ذلك يكون المعنى: واذكروا يا أيها الذين آمنوا نعمة الله عليكم؛ إذ كنتم أعداء في جاهليتكم تقوم الحرب بين القبيلة والقبيلة، فتمكث ما شاء الله من

السنين، فألف بين قلوبكم بالإسلام فأصبحتم بنعمته إخوانًا، وتكون الآيات نزلت في تحذير المسلمين، أن يختلهم الذين أوتوا الكتاب عن دينهم، بمجادلتهم فيه وإلقاء الشبه إليهم فإن أطاعوهم كفروا، وقد طلبت الآيات تقوى الله حق تقاته، ليستعينوا على الثبات على دينهم، ثم قالت لهم: إن هذا الدينَ أنفسُ ما حُزْتُمُوه، وَأَجَلُّ ما مُنِحْتُمُوه فقد حَوَّلَكُم من أعداء إلى إخوان تَغْلِبُونَ ولا تُغْلَبُون، وتَنَالُون ولا يُنَال منكم، وشيء هذا شأنه يجب أن يكون أعزَّ شيء لديكم، بمنزلة ما كَوَّنَكُم أمة وحافظ على وجودكم وبقائكم.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: شفا الحفرة حرفها، ويقال أيضًا شفة، والمعنى أنهم لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار هكذا قال المفسرون، وهذا تقصير بالآية.

والظاهر أن المراد بالحفرة التي كانوا على وشك أن يتردوا فيها: المصير الذي كان ينتظرهم في الدنيا والآخرة، لما كانوا عليه من البغضاء والتفرق، ذلك يؤدي إلى حربهم وتفانيهم وذلهم لأعدائهم، وما كانوا عليه من ظلم وفساد وجهل بالله وذلك يؤدي إلى عذاب الله.

فَشُبِّهَتْ حالهم لذلك بحال مَنْ هُمْ على حرفِ حفرة يوشكون أن يتردوا فيها، فجاء منقذٌ فأخذ بِحُجَزِهِم وحالَ بينهم وبين التَّرَدِّي في الهاوية، فهو تمثيل ولا يخفى ما فيه من جمال إذ عرض هذه الصورة المُحَسَّة من الحفرة والنار وقومٌ على حرفها

يشفق المشفق أن يترددوا فيها، والنفس تأنس بالمحسات، لأنها أَلِفَتْهَا في أول وجودها وإذ عرض ذلك بطريق التشبيه المطابق، والنفس تلتذ بالتشبيه والمحاكاة، وبمطابقة التشبيه وجودته، ولا سيما إذا كان تشبيهَ قصةٍ بقصةٍ في مغزاها، والمغزى هنا إِنْجَاءٌ مُحَقَّقٌ بعد توقع هلاك كان مُحَققًا، وهو في المَثَلِ أظهرُ، لأنه في أمر حسي، ومن يَشُكُّ في توقع هلاك قوم كانوا على شفا حفرة من النار، وأن من أخذ بحجزهم ومنعهم من التردي قد نجاهم؟ وفى المشبه أخفى وهو حال العرب من جهل وبغضاء كادت تُرْدِيهم، وحالهم بعد الإسلام من محبة واجتماع قد نجتهم، وتشبيه الأخفى بالأظهر يُكسبه ظهورًا، ويُعِدُّ النفس للاقتناع به، وهذه اللذة العقلية تَعُدُّها أيضًا للاقتناع، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، كهذا البيان المُقْنِعِ البليغ يبين الله لكم آياته إرادة أن تزدادوا هدى.

يُذَكِّرُ الله المسلمين بنعمه عليهم إذ ألف بين قلوبهم، وآخى بينهم بعد العداوة والبغضاء، وكأن الله يذكرهم بنعمته هذه نعمة المحبة بعد العداوة، ونعمة تأليف القلوب بعد تنافرها واختلافها، يذكرهم بعزهم بعد ذُلِّهم، ويغناهم بعد فقرهم، وبسيادتهم بعد أن كانوا مَسُودِينَ، وبقيادتهم بعد أن كانوا مَقُودِينَ، يُذَكِّرُهم بالبعث الروحي: بعثهم بعد أن طالت عليهم الغفلة وطال عليهم الندم، نعم هذا كله جاءهم بعد أن تألفت قلوبهم وتصافت نفوسهم، بفضل الإسلام: هذا الدين الجديد، وكان من أُنْزِل فيهم القرآن أعرفُ الناسِ بقيمة نعمة تأليف القلوب بعد

تفرُّقِهَا، وجعلهم إخوانًا متحابين بعد أن كانوا أعداء متباغضين، وما تبع ذلك من عزهم وقوتهم، لأنهم أدركوا العصرين: عصر الجاهلية وعصر الإسلام، وعلموا ما في التفرق من الذلة وما في البغضاء من القلة، ثم ما في الأخوة الإسلامية من الاتحاد والتعاون، وما في الاتحاد والتعاون من القوة والمنعة، والدفاع عن البَيْضَةِ ورد الأعداء الطامعين، كذلك من كانوا على مقربة من عهد الجاهلية كالتابعين.

روى ابن جرير بسنده عن قتادة في تفسير قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

«كان هذا الحيّ من العرب أذلَّ الناس ذُلًّا، وأشقاهُ عيشًا، وأبْيَنَه ضلالة، وأعراهُ جلودًا، وأجوعَه بطونًا، على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحْسَدُون عليه. مَنْ عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات رُدِّي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلا يومئذ من حَاضِرِ الأرض، كانوا فيها أصغر حظًّا، وأدق فيها شأنًا منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورَّثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نِعمَه، فإن ربكم منعِمٌ يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك».

رَبِّ إن هذه الأمة التي ذَكَّرْتَهَا بنعمتك عليها إذْ أَلَّفْتَ بين قلوبهم بعد العداوة والبغضاء، وجمعتهم بعد الفرقة والشقاق، فأصبحوا إخوانًا متحابين بعد أن كانوا

متباغضين، وأصبحوا جميعًا بعد أن كانوا متفرقين، قد عادوا إلى سابق أمرهم وما كانوا عليه في جاهليتهم: فرقةٌ وتباعدٌ، وحزبيةٌ وانقسامٌ، وعداوةٌ وشحناءُ وشنآنُ وبغضاءُ، وإن الأمم الأخرى تُذكي بينهم نار العداوة والبغضاء كلما أطفأها المصلحون وأُولُوا الرأي عادوا فأوقدوها!

رَبِّ إنا نلتمس عونك ونرجو أن تعصمها من الفُرْقَة والتباعد، والحقد والتباغض!

رَبِّ إنه وَهَى بُنْيَانُهَا وضَعُفَ سلطانها وانهارت أركانها، وإن هذا الانقسام والتفرق والعداوة والشنآن يزيدها ضعفًا على ضعف، ووهنًا على وهن، وإن الأمم تداعى عليها، تداعِي الأكلة إلى قصعتها فاقتسموها أشلاء، وتوزعوها فرقًا، وما لها إلا أن تتوحد وتلم شعثها، وترأب صدعها وتتحاب فيما بينها، فتعود إليها قوتها ويرجع إليها مجدها، وترد عنها أيدي الطامعين وغارة المغيرين، ولكن مَن لها بأن تعلم ذلك ثم بأن تفعله؟

٣-من هدي الكتاب العزيز ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[(١)]

المسلمون اليوم في أمر مريج، في أمر له ما بعده، فقد غزاهم المذهب الشيوعي[(٢)] في عقر دارهم واحتاز بين أبنائهم وهو الآن جاد في أن يضم رقعة المسلمين كلها، والمذهب الشيوعي مذهب مادي ينكر الأديان، ويراها مَلْهَاةً بالنعيم المنتظر في الآخرة عن النعيم الحاضر في الدنيا، والمسلمون اليوم فى موقف الاختيار أيختارون البقاء على دينهم ومثلهم العليا ويرفضون المادية الشيوعية، أم يقبلون الشيوعية ويرفضون دينهم؟ وكأن هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد تفسيرها أنزلت اليوم غضة لتفصل في هذا النزاع وهى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[(٣)] أتت الآية بِحُكْم فصل في هذه القضية العتيدة، ولم يكن قولًا خاليًا من

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الحادي والثلاثون، الجزء الأول، ص ٢٦ – ٢٩، المحرم ١٣٧٨هـ/ يوليو ١٩٥٨م .

(٢) المذهب الشيوعي: تيار فكري ساد في بدايات القرن العشرين، وانتشر في ربوع الاتحاد السوفيتي والصين، وحاولوا تعميمه في بلاد المسلمين لكنه ما لبث أن انهارت منظومته في أغسطس ١٩٩٠م، ومن الجدير بالذكر أن للشيخ محمد عرفة مؤلف بعنوان :" الإسلام أم الشيوعية " نُشِر هدية مجلة الأزهر في عدد جمادى الأولى ١٤٣٠هـ .

(٣) آل عمران: ١٠٣.

الدليل، وإنما بَيَّنَت دليله من تاريخ العرب في جاهليتهم وتاريخهم بعد أن دخلوا في الإسلام.

وخلاصة هذا الدليل أن الدين الإسلامي في الأمة الإسلامية بمنزلة الروح من البدن، به حياتها كأمة وبه بقاؤها، وما كان كذلك يجب أن يحتفظ به ويجعل بين الحشا والفؤاد، والدليل على أن الدين الإسلامية بهذه المنزلة، تاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخهم بعد الإسلام، فقد كانوا متباغضين أعداء فجاء الإسلام فألف بين قلوبهم وصاروا إخوانًا، وتبع ذلك العز والمنعة والقوة وملكُ الأرض.

أشارت هذه الآية إلى مكان الدين الإسلامي من الأمة الإسلامية، أهو زخرف لها وحُلِيّ؟ أم حاجةٌ من حاجتها وضرورةٌ من ضروراتها؟ أهو الشيء الذي تَسْتَغْني عنه وتعيش دونه؟ أم هو الشيء الذي لا غنى عنه ولم توجد إلا به ولا بقاء لها بدونه؟

أبانت الآية أنه ليس عضوًا ثانويًا في جسم الأمة الإسلامية، فليس كطرف من الأطراف التي تحيا دونه، بل هو كالروح الساري فيها لا وجود لها إلا به ولا بقاء لها دونه، ليس هو من بناء الأمة بمنزلة شُرْفَةٍ من الشرفات، أو طلاء يطلى به البناء، وإنما هو بمنزلة القواعد والأساس من هذا البناء، فإذا انهارت القاعدة انهار ما عليها من بناء.

بَيَّنَت ذلك في عبارة موجزة: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾، ذَكَّرَهُمْ حالهم التي كانوا عليه قبل الإسلام من العداوة والبغضاء، وحالهم بعد الإسلام من المحبة والإخاء، وما تبع المحبة والإخاء من التعاون والتناصر على دفع الأعداء والمُغِيرِين، وما تبع ذلك من العزِّ والقوة والغَلَبِ، ولم يزد عليهم شيء إلا الإسلام، لم تمدهم أمة من الأمم المجاورة بمال ولا سلاح ولا عدة، ولم تعززهم بجنود وفرسان، ولم يكن إلا أن جاءهم الإسلام فعزُّوا بعد ذُل وقَوُوا بعد ضعف، وكثُروا بعد قلة، فهو سبب هذا كله، به قام المجتمع الإسلامي وبه ظفر وانتصر وعزَّ وغَلَبَ.

ليس ذلك حُكْمًا خَطَابِيًا بل هو حكم بُرْهَانِي مُقَدِّمَاتُه ضرورية، ترجع إلى الموازنة بين ما كانوا عليه قبل الإسلام، وما كانوا عليه بعده، فما حدث من أُلْفَةٍ وأُخُوَّةٍ بعد عداوة وبُغْضة إنَّما هو بما جَدَّ عليهم وهو الإسلام، وقد أمرت الآية بأن يذكروا هذه النعمة ليعلموا للإسلام قيمته في توحيد الأمة وتأليف القلوب، وجعلهم إخوانًا فيما حفظوا فيه ما حافظوا على وحدتهم واجتماعهم، وعزهم وقوتهم، وما أجدر المسلمين في هذا العصر أن يذكروا للإسلام ذلك فيعلموا أنه كوَّن المجتمع الإسلامي الذي عز وعظم، ولولاه ما تكون، وأنه هو الذي حافظ على وجوده وبقائه ولولاه لما بقى، يجب أن يعلموا ذلك وأن تختفي تلك النظرة التي يُنظرُ بها

إلى الإسلام من أنه علاقة بين العبد وربه فحسب، وأن الدين في المساجد والكنائس، هذه نظرة خاطئة! وهي سبب إهمال الإسلام اليوم.

إن الإسلام هو الذي بثَّ في الأمة الإسلامية الفضائل الاجتماعية التي بها عزَّت وسادت، من الألفة والمحبة والتعاون والنصرة والفداء، والعدل والقيام بالقسط، لقد بُنِيَتْ فضائلُها كلُّها عليه، فإذا ضَعُفَ في نفوس المسلمين أو زال ضَعُفَ أو زال ما بُنِيَ عليه من فضائل، ويتبع ذلك ضعف المجتمع الإسلامي، والمسلمون في هذا العصر أحوج ما يكونون إلى ما يبثُّ فيهم القوة والتعاون والتناصر، وما يفعل ذلك هو الإسلام.

أيُّ شيءٍ أَسْنَى قيمة، وأولى بأن تحفظوه وتدفعوا عنه دفاعكم عن أموالكم وأبنائكم، وحريمكم من شيء جاءكم وأنتم أجوعُ الناس بطونًا، وأعراهُم جلودًا، وأذلُّهم ذلًا، وأشقاهُم عيشًا، وأبينُهم ضلالة، فأطعمكم وكساكم، وأعزكم وبسط لكم في الرزق، وهداكم من ضلالتكم.

أي شيء أولى بأن تجعلوه بين الحشا والفؤاد ضَنًّا به، وحفاظًا عليه، من شيء جاءكم وأنتم أصغرُ أهل الأرض حظًا، وأدقُّهُم شأنًا، فجعلكم شيئًا مذكورًا، ورفع قدركم فوق الأقدار، واسْمَكُم فوق الأسماء؟

أيُّ شيء أولى بأن تدفعوا عنه دفاع من يعلم أنه إذا حرمه هلك، من شيء جاءكم وأنتم رعاة غنم، وحُدَاة إبل، فجعلهم دعاة أمم وساسة ممالك؟

أيُّ شيءٍ أعظم في نفوسكم من شيء علَّمكم الكتاب والحكم، بعد الجهل والأمية؟ أي شيء أعظم من شيء جاءكم وأنتم يُغِيرُ بعضكم على بعض، فتقتلون وتنهبون حتى قال شاعركم:

وأحْيانًا عَلَى بَكْرٍ أَخِيْنَا إِذَا ما لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا[(١)]

فجعلكم أعفَّ الناسِ وأعدَلَهم، تقومون في الناس حُكَّامًا مُقْسِطِين، حتى قال أحد خلفائكم: عمر بن الخطاب لعامله على مصر عمرو بن العاص، وقد ضرب ابنُه ابنَ أحد سُكَّانِها القِبْط: متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا![(٢)]

تعلموا أيها المسلمون أن الذين يخادعونكم عن دينكم يسلبونكم أسمى شيء في حياتكم، يسلبونكم أرواحكم، ومقومات وجودكم، وإن المرء لا يسعه أن يمر على هذه

---

(١) البيت منسوب للقَطَامي، واسمه عُمَيْر بن شييم وهو شاعر إسلامي مُقِل، وصف بالفحولة في الشعر وكثرة الأمثال. شرح ديوان الحماسة، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، دار القلم – بيروت، ص ١٣٠.

(٢) هذه القصة ضعيفة سندًا ومتنًا، فقد ذكرها ابن عبد الحكم في " فتوح مصر "حُدِّثنا عن أبي عبدة عن ثابت البناني وحميد عن أنس –رضي الله عنه– قال: أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– ذكر باقي القصة. فقول ابن عبد الحكم حدثنا، فيه انقطاع بين ابن عبد الحكم وأبي عبدة (كنية يوسف بن عبدة) ؛ لأنه لم يقل حدثنا أو سمعت أو أخبرني أو قال لي أبو عبدة، وأبو عبدة في الإسناد ضعيف. قال الحافظ الذهبي في "الميزان" في ترجمته (٤/٤٦) قال العقيلي: له مناكير عن حميد وثابت، وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ٢٢٦): له أحاديث مناكير عن حميد وثابت وكأنه ضعفه .

الظاهرة التي أشار إليها القرآن، وهي: أن العرب كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا إخوة متحابين، دون أن يتساءل ما الذي منحهم الألفة بعد التفرق، والأضغان والإحن؟ وما الذي عمد إلى صدورهم فمحا ما فيها من غل وضغن، وإلى عقولهم فأنساها العدوات والتراث، وعادت صدورًا بريئة طاهرة لا غل فيها ولا ضغن، بل المحبة والطهر، وعادت لا تذكر التراث والماضي المضرَّج[1] بالدماء، وإنما تذكر الحاضر وما فيه من نعمه الأخوة، وهذا شيء كان صعبَ المنال بعيد الاحتمال؟ كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[2]، أهذا أمر إعجازي خارج عن الأسباب الاجتماعية فليس لنا أن نطمع فيه ثانية؛ لأنه خارج عن القوى والقدر؟ أم هو أمر يرجع إلى أسباب طبيعية هدى إليها الله، فإذا رجع المسلمون إلى تلك الأسباب وأخذوا بها ارتدت إليهم ألفتهم وعاد إليهم تعاونهم.

كذلك ينبغي أن ننظر إلى هذه الظاهرة التي أشار إليها قتادة وهي أن العرب كانوا أذلَّ الناس ذلًا وأشقاهم عيشًا، وكانوا يؤكلون، فلما جاء الإسلام صاروا أعزاء أقوياء وملوكًا على رقاب الناس، وبُسِطَ لهم في الرزق وفى أسباب الحضارة والرقي، ما هذه الأسباب الخفية في الإسلام التي جعلت من الضعف قوة، ومن

---

(١) مضرَّج :مُلطَّخ .

(٢) الأنفال: ٦٣ .

الجهل علمًا، ومن التوحش مدنية؟ ما هذه الأسرار الكامنة التي فعلت فعل السحر، ورَبَّت هذه القبائل في زمن وجيز، لا يتسع لتربية فرد، وتهذيبه وتثقيفه؟ إنه ينبغي البحث في ذلك كله لِتَعَلُّمِ علل ذلك وأسبابه، ومعرفة العلل والأسباب للأشياء على العلم الحقيقي، ولتعلم أسرار القوة في الإسلام فنحافظ عليها ونجتلبها إن كنَّا قد ضيَّعْنَاهَا، وأسباب الضعف التي طرأت على الإسلام فننحيها ونعود بالدين غضًا كما كان، ليكون منارة للعزة والمنعة والقوة والخير، كما كان، إنه يجب أن نعرف وضعنا في هذا الوجود، ونعرف الأفاعي التي حولنا، والتي تنفث سمومها، والتي حذَّرَنَا إيَّاها القرآنُ منذ نَزَل، وكلُّ ذلك من التفسير بل هو صميم التفسير؛ لأنه ليس الغرض من التفسير أن تعرف مدلولات الألفاظ اللغوية والجمل، ولا نطبق ذلك على أنفسنا وعلى مجتمعنا، وإنما الغرض أن نتدبر القرآن ونفقهه، والفقه أعلى منزلة من الفهم، ونطبقه على أنفسنا ومجتمعنا، فنعتبر به ونهتدي، ولهذا أنزل القرآن: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) سِرُّ ذلك كله كامن في الإيمان بهذا الدِّين الجديد الذي هو الإسلام، آمَنوا بهذا الدين إيمانًا انعقدت عليه قلوبهم، واطمأنت به نفوسهم، فصاروا يعملون حسب أوامره وينتهون عند نواهيه، وقد جاءهم بمكارم الأخلاق وأحاسن الصفات، وأمرهم بما يوحد مشاعرهم وآراءهم في الحياة، وأغراضهم ومثلهم العليا وأهدافهم،

(١) البقرة: ١ – ٢.

وفرض عليهم أخوة إسلامية جعل لها حقوقًا من الحقوق في أخوة النسب، بل أكثر، فقد كان المؤمن يقاتل أخاه في النَّسَبْ حماية لإخوانه في الدين، وبذلك زالت العداوات والإحن القديمة، وحلَّ مَحَلَّها الإخاء الإسلامي والتعاون.

لولا الإيمان اليقيني بهذا الدين لما أطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، ولولا أن الدين جاء بخيرهم في الدنيا مع خير الآخرة لما كان هذا الصلاح العظيم، نقول لولا اليقين بهذا الدين الذي جاءهم لما أطاعوا؛ لأن العرب فيهم خلق الأنفة والعناد والإصرار، لما فيهم من بداوة وتوحش، فكانوا لا يستجيبون لبعضهم البعض، ويصعب على المرء قيادهم، وصاروا يراعونه في السر كما يراعونه في العلن.

ولولا أن الأوامر التي يجب أن يأتمروا بها، والنواهي التي يجب أن ينتهوا عنها تضمنت الخير والصلاح: من المحبة والتعاون والصدق والعدل وبذل النفس والنفيس في سبيل الذب عن جمعهم، والدفاع عن عقيدتهم، لَمَا بَلَغُوا هذا الشأو من الصلاح، فإننا لا نعلم أمة من أمم الأرض في القديم كان لها مثل هذا الملك الواسع والمجد الباذخ.

٤- فتربصوا حتى يأتي الله بأمره [1]

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[2]

ما روَّعَتْنِي آيةٌ من كتاب الله ما روَّعَتْنِي هذه الآية، وما قرأتها قَطُّ إلا ارتعدت فرائصي وخُيِّل إلى أن الأرض تدور بي الفضاء، ذاك لأنها توجب أن يُؤْثِرَ المؤمنون اللهَ ورسولَه والجهادَ في سبيله على الآباء والأبناء والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، ولا ترضي منهم أن يُؤْثِروا الله ورسوله والجهاد في سبيله كما يؤثر المرء الدواء المر البشع، بل لا ترضي إلا أن يكون ذلك الإيثار عن رضى ومحبة، فإذا دعا داعي الجهادِ ودعا المالُ والولدُ والعشيرةُ والمسكنُ وجب أن يستجيب المؤمنون لداعي الجهاد عن رضى ومحبة؛ فإن لم يكونوا كذلك فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره، وقد أبهم الله هذا الأمر لتذهب النفس في أودية الخوف كل مذهب، والله لا يهدي القوم الفاسقين الذين فسقوا عن أمر الله وانحرفوا عن الطريق القويم.

---

(١) مجلة الرسالة،السنة الحادية عشر،العدد ٧٠٥، ص ٨- ٩، الاثنين ١٣ صفر ١٣٦٦هـ/٦ يناير١٩٤٧م.

(٢) التوبة: ٢٤.

تكليف صعب شاق، وهو على صعوبته ومشقته الطريقُ الوحيد إلى العزة والأمن والقوة والسُّمُو، فالأمة التي تؤثر الحق والجهاد في سبيله على ما سواهما هي التي تمهد طريقها إلى المعالي، وتسلك سبيلها إلى العزة القعساء. (١)

أما الأمة التي انتكست فطرتها فآثرت الباطل على الحق، والدَّعَة على الجهاد في سبيله، فأقل ما يصيبها من أنواع العقوبات الضعف والذلة والاستكانة إلى الأقوياء، والاستعباد للمُغيرين، يستذلونها ويستخدمونها كما يستخدم الإنسان الحيوان الأعجم، وهذا البلاء الشديد وغيره مما يشمله قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ .

ولا عجب فالمعالي سبيلها غير مُعَبَّدٍ، ولها صعداء مطلعها طويل، وهي لا تُنال على الدَّعةِ والراحة والطمأنينة والبُلَهْنِيَة(٢)، إنما تنال بالتعب والنَّصَبِ والكد وتهذيب النفس وتقوية الخلق والإرادة القوية والعزم الشديد. إنما الذي ينال على الدعة والراحة، الهمُّ الطويل، والحزنُ المُمِضُّ.

فَلْيَقِسْ كلُّ امرئٍ إيمانه بهذه الآية ولينظر أيحزن إذا فاته حظ من دينه مثل ما يحزن إذا فاته حظ من دنياه، أم هو لا يبالي بضياع دينه ويأسى على ما فاته من الحقير من دنياه.

---

(١) العِزَّةُ القَعْسَاءُ: الثَّابِتَة .

(٢) الرخاء وسعة العيش.

أيجد من قوة اليقين ما يستحبه له دينه على الآباء والأبناء والأهل والعشائر والأموال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا وخيراتها، أم يجد من ضعف اليقين ما يستحب له عرض الدنيا على دينه وآخرته.

ومِنْ خِدَعِ الشيطان ما يوسوس به في النفوس من أن هذا التكليف لم يتحقق ولن يتحقق؛ فإذا لم يحققه المرء في نفسه فله في جميع المكلَّفين أسوة. هذا ما يُحَدِّث به المرء نفسه، والمرء يلتمس المعاذير، ولكن التاريخ الإسلامي يحدثنا عن كثير من السابقين الأولين أنهم نالوا هذه الدرجة وكان الله ورسوله أحبَّ إليهم مما سواها.

رُوى أنه قدم على النبي ﷺ رهط من قبيلة عَضَل والقَارَة (١) وقالوا إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يُفَقهوننا في الدين ويُقْرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله معهم نفرًا ستة من أصحابه فيهم زيد بن الدَّثِنَّة، وخُبَيْبُ بن عدي (٢)، فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهُذَيْل استصرخوا عليهم هذيلاً فلم يَرُعِ القومَ وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهُم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم، فقالوا لهم إنا والله ما نريد

(١) تعرف هذه القصة بيوم الرَّجيع في سنة ثلاث من الهجرة، وكانت بعد غزوة أحد، السيرة لابن هشام (٣/٦٣).

(٢) أما بقية الستة فهم: مَرْثَدْ بن أبي مَرْثَدٍ الغَنَوي، وخالد بن البُكَيْر الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وعبدالله بن طارق رضي الله عنهم أجمعين.

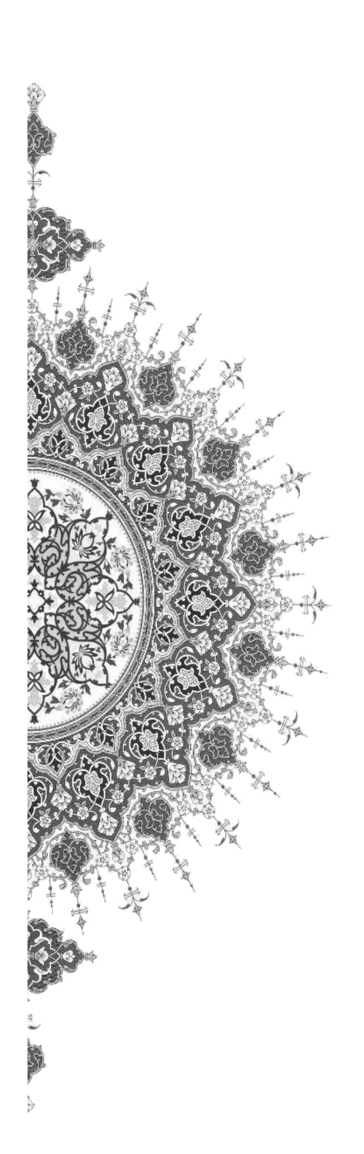
قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألَّا نقتلكم، فقال بعضهم: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدا، فقاتَلُوا المشركين حتى قُتِلوا وأُسِرَ زيدٌ وخبيب بن عدي، وخرج بهما المشركون إلى مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، فأخذ خُبَيبًا عقبةُ بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه الذي قتله المسلمون، وابتاع زيد بن الدَّثِنَّة صفوانُ بن أمية ليقتله بأبيه أُمَيَّةَ بنِ خلفٍ الذي قتله المسلمون ببدر وبعث به أمية إلى خارج الحرم، وترامى الخبر إلى أهل مكة أن صفوان سيقتل زيدًا بأبيه فخرجوا ليشهدوا مصرعه، وكان ممن خرج أبو سفيان فقال لزيد حين قُدِّمَ ليُقْتَل، أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال والله ما أُحِبُّ أنَّ مُحَمَّدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصِيبُه شوكةٌ تؤذيه وإني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان ما رأيتُ من الناس أحدًا يحب أحدًا كحُبِّ أصحاب محمدٍ محمدًا ثم قُتل. وأما خبيب فلما خرجوا ليصلبوه قال لهم إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طَوَّلْتُ جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة، ثم قال حين أوثقوه ورفعوه على خشبة: اللهم إنا قد بلَّغْنَا رسالة رسولك فبلِّغْهُ الغَدَاة ما يُصْنَعُ بنا، ثم قال اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بِدَدًا، ولا تغادر منهم أحدا. فاضطجع المشركون لجُنُوبِهم حين سَمِعوا الدُّعاء، وكانوا يقولون إن

الرجل إذا دُعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه، ثم قتلوه –رحمه الله –، وكانت آخر كلمة قالها:

ولستُ أُبَالِي حين أُقتَل مُسْلِمًا على أيِّ جَنْبٍ كَانَ في الله مَصْرَعِي

فإذا كانت محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، أكثر من الآباء والأبناء والمال والمساكن يمكن نيلها وقد نالها الرعيل الأول من المسلمين السابقين، وهي السبيل إلى العزة والكرامة، فما أحرى الأمم الإسلامية أن تربي أبناءها على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، لتنال ما ناله السابقون من العزة والتمكين في الأرض، ولتضيف مجدًا طارفًا إلى مجدها التليد، ولتنجو من هذا الوعيد الشديد، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين.



المجموعة الثانية
من عطر السيرة النبوية
وأريج الصحابة الكرام

تحتوي على المقالات التالية:

١-المعاهدة السرية.

٢-أساس الرقي في الإسلام.

٣-كيف بنى محمد الأمة الإسلامية.

٤-الزاهد المتقشف عمر الفاروق.

٥-نعيم بن مسعود.

١ -المعاهدة السرية [١]

قبل هجرة محمد ﷺ في الليلة الثانية عشرة من ليالي ذي الحجة بعد أن قضى الناس حَجَّهم خرج جماعة من رِحَالهم المضروبة في وِدْيَان مِنًى وضواحيها بعد أن مضى الثلثُ الأولُ من اللَّيل، خرجوا يتسللون تسلل القَطَا[٢] يمشون الهُوينا، فلا يَسْمَعُ وقع خُطَاهم على الأرض أحدٌ كأنما يخافون أن يشعر بهم الناس. خرجوا فرادى وجماعات، وكلهم يقصد جهة معينة هي العقبة[٣]، وكلما وصل إليها فوج منهم نزل بها حتى كملوا سبعين رجلاً.

جلسوا يتناجون في صوت خفي، لا يسمع إلا همسهم وتتابع أنفاسهم. جلسوا كأنما ينتظرون قادمًا يقدم عليهم كانوا معه على ميعاد.

وبينما هم كذلك إذا برجلين قد أقبلا يؤمانهم، ويريدان مكانهم، فلما تبينوهما خَفُّوا إليهما، ونهضوا فسلَّموا عليهما. وكانت هذه الجماعة من سكان يثرب من الأوس

---

(١) مجلة الرسالة، السنة السابعة، عدد ٢٩٧، ص ٥٤٢-٥٤٤، الاثنين ٢٢ محرم سنة ١٣٥٨هـ / ١٣ مارس ١٩٣٩م

(٢) القَطَا: طير، والواحدة قطاة، ومشيها القَطْوُ والأقطيطاء. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. إبراهيم المخزومي، د.مهدي السامرائي، باب القاف مع الطاء، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٥م، (٥/ ١٩٢).

(٣) العقبة: مكان مرتفع شرقي مكة على يسار الطريق لقاصد مِنَى مِنْ مكة، بينها وبين مكة مِيلان.

والخزرج، وكان هذان القادمان عليهم محمد بن عبد الله وعمه العباس بن عبد المطلب وكانا معهم على ميعاد.

لَيْتَ شِعْرِي ما الذي حفَّز هذه الجماعة على أن تخرج من رِحَالها وتقصد هذا المكان القَصِي؟ وما الذي حفَّزَ محمدًا وعمَّه العباس أن يتركا منزليهما بمكة ويسيرا تحت ستار الليل والناس نيام ويوافياهم عند العقبة؟ كان محمد يريد الهجرة إلى المدينة وكان يريد أن يعقد مع أهلها معاهدة سرية على أن يحموه ويعزروه وينصروه.

فلمَّا جَلَسَا وجَلَسَ النَّاس حولهما، تكلَّم العبَّاس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلَّا أنَّه أَحَبَّ أن يحضر أمرَ ابن أخيه ويتوثق له فقال: (يا معشر الأوس والخزرج إنَّ محمدًا مِنَّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مِثْل رأينا، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده)

فلما انتهى العباس من كلامه قالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلَّم يا رسول الله، وخُذْ لنفسك وربِّك ما أحببت. فتكَلَّمَ رسولُ الله، فتلا القرآنَ، ودعا إلى الله ورغَّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فتقدم إليه البراء بن معرور وأخذ بيده وقال: والذي بعثك بالحق

لنمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فبايِعْنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر، فاعترض القولَ أبو الهيثم بن التيِّهان(١) وقال: يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حِبالًا، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني، وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. فصرخ فيهم العباس بن عبادة الأنصاري(٢) وقال: يا معشر الخزرج، هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةٌ، وأشرافكم قتلٌ، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم؛ وإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه على نَهْكَةِ(٣) الأموال، وقَتْلِ الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل

---

(١) اسمه مالك بن بلي بن عَمْرو بْن الحاف بْن قضاعة، مِنْ أول من أسلم من الأنصار بمكة، شهد بدْرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، توفي في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. الطبقات الكبرى، ابن سعد، (٣/ ٣٤٢).

(٢) الْعَبَّاس بْنُ عُبَادَة بْن نَضْلَة بْن مَالك بْن العجلان شهد العقبتين، قتل يَوْم أحد شَهِيدا، انظر: الثقات، ابن حبان، (٣/ ٢٨٢).

(٣) النَّهْكُ: التَّنَقُّص.

الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفَيْنَا؟ قال: الجنة. قالوا: أبسط يدك. فبسط يده فبايعوه.

وبعد أن تمت المعاهدة قال لهم رسول الله: ارفضوا إلى رحالكم. فقال له العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غدًا على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعوا إلى مضاجعهم. فلما أصبحوا غدت عليهم أكابر قريش، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنا قد بَلَغَنَا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. وكان مع المسلمين الذين عقدوا المعاهدة قومٌ مشركون من المدينة لم يعلموا بما كان منها فانبعثوا إلى قريش يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. ثم تفرق القوم، ورجع الأنصار إلى المدينة، وأقام رسول الله بقية شهر ذي الحجة من تلك السنة والمحرم وصفر وهاجر إلى المدينة في ربيع الأول.

وكانت هذه المعاهدة السرية التي عقدها رسول الله بينه وبين أهل المدينة هي أَوَّلُ حادث أعزَّ الإسلامَ وقَوَّاه ومَكَّنَ له في الأرض وكتب له البقاء والخلود، في هذا الوجود لم يكن أهل المدينة حين عقدوا هذه المعاهدة مع رسول الله يجهلون ما وراءها، فقد كانوا يعلمون أن وراءها حرب العرب جميعًا لأن العرب جميعًا على خلاف هذا الدِّين الجديد، وهم لا محالة معارضوه ومحاربوه، وقد ذكرهم بذلك

العباس بن عبادة فلم يُشْفِقُوا من ذلك وأقدموا عليه وهم يعلمون ما يفعلون، ويَعْنُونَ ما يقولون.

علموا ذلك كلَّه فلم يَهُلْهُم ولم يُفزعهم، وأقدموا عليه طَيِّبَةً به قلوبهم، راضية به نفوسهم. لقد عرض رسول الله ﷺ نفسه قبل ذلك على القبائل، فأشفقوا منه ولم يَقْوَ أحد على حمْلِ هذا العبء الثقيل.

لقد ذهب إلى ثقيف بالطائف وعرض عليهم الإسلام، فامتنعوا وقال له أحدهم: ما وجد الله أحدًا يرسله غيرك. وقال آخر منهم: لا أكلمك كلمة أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أردَّ عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يَسُبُّونه ويصيحون به، ثم نجاه الله منهم. وكان ينتظر أيام الحَجِّ فيذهب إلى الحُجَّاج من العرب في منازلهم ويعرض عليهم الإسلام فيأبون عليه، ذهب إلى كندة في منازلهم فامتنعوا عليه، وأتى كَلْبًا فامتنعوا عليه، وأتى بني حنيفة فردوه أقبح رد.

لم يقدروا على حمل هذه الأمانة، وادَّخرها الله لهذا الحي من أهل المدينة فقد جاء نفر منهم إلى موسم الحج، فلقيهم رسول الله، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج. قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم. قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فآمنوا به وصدقوه وقالوا له: قد

تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله على يديك، فلا رجل أعز منك. ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا قومهم إلى الإسلام فأجاب منهم خلق كثير، ثم جاء منهم قوم إلى مكة وقابلوا رسول الله، وكانت المعاهدة التي ذكرناها.

إن هذه المعاهدة لتدل على ما للأنصار من جَلَد وقوة وشجاعة وبسالة وكرم وتضحية وإيثار.

أباحوا أرضهم وديارهم وأرزاقهم لمن هاجر إليهم من المسلمين فقاسموهم ما عندهم، وآثروهم على أنفسهم فتحوا بها صدورهم لحراب العرب ورماحهم، وقطعوا بها حبالهم التي كانت بينهم وبين العرب، فما أعظم هذه التضحية، وما أجلَّ هذا الإيثار، وبحسبهم أن الله سجَّل لهم مفاخرهم ومكارمهم في قوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

---

(١) الحشر: ٩.

٢-أساس الرقي في الإسلام [١]

إِنَّنَا نُحِبُّ العظماء، ونُمَجِّدُهُم، ونُحْيِي ذِكْرَاهُم، لأنهم ذَوُو نَفْعٍ للإنسانية، عاشوا لأجلها وماتوا لأجلها.

ونحن نُحِبُّ سيدنا محمدًا ﷺ ونُمَجِّدُه، ونَعُدُّ يوم مولده عيدًا نحتفل به لأنه أخرج العالم من الظلمات إلى النور، ووضع بذور الخير والبركة في الأرض، وسَنَّ من أصول التشريع في الأخلاق والاجتماع ما على مِثْلِه تَحْيَا الأُمَمُ، وترتقي الشعوب.

وقد تحَرَّى المسلمون في العصر الأول التأسي به، والعمل بإرشاده، فسعدوا، وكانت لهم عمارة الأرض، ثم تَنَكَّب الخَلَفُ من بعدهم طريقه شيئًا فشيئًا، فبعدوا من الخير والسعادة بمقدار بُعْدِهِم عن ذلك السَّبيلِ القويم.

وإن خير ما يُسْدِيه المحتفل بميلاده إلى أُمَّته أن يَعْمِدَ إلى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِه قَدْ دَرَسَت [٢] فَيُحْيِيهَا، وإلى هَدْيٍ مِنْ هَدْيه قد ضلَّ الناس عنه فيهديهم إليه.

وقد أخذت نفسي بهذا، وأردت أن أنشر من هديه ﷺ أبعده أثرًا في إصلاح المجتمع، وأعظمه بركة في سعادته.

أردت أن أدرس هديه ﷺ، وأعرضه على علم الاجتماع، وتاريخ الأمم والشعوب، فأعثر على ذلك الإكسير الذي لمَّا أخذ به الأولون من أهل الإسلام كانت لهم العزة في الأرض، ولمَّا تنكَّبوا عنه ضَلُّوا عنها أو ضَلَّت عنهم.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثامن، الجزء الثاني، ص ٢٠٢- ٢٠٥، صفر ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م .

(٢) دَرَسَتْ: مُحِيَتْ .

لقد اهتديت بعد لأي إلى ذلك الإكسير الذي هو سرُّ عظمة الأمم قديمها وحديثها، ورأيت محمدًا لم يَغْفُلْهُ ولَمْ يُهْمِلْه، بل رأيته قد عَلِمَه وحضَّ عليه، وكانت سُنَّتُه القولية داعية إليه، وسنته الفعلية مثالًا حيًا له، ليستفيده الناس بالعلم والعمل، ويتمكن في نفوسهم فضل تَمَكُّن، فيُمَكَّن لهم بذلك في الأرض.

لن أختزن ذلك الإكسير، ولن أَضِنَّ به، بل سَأُبَيِّنُه وأذيعه، فإن أمم الشرق أحوجُ ما تكون إليه الآن.

ذلك الهدى: هو الرفق بالناس، وترك الشدة عليهم، ومعاملة بعضهم بعضًا باللين والعدل، وسأوضح أثر هذه المعاملة في الممالك والمجتمعات وأثر ضدها السيء في الناس، وأذكر معاملة النبي أصحابه وما ورد في ذلك، وأُبَيِّن أن المسلمين كانوا بخير حينما ساروا على هذه السياسة الرشيدة، فلما أخذوا عنها يمينًا ويسارًا أخذ عنهم الخير يمينًا ويسارًا.

ليس شيء أشد ضررًا بالأمة، ولا أضعف لها، وأدعى إلى انحلالها وزالها من معاملة بعضهم بعضًا بالشدة والقهر والغلب.

ذاك لأن الشدة والقهر والعنف تضعف النفوس، وتُميت فيها العزة والكرامة، وتخلق فيها المَذَلَّة والهَوَان، وإذا وُجِدَتْ هذه في الأمة أو في الأفراد لم تَسْمُ نفوسُها إلى جليل، ولم تضطلع بخطير، وكانت حقيرة في نفوسها هزيلة الأمل، ولا سؤددَ لحقير في عين نفسه، ولا عملَ لمن فقد الأمل.

فإذا عامل الرجلُ زوجَه، والوالدُ أولاده، والمربي تلاميذه، والرئيس مرؤوسيه، والوالي من وُلِّي عليهم، وكلُّ ذي سلطان من سُلِّطَ عليهم، بالقهر والشدة، أفسدوا

نفوسهم، وأذلوهم، وقتلوا فيه روح الاعتداد بالنفس، والعزة والكرامة، وهي عُدَّةُ الفرد والجماعة في هذه الحياة.

فإذا رأيت شَعْبًا يسير على هذه الخطة فاعلم أنه يحفر قبره بيده، وأنه يسيء إلى نفسه بما لا يَقْدِرُ أعدى أعدائه أن يسيء به إليه.

وليس شيء أصلح للأمة وأنفع لها وأدعى إلى قوتها وبقائها من معاملة بعضها بعضًا بالرفق واللين والعدل، لأن ذلك يُقَوِّى نفوسهم، ويُحْيِي فيهم الكرامة والعزة والاعتداد بالنفس، والمرء إذا وجدت فيه هذه الصفات سَمَتْ هِمَّتُه، وبَعُدَ أملُه، ورأى نفسه ليس يبعد عليه شيء في الحياة، وعمل ما يمليه عليه سُمُو هِمَّتِه، وبُعْدُ أملِه، وقوةُ إرادته، وعاش شخصًا قويًا مستقلًا يقوم بنفسه، ويأبى أن يكون ظلًا لأحد أو محمولًا على غيره.

فإذا رأيت الوالد يعامل بنيه بالرِّفق واللين فاعلم أنه يبني منهم رجالًا أشداء أقوياء أعزاء، وكذلك قُلْ في المربين والرؤساء والولاة.

هذه قواعد عَلِمَتْهَا الأممُ العالمة، فسلكت سبيلَ النَّجاة، وجهلتها الأمم الجاهلة، فسلكت سبيل الفناء.

وإني أستعرض حياة أمم أوربة اليوم، فأجد الأمة منهم يعامل كلُّ ذِي سلطان فيها مَنْ هُمْ تحت يده بالرِّفْقِ واللين، وأجدهم يحفلون باستقلال المرء بنفسه، فيفرِّطُون في كل شيء ولا يُفَرِّطُون فيه، لذلك حفظت للمرء فيهم ذاتيته كاملة، واستتبعت هذه الذاتية بعد ذلك آثارها كاملة.

تجد المربي فيهم لا يأخذ المتعلم بالعنف، إنما يحبب إليه العلم والأخلاق الفاضلة، ويخلق في نفسه القوة المحركة إلى طريق العلم، والخلق الفاضل، فيسعى إليهما من ذاته راغبًا مشتاقًا، تحدوه المحبة ويبعثه الأمل.

ولا يسلك إلى ذلك سبيل العنف والشدة، لأنه يعلم أنه يفقده بذلك شجاعته واستقلاله وكرامته فيكون ما يعطيه بعد ذلك أقل بكثير مما أفقده، ثم هو بعد ذلك لا يتحرك إلا بمحرك خارجي، فإذا وفِّي بذلك المحرك أو فقد، زالت كل بواعث الخير والصلاح التي كانت تحدوه إليهما.

إني لأستعرض تاريخ الأمم الإسلامية فأجد في أولها العزة والمنعة والظفر والانتصار، لأخذها بمبدأ الرفق والشفقة، فلما أضاعت هذا المبدأ وعامل الوالد أبناءه بالشدة والغلظة، وعامل المربون تلاميذهم بالقهر، وعامل كل ذي سلطان من وُلِّي عليهم بالغَلَبَة، عَمِلُوا على إفساد بعضهم بعضًا، وبلغوا من أنفسهم ما لم يبلغه منهم أعداؤهم، وصاروا إلى ما صاروا إليه.

وليست تعاليم أوربا أشد حرصًا على الرفق واللين وأكره للغلظة والشدة من تعاليم الإسلام، فإن الإسلام كان يعلم ما في الشدة والقهر من شر، ويعلم ما في الرفق من خير، فشدد النَّكِير على الشدة والقهر، وحضَّ على الرفق واللين، ولكن المسلمين أضاعوا تعاليم دينهم، فبعدوا عن الخير بقدر ما بعدوا عن هذه التعاليم.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، لعلمه بما في الرفق والرحمة من الخير، وليعلي من قدر الرأفة والرحمة ويحضهم عليها.

رُوِىَ أن النبي ﷺ كانت بيده جريدة يتسلك بها، ويُرَوِّعُ بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قرون أمتك وملأت قلوبهم رُعبًا؟ [2]

لم يرض للمسلمين أن تكون بيد رسولهم جريدة، لئلا يملأ قلوبهم رعبًا، ويكسر قوتهم، فلا يصلحوا للإسلام ولا لأنفسهم، فأيُّ والدٍ بعد ذلك يروح ويغدو على أولاده بالقهر والشدة؟ إنه لا يفعل ذلك إلا من أراد إفسادهم وكسر حدتهم وإماتة قلوبهم.

وروي أن النبي ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدش بها أعرابيًا لم يتعمده، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جبارًا ولا

---

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء عن عروة بن رويم، حديث رقم (٨٢٣٦) بلفظ يستاك بدل يتسلك (١٣٧/٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٠٥/٩)، وذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الاحياء من الأخبار وقال: أخرجه ابن أبي الدُّنيا (قلت: ولم أقف عليه) ثم قال :وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان في ثقات التابعين .

متكبرًا، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: اقتص مني، فقال الأعرابي: بأبي أنت وأمي ما كنت لأفعل ذلك أبدًا، ولو أتيت على نفسي! فدعا له بخير[(١)].

وإنما كان منه ذلك ليعلم المسلمين أنهم سواسية، وأنهم متساوون في الحقوق، وأن أعراضهم ونفوسهم وأموالهم حرام بعضهم على بعض، لا يحل لهم شيء من ذلك إلا في حق من حقوق الله.

وذكر ابن سعد في الطبقات فيما أوصى به رسول الله في مرضه الذي مات فيه أنه دخل المسجد معتمدًا على الفضل بن عباس، فقال: «أيُّما رجل كنت أصبت من عِرْضِه شيئا فهذا عِرْضِي فليقتصَّ، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئا فهذا بَشَرِي فليقتص وأيما رجل كنت أصبت من ماله شيئا فهذا مالي فليأخذ، واعلموا أن أولاكم بي رجل كان له من ذلك شيء فأخذه أو حَلَّلَنِي فلقيت ربي وأنا مُحَلَّلٌ، ولا يقولن رجل إني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله، فإنهما ليستا من طبيعتي، ولا من خُلُقِي ومَنْ غَلَبَتْه نفسُه على شيء فليستعن بي حتى أدعو له».

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك علي الصحيحين بسنده عن حبيب بن مسلمة رضي الله عنه، ك: الرقاق، حديث رقم (٨٠٢٤)، (٤٧٦/٤)، وقال: تفرد به أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُصْعَبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ ثِقَةٌ، وقال الذهبي: قال ابن عدي: أحمد بن عبيد صدوق له مناكير ومحمد ضعيف .

هذه كانت سياسة النبي أصحابه، فقد سَمَّع فيهم قولَ الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(١)]، وقد سار أصحابه هذه السيرة، فأقاد أبو بكر من نفسه، وأقادهم عمر من نفسه، وسار الخلفاء في رعيتهم سيرة رفق ورحمة، ثم خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ لم يعلموا ما في الرفق من خير، أو هم علموا ولكن غلبت عليهم شهواتهم، فسفكوا الدماء، وشَقُّوا الأبشار، وخرَّبوا الديار، وأخافوا الرعية، فأماتوا تلك النفوس الأبية، وخلقوا أجيالًا أذلاء، فلم يكن فيهم غِنًى لهم ولا لأنفسهم.

من حقي على الناس وقد بينت لهم أساس رقي الأمم وسعادتها أن أطلب أجر هدايتهم، وأجري عليهم أن يهتدوا بذلك الهدي النبوي، فيرفق المرء بأولاده، ورب الأسرة بأسرته، والمعلم بتلاميذه، وكل ذي ولاية بمن ولي عليهم، وأن يلزموا ذلك لزوم من يعلم أنه إذا تركه هلك، وأن يؤمنوا بأن الشدة لا تلد إلا شرًا، وأنها أجدر ألا يعامل بها الأولياء، وإذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا تلك الحكمة الذهبية: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من الأرض يرحمكم من في السماء».

---

(١) سورة الحجر الآية ٨٨.

٣-كيف بنى محمد الأمة الإسلامية [(١)]

أكان يدور بِخَلَدِ أحد يعرف سُكَّان جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد، أنَّ هذه الجزيرة ستحكم الدنيا يومًا من الأيام؟

أكان يدور بخلد أحد أن هؤلاء الشراذم والأوزاع سيحاربون دولة الأكاسرة ودولة القياصرة، فيرثون ملكهم وأرضهم وديارهم؟

أكان يدور بخلد أحد أن هذه القبائل وهي متحاربة متنابذة يجمع الله بينها، ويوحد رأيها، ويؤلف بين قلوبها، حتى تصير كتلة واحدة تأخذ مكانها في الوجود، رغم العقبات والنكبات والسدود والحوائل؟

أكان يدور بخلد أحد أن هذه العقائد الفاسدة، والنِّحَلَ الباطلة، وعبادة الأوثان والأصنام، والخضوع للعَرَّافين والكُهَّان، تَطْهُرُ منها نفوسهم، وتَحُلُّ مَحَلَّهَا عقائد صحيحة ونِحَلٌ حَقَّةٌ عليها جلال الحسن ونور العلم؟

نعم إن ذلك قد كان، وفى أقل من قرن من الزمان، وكان على يد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، وهذه هي العجيبة الأخرى، فهل كان يدور بِخَلَدِ أحد أن هذا اليتيم الذي فقد أبويه، وخرج إلى هذه الدنيا دون مُعِينٍ يعينه،

---

(١) مقال بمجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون الجزء الثالث، ص ٢٦٥- ٢٦٧، غرة ربيع الأول ١٣٧٢هـ/١٩ نوفمبر ١٩٥٢م.

ولا ناصر ينصره، لم يتعلم العلم ولم تُثَقِّفْهُ جامعة، يقوم بهذا العمل العظيم ويأتي بهذا الأمر الجسيم؟

هذه حكمة الله وهذا قضاؤه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، يعلم من يصلح لها من الناس، ويعلم من تكون فيهم من البشر، فليس كل أحد يصلح لها، وليست كل أمة تكون فيها الرسالة تقوم بأعبائها.

ويجب على مصر وهي في مستهل عمل جديد تبحث فيه عن أسباب النهوض لتنهض، وعن أسباب العزة لتعز، وأسباب القوة لتقوى، يجب عليها أن تدرس تاريخ صاحب الدعوة الإسلامية، وماذا فعل بالأمة العربية، إننا إذا درسنا هذا الدرس وجدنا أسباب نهوض الأمة العربية كثيرة، أهمها: أن محمدًا هداه الله إلى أن يغرسَ في قلوبهم الإيمان، ويُزَيِّنَه في قلوبهم، وآمنوا بالله وبأنبيائه ورسله واليوم الآخر الذي يُجْزَي فيه المرء بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فوصل حياتهم الأخرى بحياتهم الدنيا، وجعلها امتدادًا لها.

وأيُّ امرئ لا يستمسك بعمل الخير ليجزي به خيرًا، ولا يبتعد عن الشر لئلا يُجزى به شرًا؟ وأي امرئ يعمل الخير وينأى عن الشر، ولا يحب أن يتعجل الجزاء عليه، ويجتاز القنطرة التي تحجزه عن الخير الكثير الذي ينتظره ؟ وهذه القنطرة هي الموت.

وبذلك رَبَّى فيهم الضمير الديني الذي يدفع إلى عمل الخير ويبعد عن عمل الشر، وباعد بينهم وبين حب الدنيا وكراهية الموت، فكانت اللَّبنات التي تتكون منها الأمة، لبنات قوية متينة.

ثم رأى أن الأمة العربية أمة أكلها التعصب القبلي والحروب الداخلية، فقد كانت كل قبيلة تُعَادِى الأخرى، وكانت تقوم الحرب بينهما وتأكلهما أكلًا، وتستمر السنين الطوال، فوحَّد بينها وألَّف بين قلوبها، وأبدلهم من هذه العصبية الضيقة عصبية أوسع ليست للدم والجنس، وإنما هي للحق والخير وهي عصبية الإسلام.

وبذلك كونهم مجتمعًا قويًا يثبت للحَدَثَانِ ولا يصدعه الزمان، ثم ربَّاهم تربية قَوَّتْ نفوسهم، وأدخلت فيهم العزة والكرامة، فأراهم بحق حقيقة أنفسهم، وهي أنهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، وأنهم مُخَلِّصُو البشرية ومنقذو الإنسانية.

فلا عجب بعد ذلك أن تنساب هذه الأُمَّةُ الفَتِيَّة القويَّة المتحابة المُخْلِصَة، المتعاونة، على العالم القديم لتُخَلِّصَه مما هو فيه من ظلم واستبداد، وتُبَدِّلَه بحكامه الغاشمين حكامًا عدولًا، يَعْدِلُون في الرعيَّة ويَقْسِمُون بالسَّويَّة.

ماذا يقف في سبيلها؟ إنَّها مؤمنة متحابة متعاونة، إنها تبغي رضا الله وفى تخليص العالم رضاه، وهي قد وهبها الله النور، وطلب منها أن تنير الطريق للمُدْلِجِين.

إنها كانت تحارب وهي مُقَدِّرَة أن تفوز بإحدى الحُسْنَيين: الغلبة والنصر أو الشهادة والأجر، وكانت تتربص بأعدائها أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيديهم.

إنها كانت تؤمن أنها تقوم بأعظم عمل وتؤدي أجَلَّ رسالة في الوجود، وهي هداية الحيارى من البشر، ونشر الفضيلة ومبادئ الخير والحق.

أَمَا آن لنا أن نستفيد من هَدْى الرسول في تربية أمتنا؟

إن العهد الجديد[1] قد زالت من أمامه العوائق، فله الحرية والاختيار في أن يبني أمته على الأُسُسِ التي يختارها.

وأول ما يجب عليها، اقتداء بنبي الإسلام، أن نغرس الدين ونقوي اليقين في نفوس الناشئين، وذلك بتعليم التعليم الديني الحق في المدارس، وإقامة الشعائر الدينية فيها.

وينبغي أن يُلَاحَظْ أنه ربما يُعَمَّمُ التعليم الديني ولا يأتي بالأثر المطلوب، لأنه لا يُلْقَى بطريقة تستولى على القلوب، ولا يُعْطَى لدروسه الإجلال الواجب، فليُتَنَبَّه إلى هذا.

ثانيها: أنه يجب أن تزول أسباب الفرقة والخلاف، وأن يُعْنى بالأخوة الإسلامية فتُغْرَسَ في القلوب، ويعنى بها أكثر مما يعنى بأشياء أخرى أقل منها أثرًا.

---

(١) يقصد عهد ما بعد زوال الملكية، وتأسيس الجمهورية عام ١٩٥٢م.

ثالثها: أن نربي أمتنا على الشعور بالكرامة والعزة، بنشر الصفحات الناصعة من تاريخ رجالنا في العلم والحرب والأخلاق، وأن يُلْغَى هذا البرنامج الذي كان يهدف إلى إضعاف نفسية الأمة، والإيمان بالأمم الأخرى.

وإني أرجو إذا أُخِذَ بهذا الإصلاح، أن تُعِيدَ الأُمَّةُ مجدها، وتقطع هذه الحلقات الصَّدِئَة وتتصل بتلك السلسلة الذهبية من آبائنا الميامين.

الزاهد المتقشف عمر الفاروق [1]

قال رَجُلٌ لابن المبارك: "يا زاهد" فقال: "الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغبة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت؟ "

وهذا كلام حق، فإنَّ الزُّهْدَ يَقْتَضِى شَيئًا مَقْدُورًا عليه يُزْهَدُ فيه، أمَّا من لا يقدر على الدنيا والتمتع بلذائذها، ثم أظهر الزهد فيها فربما يكون صادقًا في زهده، وكثيرًا ما يكون أحرى أن تكون زهدت فيه الدنيا من أن يكون زهد فيها.

مثل هذا، وإن خال نفسه زاهدًا لم يجربها ولم يمتحنها، فهو يقدر أنه لو عرضت عليه الدنيا بمفاتنها ومباهجها وما فيها من لذائذ ومتع زَوَى وجهه عنها، واستصغر من أمرها ما يستكبره الناس، وربما إذا عرضت عليه الدنيا انغمس فيها إلى ناصيته. فليس المحك الذي يبين فضل المرء أن يتصور أنه في حالة ثم يتصور ماذا يكون شأنه معها.

وإنما كان الأمر كذلك لأنه فرق كبير بين أن يتصور المرء أنه في حالة وبين أن يلتبس بهذه الحالة:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

وأصدق من جاز هذا الامتحان عمر بن الخطاب الفاروق فلقد ساد المسلمين، وورث ملك الأكاسرة والقياصرة، وقد كانوا في ترف ونعمة، ورث ذلك كله، ولم

---

(١) مجلة الهلال، العدد رقم (١) نوفمبر ١٩٣٧م، ص٦١- ٦٤.

يألف مأكلًا ولا مشربًا ولا لذةً يتلذذ بها المرء إلا كان قادرًا عليها، متمكنًا منها، فزوى وجهه عن هذا النعيم احتقارًا لشأنه ورغبة في أن يجمع لنفسه ما يكون عليه لذلك العادل الكريم.

رُوِيَ أنه وجد على مائدته وهو خليفة المسلمين خَلًّا وملحًا، فقال: لا أجمع بين إدامين.

رحمك الله يا ابن الخطاب، أترى الملح والخل إدامين تتحرج من الجمع بينهما، وإن أفقر رعيتك لا يراهما من أنواع الإدام، وإنما يراهما من الأفاويه[1] المشهية التي تحرك الشهية، لما يكون قد أعد من الطعام وإدام؟ !

وأخبار عمر في الزهد والتقشف مستفيضة، فمن ذلك أن بعض أعاظم الفرس وفد على المدينة، فسأل عنه فدل عليه فوجده نائما في المسجد على التراب، فقال: ((عدلت، فأمنت، فنمت))، ومنها أنه لما فتح الله عليه الشام سافر من المدينة إليها وكان معه خادم وناقة واحدة، فكانا يتعقبانها، يركب عمر والخادم يمشى، ويركب الخادم وعمر يمشى، فلما دخلا الشام كانت النوبة في المشي على عمر فدخلا المدينة والخادم راكب وعمر يمشي!

---

(١) الأفاويه: هي جواهر جامدة كالعطريات وسائله كالخل والزيت تخلط مع الأغذية لتغير طعمها وكذا خواصها الغذائية وغايتها إذا استعملت بلطف أن تزيد في هضم الغذاء. انظر: قانون الصحة المسمى بالمنحة في سياسة الصحة، كلود برنار، ترجمة: جورجي فيدال، تصحيح: محمد الهراوي، مطبعة بولاق، القاهرة، ص٢٣٩.

ومنها أن عثمان بن عفان أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر، شديد السَّمُوم، فإذا رجل عليه إزار ورداء، قد لف رأسه برداء، يطرد الإبل، يدخلها حظيرة الصدقة، فلما انتهى إليه إذا هو عمر بن الخطاب، فتلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦) وأشار إلى عمر وقال: هذا والله القوى الأمين

ولسنا نريد أن نستقصى هذه الأخبار في زهد عمر وتقشفه، وإنما نريد أن نلم ببعض الأسباب التي خلقت في عمر حالة الزهد هذه.

إن عمر كان قوى الجسم، صحيح البنية لا ممعودًا [(١)] ولا ضعيفًا، مرهف الحس، كسائر الناس، يعرف ما يلائم حواسه ومشتهياته، وينكر غير الملائم، فما الذي جعله يهرب من الملائم إلى غير الملائم؟

إن عمر لم يؤثر ذلك إلا وقد نشأت له حالة نفسية باين[(٢)] بها الناس الذين لا يسلكون مسلكه ولا ينهجون نهجه، هذه الحالة هي اعتقاده خساسة ما زهد فيه من حظوظ الدنيا، وشرف ما رغب فيه مما اختار لنفسه، وعِلْمُه أنه إذا باع هذه بتلك كان رابح الصفقة، غانم التجارة، فباع نعيم الدنيا وملذاتها، قادرًا عليها بما عند الله من رضوان.

---

(١) الممعود: أي الضخم .

(٢) باين :أي خالف .

تدبر القرآن الكريم:

والذي غرس في عمر هذه العقيدة طول استماعه وتدبره لما ورد في القرآن من حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٦)، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠)

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ (القصص:٧٩ – ٨٠)

وأخرى وهى حب عمر لرسول الله ﷺ وتأسيه به وتأثره طريقه، يَدُلُّ لذلك ما ورد أنَّه حين فتح عليه الفتوحات، قالت له حفصة: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته، فقالت :بلى!

قال: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟ وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على الأرض؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال: منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة، اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها. ؟

((وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟

((وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صنعت له امرأة من بنى زفر كساءين إزار ورداء، وبعثت اليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به، ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه، فصنع كذلك؟

يا حفصة: قد كان لي صاحبان سلكا طريقا، فإن سلكت غير طريقهما، سلك بي طريق غير طريقهما وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد، لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد.

الراعي أولى من رعيته بالتقشف:

وأخرى وهي أن عمر أصبح والي أمر المسلمين، وقد رأى أنه يسع الرعية مالا يسع الراعي من التمتع بحظوظ الدنيا، لأن الراعي إن أشبع شهواته ضربت وقويت، ولا تصل إلى غاية من الحظوظ حتى تطمع إلى غيرها، فاستكثر من الأموال وربما كان ذلك ذريعة إلى تطلعه إلى ما بأيدي الرعية، ليشبع شهواته الجائعة، ويسكت نوازعه القوية، لذلك كان يحب من ولاته المتقشفَ المعتادَ شظفَ العيش.

يُروى أنه كان يجمع ولاته كل عام من أمصارهم ويولم لهم وليمة يقدم فيها من خشن الطعام وغليظة، ثم يرقبهم وهم يأكلون، فمن رآه قد عافه علم أنه مترف، فكرهه لولايته، ومن رآه قد ملأ بطنه منه، علم أنه متقشف فأحبه لولايته، ولم يكن عمر بدعًا في هذا الرأي فقد رآه بعض فلاسفة اليونان من قبله، ومن يقرأ الجمهورية لأفلاطون يرى ما يشترطه على الحكام من عزوف عن حظوظ الدنيا ومتعها، والفرق بين أفلاطون وعمر، أن أفلاطون رآه وفرضه على الحكام، أما عمر فقد رآه وفرضه على نفسه ونفذه بالدقة والإحكام.

ورابع الأسباب: أنه كان يرى أن الخليفة يجب أن يكون حظه من الدنيا كحظ أدنى رعيته يشهد لذلك قوله: إذا كنت في منزلة تسعني وتعجز عن الناس فو الله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس.

التقشف يحفظ القوة والنجدة:

وآخر هذه الأسباب التي جعلت عمر يؤثر التقشف على الرفاهية والترف أنه كان يرى أن الترف مذهب للبأس من الأمة، وأن الخشونة تحفظ عليها قوتها ونجدتها ؛ لذلك كان يكره الترف في كل شيء لما يورث من النعومة والطراوة واللين، فمن ذلك أنه ما كان يركب الفرس مستعينا بالركاب بل يقفز من الأرض فإذا هو على ظهر الفرس فكأنما خلق عليه يكره في كل أمره عادة العجز، وإننا نرى الأمة الإنكليزية في هذا العصر تأخذ بهذا المبدأ، فرجال الطبقة العالية منهم يزاولون الأعمال الشاقة كتسلق الجبال والتجديف في الأنهار، والألعاب الرياضية الشديدة، ليبقوا على رجولتهم التي تمكن لهم في الحياة، فإنهم يعلمون أن الأمم إذا تساوت في المواهب العقلية فَأَقْدَرُهَا على التغلب أقواها رجولة.

رحم الله عمر بن الخطاب فقد كان صادق الفراسة، قَوِيَّ الظَّنِّ، فإذا لخصت تاريخ الأمة الإسلامية تراه يتلخص في هذا البيت:

ما أفسد الدين والدنيا سوى ترف هذى بواقيه تسري في بواقينا

نُعَيْمُ بن مَسْعُود [1]

نعيم بن مسعود رجل من أصحاب النبي ﷺ أغنى عن المسلمين ما لا يغنيه جيش كجنح الليل يزحف بالسيوف القواطع، والرماح القواضب، وذلك في وقعة الأحزاب وهى وقعة دبرها اليهود وجمعوا لها الأحزاب فذهبوا إلى قريش واسْتَعْدَوهَا على محمد ﷺ والمسلمين وذهبوا إلى غطفان كذلك واجتمع هؤلاء وهؤلاء وأولئك حول المدينة، وقد داخل المسلمين الرعبُ والشَّكُّ إذ اجتمع عليهم العرب واليهود وما لهم بهم قبل، وقد وصف الله ما نزل بالمسلمين في هذه الوقعة في قوله ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب: ١٠) وهنا جاء دور نعيم بن مسعود ونحن ننقل عن سيرة ابن هشام ما قام به من عمل عظيم في هذا الظلام الدامس والكرب الشديد.

قال ابن هشام: ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله فقال يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمُرْني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت فإن الحرب خُدْعَة.

---

(١) مجلة العربي الكويتية، العدد رقم ٩٧، ١ ديسمبر ١٩٦٦م، ص ٨٠ –٨١ .



فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديمًا في الجاهلية فقال يا بني قريظة قد عرفتم وُدِّى إيَّاكم وخَاصَّةَ ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم ليسوا بغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نُهْزَةً [1] أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه. فقالوا له: أشرت بالرأي، ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش، قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدًا وأنه قد بلغني أمر قد بلغت على حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنَّا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب

---

(١) النُّهْزَةُ: اسم للشيء الذي هو لك معرَّض كالغنيمة .

أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا. ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتموا عني. قالوا: نفعل ما أمرك؟ فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس كان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليه أن اليوم يوم السبت وهو لا نعمل فيه شيئًا وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثًا فأصابه ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتدت عليكم القتال أن تنشروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله الذي حدثكم نعيم بن مسعود حق فأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لا ندفع عليكم رجلا واحدًا من



رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان انا والله لا نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا فأبوا عليهم وخذل الله بينهم وبعث عليهم الريح في ليالٍ شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكرام والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بنار فارتحلوا فإني مرتحل فرحل ورحلت قريش معه وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم، وفك الحصار عن المدينة وردت قريش وغطفان، وخلوا بين بنى قريظة من اليهود وبين محمدٍ ﷺ والمسلمين ولا طاقة لهم بهم فحاصروهم وقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وأرضهم وديارهم وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ

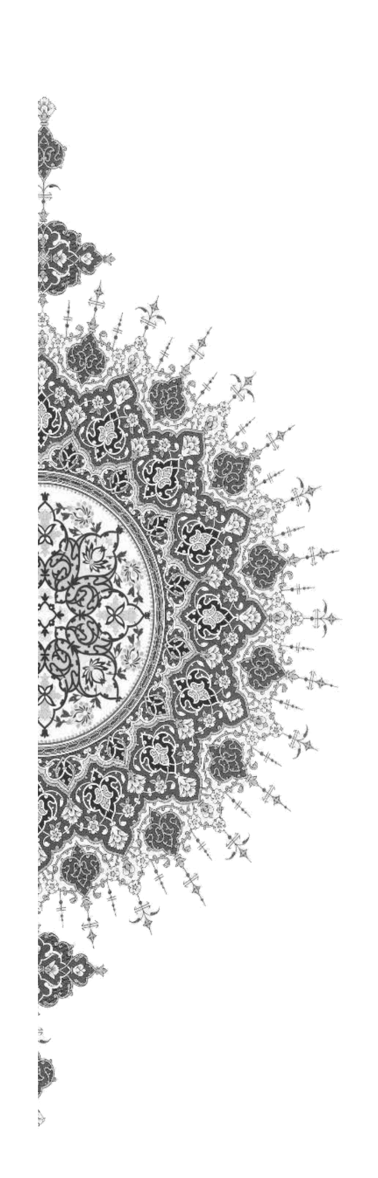
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٥ – ٢٧)

هذا نعيم بن مسعود الغطفانى وهذا بلاؤه في وقعة الخندق ألم يفك الحصار الذي كان كالخناق على المسلمين؟ ألم ينقذهم من موت محقق؟ ألم يغنِ عن المسلمين ما لا يغنيه جيش جرار مدجج بالسلاح صادق العزم والنية.

إن المثل يقول: رب رجل كألف.

وهذا هو نعيم بن مسعود، رجل كألف غدر اليهود بالمسلمين ومكروا، وكان نعيم بن مسعود أشد مكرًا.

المجموعة الثالثة
اللغة العربية
مشكلات وحلول



المجموعة الثالثة
اللغة العربية
مشكلات وحلول

تحتوي على المقالات التالية:

١- مناقضة شعر أبي نواس بين ابن هانئ وشعراء عصره.

٢- اللغة العربية: لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعَلِّمُهَا؟
(عشر مقالات بالعنوان نفسه).

٣- جهود المسلمين في النحو والبلاغة.

أ-آراء وأحاديث: علوم البلاغة في الميزان.

ب-آراء وأحاديث: علوم البلاغة في الميزان.

٤- النحو والنحاة.

٥- بيئة البصرة وأثرها في النحو العربي.

المناقضة في شعر أبي نواس بين ابن هانئ وشعراء عصره [(١)]

المناقضة في الشعر أن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول، والاسم منه النقيضة والجمع النقائض، فمدارها على الإبطال، كأن يفتخر الشاعر بنفسه أو بقبيلته فيأتي الشاعر الآخر فيفسد على الشاعر الأول ما قال، ويهجوه أو يهجو قبيلته ويُبَيِّنُ مثالبها

ومثال ذلك ما يروى أن جريرًا والفرزدق خرجا من العراق طالبي الرصافة لهشام بن عبد الملك، وقد مدحا، فتلفتت ناقة الفرزدق فضربها بالسوط وقال:

عــلام تَلَفَّتــين وأنــت تحتــي وخــير النــاس كلهــم أمــامي
متــى تــردي الرصــافة تســتريحي مــن الأنســاع والــدبر الــدوامي

فناقضه جرير بقوله :

تلفت أنها تحت ابن قيــن إلى الكيرين والفأس الكهام
متى ترد الرصافة تخز فيها كخزيك في المواسم كل عام

والأسباب الموَلِّدَة للمناقضة بين الشعراء كثيرة: منها المنافسة بين الشاعر والشاعر، فتجدهما يتنازعان الشرف، فإذا فخر أحدهما بنفسه أو قبيلته نازعه الآخر ذلك الفخر كما حكيناه عن جرير والفرزدق، ومنها إظهار القدرة على الشعر كما يروى أن جريرًا والفرزدق والأخطل اجتمعوا في مجلس عبد الملك فأحضر بين يديه كيسًا

---

(١) مجلة الهلال، العدد رقم (١٠) ١ أغسطس ١٩٣٦م، ص ١١٧٤ – ١١٧٨.

فيه خمسمائة دينار وقال لهم: " ليقل كل منكم بيتا في مدح نفسه فأيُّكم غلب فله الكيس "

فبدر الفرزدق فقال:

أنا القطران والشعراء جربى وفى القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل:

فإن تك زق زاملة فـــإني أنا الطـــاعون ليس له دواء

فقال جرير:

أنا الموت الذي يأتي عليكم فليس لهارب منى نجاء

فقال: " خذ الكيس فلعمري إن الموت يأتي على كل شيء "

ومنها الخلافات الدينية فكنت ترى هذا الشاعر عباسيا مثلا يرى أن الحق في الخلافة للعباس وأولاده وأنه لا حق فيها للعلويين فيقول:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

فيناقضه الآخر لأنه شيعي يرى الخلافة في على وأولاده فيقول:

لم لا يكون وإن ذاك لكـــائن	لبنى البنـــات وراثة الأعمام
للبنت نصف خالص من ماله	والعـــم متروك بغير سهام
ما للطليق وللسهـــام وإنما	صلى الطليق مخافة الصمصام

وقد تكون دواعي المناقضة غير ذلك.

وقد ناقض أبو نواس شعراء عصره لمثل العلل التي قدمناها، وكان فيه ما يغرى شعراء عصره بأن يناقضوه ويغريه بأن يناقضهم .

كان أبو نواس من العجم ومن موالي الحكمين باليمن، وكان بعض المشهورين من الأعجام في العصر العباسي يهربون من أنسابهم في العجم ويَدَّعُونَ لهم نسبًا في العرب لأن العرب كانوا هم الفاتحين ولهم دالة الفاتح وعزته والمغلوب مولع بالتشبه بالغالب.

وكان أبو نواس من هؤلاء العرب الذين يريدون أن يكون لهم نسب في العرب وقد خلط في دعوته وتنقل بين الأنساب ووضع نسبه حيث أراد. فادَّعى أنه من ولد عبيد الله بن زياد من بنى تميم اللات، ثم هرب من ذلك وادعى للنزارية وانتسب للفرزدق، ثم انقلب على النزارية وادَّعَى اليمنية وكان إذا ادَّعى للنزارية هجا اليمنية وأفحش في الهجاء. وإذا ادعى لليمنية هجا النزارية وأفحش في هجائها

واعتذر إلى من هجاهم، وكان في كل ذلك يهيج شعراء القبائل التي يهجوها فيعارضونه ويناقضونه. فلما هجا به النزارية قوله من قصيدة :

واهج نزارًا وافر جلدتها   وهتك الستر عن مثالبها

وقد هجا خندف وأسدا بقصيدته التي أولها:

ألم تربع على الطلل الطماس   عفاه كل أسحم ذي ارتجاس

فعارضه الحكم بن قنبر بقصيدة أولها:

دع الأطلال عنك أبا نواس   عفاه كل أسحم ذي ارتجاس

وكان أبو نواس شعوبيًا يبغض العرب وأساليبهم في الحياة ويحب العجم ويتعاجم في شعره وقد قال في ذلك:

عاج الشقي على رسم يسائله   وعجــــت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد   لادر درك قــــل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيـــس ولفهما   ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر   ولا صفــا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين نـاعت خمر في دساكرها   وبين بـــــاك على نـؤى ومنتفد

وقال:

فا سقنيها   وغن صو　　　تًا لك الخير أعجما
ليـــس في نعت دمنة　　　لا ولا زجـر أشأما

فهجاه الرقاشي بقوله:

نبعلي فـــــإذا قيـــل له　　　أنت مولى حكم قال أجل
هو مولى الله إذ كـــان به　　　لاحقـا فالله أعلى وأجل
واضعا نسبته حيث اشتهى　　　فإذا ما رابـــه ريب رحل

فرد عليه أبو نواس بقوله:

قل للرقاشـــي إذا جئته　　　لو مت يـا أحمق لم أهجكـــا
لأنني أكرم عرضـــي ولا　　　أقرنه يومـا إلى عــرضكـــا
إن تهجني تهج فتى ماجدا　　　لا يرفع الطـرف إلى مثلكـــا
دونك عرضي فاهجه راشدا　　　لا تدنس الأعراض من هجوكا

وكان ماجنا خليعا متبطلا داعيا إلى ا لتبطُّل والمجون، وكان ذلك يغري أهل الجد بمناقضته.

فمن دعائه إلى التبطل قوله:

دع عنـك مـا جـدوا بـه وتبطـل　　　وإذا لقيـت أخـا الحقيقـة فـاهزل
لا تـركبن مـن الـذنوب صـغيرها　　　واعمـــد إذا فارقتهـــا للأنبـــل

وخطيئة تعلو على مستامها يأتيك آخرها بطعم الأول
ليست من اللاتي يقول لها الفتى عند التذكر ليتني لم أفعل
حللت لا حرجا على حرامها ولربما حللت غير محلل

وقوله:

جريت مع الصبا طلق الجموح وهان على مأثور القب

وقد ناقض أبو نواس نفسه في كل ما قاله في هذا الباب بقوله :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذلك أثام

وكان كثير الدعابة في شعره يسخر من غيره من الشعراء. وكان لابد لهؤلاء الشعراء أن يثأروا لأنفسهم، وأن ينقضوا قوله. وأخباره مع عنان جارية الناطفي ذلك كثيرة، ولولا أنها أشعار فاسق ماجن ليس من خير للأخلاق في ذكرها لأوردنا منها طرفا .

والذي اتفقت عليه دراسة مناقضات أبى نواس أنه كان خليعا ماجنا مُسْتَهْتِرًا شعوبيا يكره العرب وينتقصها، شهوانيا حاد الشهوة مُعْطِيًا هَوَاهُ زِمَامَه يرتع به كُلَّ مَرْتَعْ ويَرِدُ بِهِ كُلَّ مَوْرِد.

وهو بلا شك يمثل ناحية من نواحي العصر العباسي ويمثل طَوْرًا بدأت تتطور إليه الحياة العربية. ولا أقول إنه يمثل العصر كله لئلا أقع في التناقض. فإن أبا العتاهية كان في هذا العصر أيضا وشعره زاهد جاد عفيف محتشم مؤمن تقي. فلوجرينا على

قاعدة أن الشاعر يمثل عصره لكان العصر العباسي في القرن الثاني عصر عفة وزهد واحتشام أيضا فنخرج بالنقيضين وهما أن القرن الثاني قرن تهتك وفسوق، وأن القرن الثاني قرن عفة وزهد واحتشام.

ومن بدائه العقول أن النقيضين لا يجتمعان، فلنقتصد ولا نسرف ولنكتف بأن أبا نواس يمثل ناحية من القرن الثاني ومبدأ حياة كان الزمن يتمخض بها .

إن القرن الثاني قد قوي فيه العنصر الفارسي، وأخذ يزاحم العنصر العربي في مناصب الدولة، وقد بدأت قوته لأن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية كان له فيهما النصيب الأوفر، فعرفت الدولة العباسية لهم حقهم فولتهم المناصب وشعروا بقوتهم لأنهم ثاروا ونجحت ثورتهم

تقلدوا المناصب الكبيرة في الدولة فكان منهم الوزراء والقواد والكتاب وزاحموا العرب في كل مكان بمنكب ضخم وقوة قاهرة، فكان من الطبيعي أن يكون في هذا العصر حزب كبير يحب الفرس ويكره العرب ويذم مذاهب هؤلاء في الحياة ويمدح مذاهب الأولين فيها، وكرهوا كل ما هو عربي لأنه عربي. وكان أبو نواس يمثل هذا الحزب الفارسي أصدق تمثيل فذم العرب وعيشها ومنهجها في الحياة حتى طريقتها في شعرها من وصف الديار والبكاء على الأطلال، ونظن أنه ما تنقل بنسبه بين القبائل العربية إلا ليهجو القبائل الأخرى وقد تنقل بين جميعها، وهجاها جميعها. وفعل ذلك ليحمل هجائه إياها محمل التعصب لقبيلة عربية ضد قبيلة

عربية، ولا يحمل على أنه تعصب من الأمة الفارسية ضد الأمة العربية، وقد تمكن بهذا الهجاء السياسي أن يهجوها جميعها، وأن يحملها على رواية هجائه حتى أنه هجا نزارًا التي منها قريش والهاشميون والعباسيون خلفاء هذا الزمان، وليست عندنا المصادر اللازمة ولا الوقت الكافي لنعلم أكان ذلك منه إرضاء لعاطفته الشخصية. أم كان تنفيذًا لمؤامرة سرية لقلب العرب والحط منهم ليسهل للعنصر الفارسي أن يرقى إلى ما يطمح إليه من الاستبداد بالملك والسلطان. وسننقل لك جملة صالحة من هذه القصيدة التي هجا بها نزارًا ا لتعلم الضغينة التي كان يحملها لنزار والعرب والحيلة التي تمكن بها من هجائها والوسيلة التي توسل بها لإرضاء الخليفة عن هذا الإقذاع، ولكنها لم تَجُزْ عليه فحبسه فيها.

وأولها:

ليست بدار عفت وغيرهـــا ضربان من قطرها وحاصـبـهـا

يقول فيها:

فافخر بقحطان غيرمكتئب فحاتم الجود من مناقـبــهـــا

ولا ترى فارسا كفارسهـــا إن زلت الهام عن مناكـبـهـــا

عمرو وقيس والاشتـــران وزيد الخيل أسد لدى ملاعبهـــا

أحبب قريشا لحب أحمدهـــا واعرف لها الجزل من مواهبها

إن قريشا إذا هي انتسبـــت كان لها الشطر من مناسبهـــا

إن فاخرتنا فلا افتخار لها   إلا تجارات من مكاسبها
وإنها إن ذكرت مكرمة   جاءت تجاراتها بغالبها
واهج نزار وافر جلدتها   واهتك الستر عن مثالبها
هل يغسلن عن نسائهم   ما أفرغ الأسد في كعائبها
أما تميم فغير داحضة   ما سلسل العبد في شواربها
أول مجد له وآخره   إن ذكر المجد قوس حاجبها
وقيس عيلان لا أريد لها   من المخازي سوى محاربها

ومن جهة أخرى نرى أن الدولة الإسلامية قد فرغت في هذا العصر من أمر الفتوحات ومن المشاغل الخارجية، وقد فتح الله عليها ملك الأكاسرة والقياصرة وأورثها أرضهم وزروعهم وممالكهم فبدأت تنغمس أفراد منها في النعم، ويدب إليها الترف، وما يتبعه من شهوات، والحزب الفارسي الناقم على الدولة القائمة كان له دخل كبير في تعجيل الانغماس في الترف إلى هذه الدولة فقد كان من تلك الدولة الفارسية القديمة، وقد كانت هذه الدولة قطعت أدوار الأمم وبلغت شيخوختها وهرمها وفيها عوامل الضعف والفناء التي تصيب الأمم في أدبارها، ففيها الترف والانغماس في النعيم، وفيها التفنن في الشهوات واللذائذ وقد كان هذا الحزب لا يسوءُه أن ينتشر الترف في العنصر العربي، بل ربما عمل لذلك لأنه يعلم أن الانغماس في الترف والشهوات البدنية أكبر عامل في انحلال الدول

وضعف الأمم وخراب الممالك، وهذا مما يساعد على ما يصبو إليه من نقل الحكم إلى العنصر الفارسي وكان أبو نواس يمثل هذه الناحية.

وكان يقابل هذا الحزب الماجن الخليع الشعوبي جمهرة كبيرة في هذا العصر، فيها الفقهاء والمحَدِّثُون والعُبَّادُ والزُّهَّادُ وطبقات العامة، بل كان فيها من الشعراء أنفسِهِم كأبي العتاهية فهو في شعره يميل إلى الجد والخلق الكريم والزهد ومكارم الشيم ونبيل الصفات، وكان كثيرا ما يلوم أبا نواس على استهتاره ومجونه، ولما أكثر على أبى نواس في العذل قال له أبو نواس:

لا تنتهي الأنفس عن غَيِّهَا ما لم يكن منها لها زاجر

ومع ذاك فأبو نواس لم يبلغ هذا المبلغ الذي تمثله الحكايات المذكورة في كتب الأدب فإننا نعتقد أن شخصية جحا نحلها الناس كثيرا من الأخبار والنوادر والأشعار .

اللغة العربية وآدابها

١ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُهَا؟ (١)

شَعَرَ رجال التربية والتعليم في مصر منذ زمن طويل بإخفاق المعاهد المصرية المختلفة في تعليم اللغة العربية، فهبُّوا يتعرفون أسباب هذا الإخفاق، ويعالجونه بالوسائل التي يرونها، ألَّفوا اللجان، وعقدوا المؤتمرات، وبحثوا البحوث المختلفة؛ فمرة يرون الإخفاق من صعوبة النحو فينصرفون إلى تسهيله، ومرة يرونه من كثرته فينصرفون إلى تقليله؛ ومرة يرون من قلته فينصرفون إلى تكثيره، ومرة يرونه من مدرس اللغة العربية فيعمدون إلى إصلاحه وحسن اختياره والعمل على توسيع ثقافته، ومرة يرى بعض الباحثين أن هذا الإخفاق إنما هو من آثار البعد ما بين العامية والعربية فيشير بالتقريب بينهما بأن تنزل كلتاهما عن بعض خصائصها لتقرب من الأخرى. وهذا معناه إعدام اللغتين واصطناع لغة لا هي بالعربية، ولا هي بالعامية، وليس هذا إصلاحا، وإنما هو خضوع للحالة الراهنة، وإقرار الخطأ، والعجز أمام اللحن والتحريف، والاعتبارات الدينية والاجتماعية والتاريخية تقضي علينا بالاحتفاظ باللغة العربية كما هي تَدبُّ في عروقها دماءُ القُوَّةِ والحياة.

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٢٨، ص ٦٥٥-٦٥٦، الاثنين ١٥ شعبان ١٣٦٢هـ / ١٦ أغسطس ١٩٤٣م.

أما الاعتبارات الدينية فإنها لغة القرآن والسُّنَّة، ومنهما يأخذ المسلمون دينهم وعقائدهم وأخلاقهم وعباداتهم وأحكام معاملاتهم، وهم يحرصون على اللغة العربية أشد الحرص، ليفهموا بها كتاب الله وحديث رسوله، ويبقى ذلك الينبوع الذي يستقون منه متدفقًا ثرَّارًا، ويخشون أعظم الخشية أن يصبح غَوْرًا فيفقدوه وهم في مسيس الحاجة إليه.

وهم لا يرضون أن تَبِيد اللغة العربية كما بادت أخواتها من اللغات السامية كالعبرانية، فيصبح القرآن لا يتلى ولا يفهم إلا في المساجد وعند أداء الشعائر، كما صارت العبرانية لا تتلى إلا في الصوامع والبِيَعِ.

وأما الاعتبارات الاجتماعية فإن اللغة العربية الآن لغة عامة، وهي لغة شمال أفريقية والجزء الغربي من آسيا، وسكانها يبلغون أكثر من ثمانين مليونا من الأنفس[(١)]، إذ إن اللغة العربية لغة الكتابة في هذه الأقطار جميعها، ومنها تفرعت لهجاتهم، ولحرصهم على اللغة العربية دائمًا لا تبعُد اللهجات عنها، وكذلك لا تبعُد لهجات الأقطار بعضُها عن بعض بُعْدًا يجعل التفاهم بين أهلها متعذَّرًا.

---

(١) كان ذلك عام ١٩٤٣م، لا شك أن هذا العدد تَغيَّر الآن وتبدل إلى أضعافه.

وقد ربطت هذه اللغة بينهم برباط اجتماعي وثيق، وسَهَّلت سُبُلَ التعارف والتآلف، فأصبح المصري مثلاً يسافر شرقا إلى الشام أو الحجاز أو العراق، ويسافر غربًا إلى ليبيا وطرابلس وتونس والجزائر، ويسافر جنوبًا إلى بلاد السودان وما وراءها فيرى أهلاً بأهل وجيرانًا بجيران، ويحُلُّ بين قوم يفهم عنهم ويفهمون عنه، ويألفهم ويألفونه، وكأنه لم يبرح بلده، ولم يفارق موطنه، ذلك بفضل اللغة العربية وما يسَّرت من تفاهم، وكذلك شأن السوري والعراقي والحجازي إذا حلَّ بهذه الأقطار، وقد كان ذلك سببًا في زيادة التعاون وإحكام روابط الأخوة والحب بين شعوب الشرق العربي، وفتحَ طريقًا إلى الوحدة العربية التي ينشدها كل محب للشرق وللعرب، وستُحَقَّقُ إن شاء الله بفضل هذه اللغة.

وقد أدَّى ذلك إلى سُهُولَة التجارة وتبادلها بين هذه الأقطار كما أدَّى إلى تبادل الثقافة وسائر ألوان الإنتاج في العلم والمعرفة والتفكير، وصار المؤلف في مصر لا يُؤَلِّفُ لوطنه وحده، وإنما يؤلف لجميع هذه الأقطار، كما صار طابِعُ الكتب وناشرُها لا يطبع أو ينشر لمصرَ فحسب، وإنما يطبع لهذه الأقطار ولبلاد الهند والملايو وجاوه وسومطره وبلاد الصين، كذلك شأن المؤلِّفين والناشرين في هذه الأقطار، وذلك كله بفضل اللغة العربية.



وأما الاعتبارات التاريخية فإن علوم آبائنا وأجدادنا وثقافتهم وتراثهم العقلي قد وضعت باللغة العربية، فنحن نحافظ عليها ما حافظنا على هذا التراث. وهذا هو أيضًا ما يجب على النفر القليل الذين دعوا إلى العامية وإحلالها محل اللغة العربية.

أتدرون ماذا نكون إذا نحن اتَّبَعْنَا مشورة أولئك وهؤلاء ممن يشيرون علينا بأن تتنازل العربية عن بعض خصائصها لتقرب من العامية، أو أن نصطنع العامية بدل العربية؟ إننا بذلك نعمد إلى تلك الصلات التي بيننا وبين جيراننا الشرقيين فنقطعها فنصبح نتكلم بلغة لا يفهمونها ويتكلمون بلغة لا نفهمها.

وإلى تلك الصلات التي بيننا وبين أسلافنا فنقطعها أيضًا ونصبح لا نتصل بعلومهم ولا ثقافتهم، لأنها باللغة العربية ونحن نصطنع العامية، ونكون قد سجنا أنفسنا في سجن العامية المظلم لا يفهمنا أحد ولا نفهم أحدًا بعد أن كُنَّا في ميادين العربية الفسيحة التي تمتد شرقًا وتضرب في بلاد الهند والصين، وتمتد غربًا وتضرب في سواحل المحيط الأطلسي، وتمتد جنوبًا وتضرب في المحيط الهندي، وتمتد شمالًا وتضرب في آسيا الصغرى وبلاد الأناضول، وتمتد في الماضي وتضرب في عهود العباسيين والأُمَويين والخلفاء الراشدين وعصر البعثة المحمدية وما قبل البعثة من عصر العرب الأولين.

ومرة يرى بعض الباحثين أن يقرب بين العربية والعامية بأن يؤثر كل لهجة عربية توافق العامية، فيؤثر اللغة التي تُلزِم الأسماء الخمسة الأَلِف، لأن العامية تنهج في

أسلوبها هذا النهج، ويؤثر اللغة التي تُعرِب جمع المذكر السالم إعراب حين، لأن العامية تفعل ذلك.

وهذا لا يحل المشكلة، لأن العامية لا تلتزم نهجًا واحدًا خاصًا في أسلوبها ولا تلتزم لغة من هذه اللغات. وأيضًا فكثير من العامية ليس له نظير في لهجة من اللهجات العربية.

ثم ماذا يفعلون؟ أيوجبون هذه اللغة ويخطئون ما عداها، أم يُجَوِّزُونَها ويُخَيِّرُون بينها وبين اللغات الأخرى؟ فإن كان الأَوَّل أَدَّى ذلك إلى أَنَّ المتعلم على هذه الطريقة يُخطئ القرآن وكلام رسول الله وكلام العرب إذا جاءت على غير هذه اللغة.

وإن كان الثاني لم يعد ذلك تسهيلًا لأنه لم يفعل شيئًا سوى أن زاد في الطنبور نغمة، فبعد أن كان يُعَلِّم لغة واحدة في جمع المذكر السالم هي اللغة العامة القياسية أصبح يُعَلِّم اللغة العامة واللغات الأخرى القليلة.

ثم هذا يُضَيِّعُ على المسلمين الغرضَ الذي يرمون إليه، ويحرصون عليه أَشَدَّ الحرص، وهو الاحتفاظ بلغة القرآن ولهجته وطريق أدائه.

والذين يدعون إلى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة أقربُ إلى الصواب؛ ونحن نؤمن كما يؤمنون بضرورة هذه الخُطْوَة، وإن كنا نَخَالهم فيما ذهبوا إليه من قواعد كما بيَّنا ذلك في حينه، ونرى من هذا كله أن المشكلة على ما هي عليه لم تُحَل ولم توشك أن تُحَلَّ. وسنحاول إن شاء الله في الفصول الآتية أن نَحُلَّ هذه المشكلة التي استعصى على الزمن حَلُّهَا.

٢ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نعلمها؟ (١)

بَيَّنا في مقالنا السابق جهودَ رجال العلم والتربية في سبيل إصلاح تعليم اللغة العربية، تلك الجهود التي إن أخطأها التوفيق فلن يُخْطِئَهَا أن تكون حقيقةً بالشكر وعرفانِ الجميل.

إن هذه الجهودَ المختلفةَ دليلٌ على عنايتهم باللغة العربية، وحرصِهِم عليها، ومعرفتهم بقدرها، ودليلٌ على أنهم يحبون شباب هذه الأمة، ويودون أن يُسَهِّلُوا عليهم ما صَعُب، ويُقرِّبوا إليهم ما بَعُد، وأن يسهروا ليناموا، وأن يَنْصَبُوا (٢) لهم ليجدوا السعادة والراحة.

وهذا وحده جهد مشكور، وصنيع غير مكفور، جدير بالإجلال والتعظيم، سواء أَوُفِّقُوا فيما حاولوا أم لم يُوفَّقُوا.

وَرُبَّ قائل يقول: لقد وضعتَ أن المعاهد في مصر أخفقت في تعليم اللغة العربية، وأَخَذْتَهَا مُقَدِّمة مُسَلَّمة، وكانت بحاجة إلى أن تقيم عليها الدليل، فلعلها لم تخفق في تعليم اللغة، ولعلها نجحت أعظم النجاح، ولعل ما هو مشهور بين رجال التعليم

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٢٩، ص ٦٧٣-٦٧٤ الاثنين ٢٢ شعبان ١٣٦٢هـ / ٢٣ أغسطس ١٩٤٣م.

(٢) ينصبوا: يتعبوا.

من أنها أخفقت في هذه المهمة – من القضايا التي اشتهرت لغرض من الأغراض – فإذا نُقدت تَبَيَّن خطؤها. فلسنا نسايرك حتى تقيم الدليل على هذا الإخفاق.

وأقول: إني أوافق هذا القائل إنه لابد من أن يقام الدليل على هذه المقدمة، ولا يصح أن تترك دون بيان.

إن المرء يكون قد أتقن لغة ما إذا كان يتكلم ويقرأ ويكتب بهذه اللغة، جاريًا على قواعدها، مراعيًا قوانينها، لا يلحن فيها ولا يخطئ، وأن المدرسة تكون قد نجحت في تعليم اللغة إذا كان الذين تخرجوا فيها جميعُهُم أو أكثَرُهُم على هذه الصفة، فهل من تخرجوا في مدارسنا كذلك؟!

أما الكلام باللغة العربية فلا تكاد تجد أحدًا يتكلم بها، فالشَّعْبُ كُلُّه يصطنع في التفاهم والتخاطب اللغةَ العاميةَ، وليس من النَّاس من يصطنع اللغة العربية إلا في النُّدْرَة وعلى سبيل الشذوذ، حتى إن دروس اللغة العربية تُلقى بالعامية، فقد دخلت العامية على العربية حُجُرَات دروسها، وغَزَتْهَا في معاقلها، وأخصِّ الأماكن بها.

ومن المضحك حقًا أن تجد مدرس النحو أو الصرف أو البلاغة أو مفسر النصوص العربية من شعر ونثر يُلقي دروسه وقواعده بلغة عامية، لا يراعي ما يقول من قوانين، ولا يُقَوِّمُ لسانه بما يسرد من قواعد.

فأما الكتابة والقراءة بها، فلا يقرأ باللغة الفصحى ولا يكتب إلا فئة قليلة، تمكنت من حفظ لسانها من الخطأ عند القراءة والكتابة، وجمهرة المتعلمين لم يصلوا إلى هذه المنزلة، فالشاب يتخرج في المدرسة، أو في المعهد، ولسانه لا يكاد يقيم جملة، أو يعرب كلاما، ولا يستطيع أن يُعبِّرَ عن خلجات نفسه بأسلوب صحيح مستقيم.

وإذا لم يكن هذا إخفاقا، فماذا يكون الإخفاق؟

وكما لم تُوَفَّقْ مدارسنا في الغاية لم تُوَفَّق في الوسيلة، أو قُل إنها لم توفق في الغاية لأنها لم توفق في الوسيلة؛ فالوسيلة إلى تعلم اللغة هي دروسها، ولمَّا تستطع مدارسنا أن تحببها إلى التلاميذ، فهم يأتون إليها متثاقلين، ويستمعون إليها كارهين، وهم يبغضونها بغضًا يملأ ما بين جوانحهم. فالنحو عندهم ثقيل بغيض، وكذلك الصرف، وعلم البيان الذي قال فيه بعض العلماء - أنه لا ثواب في تعلمه - يشير إلى أنه لا مشقة فيه على المتعلم، وهو يطلب لما فيه من لذة، فجزاؤه فيه، قد بَغَّضته إليهم هذه المدارس أيضًا؛ وليس العيب في ذلك على الشباب، لأنهم يدرسون

الهندسة والحساب والطبيعة في غير ضيق ولا حرج، بل يدرسونها في شغف ومحبة، إنما العيب على دروس اللغة العربية وحدها.

فلا عجب بعد ذلك إن لم ينتفعوا بهذه الدروس، لأن الانتفاع بالشيء على قدر المحبة له، والرغبة فيه.

هذا شيء مخيف حقًا، له نتائجه الخطيرة، فإما أن نعمل على تسهيل الانتفاع باللغة العربية وتيسيرها على الدارسين والمتعلمين وتزيين علومها في قلوبهم، وإما أن نتحمل أمام التاريخ والأجيال عواقب هذا التفريط والإهمال، لأن الشيء البغيض المملول لا يُعَمِّرُ طويلاً، ولا يمكن أن يُكرَه الناس عليه دائمًا.

وهناك أمر آخر ينتج من الخيبة في تعليم اللغة العربية، يخشاه رجال الاجتماع أعظم الخشية، ويشفقون منه أشد الإشفاق، وهي بقاء الحال على ما هي عليه في مصر، من اصطناع لغة للخطاب، وأخرى للكِتاب، بينها وبين جمهور الشَّعْبِ بَوْنٌ شاسع، وعِقَابٌ صعاب.

وإنما كانوا يخشون، ويشفقون منه، لأن ذلك يؤدي إلى إطالة أمد جهل الأمة وتأخرها، لأن العلم والأدب قد كُتِبَا بلغة لا يفهمها جمهور الشعب، وهي العربية، فلا سبيل إلى وصوله إليها.

أما إذا نجحت المدرسة في تعليم العربية، وتكلَّم بها المتعلمون وهم مخالطون للشعب، فعلى مرور الزمن يسهل عليه فهمُ اللغة العربية ويَتَسَرَّبُ إليه كثير من مفرداتها وتراكيبها، وربما علمها فصارت لغة الخطاب، لغة الكتاب، وهذا كسب ليس بالقليل، فكل ما كتب من علوم وأخلاق وآداب يكون حينئذ في متناول جمهور الشعب، فيرقى إلى الذروة التي ينشدها له المصلحون.

وهناك طائفة من رجال الاجتماع ترى أنه إذا خابت المدرسة في تعليم العربية، وخابت الأمة في اصطناعها ورفع لغة الحديث إلى اللغة التي تكتب بها العلوم والآداب، فلا مناص من كتابة العلوم والآداب باللغة التي تفهمها الأمة، لتنتفع بها، ولتبلغ الأمل المنشود، لأنه خير للأمة أن تخسر اللغة العربية وتكسب العلم الذي به نماء عقولها، والآداب التي بها تقويم أخلاقها، من أن تربح العربية وتخسر العلم والأدب.

فأنتم ترون أن الأمر جَدٌّ خطير، وأنه يعني حياةَ اللغة العربية أو موتَها، ونجاحَ المتعلمين في تعلمها أو إخفاقَهم، ورُقِيَّ الأمة أو انحطاطَها.

لذلك يجب أن نعمل جاهدين، وأن نجهد مخلصين، حتى نعرف الأسباب في هذا الإخفاق، وأن نفعل الممكن وغير الممكن لنجعل تعليمها ناجحًا، ولنحبب درسها

إلى التلاميذ، وبذلك نتقي هذه النتائج السيئة، ونوفر على الشباب وقته وجهوده ونحمي اللغة العربية من الضياع والموت.

هذا ما دعا رجالَ العلمِ إلى معالجة هذه المشكلة.

وهذا ما دعاني أيضًا إلى أن أُلْقِيَ بدلوي في الدِّلَا، وسأعرض بحثي على القارئين، أو أولي الأمر في مصر، ولعل هذه الدعوة تَلْقَى ما أقدره لها من توفيق - إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله.

٣ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُهَا؟ [١]

يتوقع القراء أنني سآتيهم في مشكلة اللغة العربية بحلول مُطَوَّلةٍ وآراء معقدة، تَثْقُلُ على العامَّة ولا يستسيغها إلا الخاصَّة.

وإنني سآتيهم بالجديد الذي لم يقرع أسماعهم، ولم يخطر لهم ببال.

وإِنِّي أقول للقُرَّاء أن ما سأعرضه عليهم قسمان، الأول: نقد الطريقة التي تسلكها المدارس في تعليم اللغة، والثاني: نقد علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة، وإبطال الباطل من قواعدها، وإحلال الحق محله.

فأما نقد أسلوب تعليم اللغة فإني أحب أن أطمئن القراء من جهته، فإن الحلول التي جئت بها سهلة لا غموض فيها، بسيطة لا تركيب فيها؛ وهكذا شأن الحقيقة تمتاز بالسهولة والبساطة، وقد أخذتها من العامَّة وأشباهِ العامَّة، أخذتها من الحَائِكِ إذ يُعَلِّمُ الحِياكة، والحَدَّادِ إذ يُعلم الحِدَادة، والنَّجَّارِ إذ يُعَلِّمُ النِّجَارة.

وليس فيما جئتُ به في هذا الموضوع جِدَّةٌ[٢]، وإنما هو قول مُعَادٌ مَكْرُور، قاله علماء الشرق قديمًا وعلماء الغرب حديثًا، حتى إنني ترددت في عرضه على الناس، ولكن يشفع لي في عرضه أن قومي لم يعلموا به كأنهم لا يعرفونه، فقلت: لعلهم يحتاجون

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٣٠، ص ٦٩٠-٦٩١ الاثنين ٢٩ شعبان ١٣٦٢هـ / ٣٠ أغسطس ١٩٤٣م.

(٢) جِدَّةٌ: شيءٌ جديد.

إلى الإقناع به، وإقامة الدليل عليه، وإدارة الكلام على البرهان والإقناع، ليوافق طبقات الناس، وكذلك فعلت.

وأما نقد القواعد وبيانُ الباطل منها، وإحلالُ خَيْرٍ مِنْهَا مَحِلَّهَا: فهي مسائل فَنيَّة يصعب فهمها إلا على الدارسين، وهي جديدة قد نشأت عن الدَّرس الطويل، والتأمل والتنقيب في هذه العلوم، وفيها لذةٌ ومتعةٌ، فسيرى فيها القراء مصاولةَ العقول ومقارعةَ الآراء، وسيرون علومًا كانت تُحاط بهالة من التقديس تَنهار وتُهدم، وعلوما أخرى حَلَّتْ مَحِلَّهَا وأخذت مكانها، فبدت أعلى منها وأسمق، وما نهدم ما نهدم إلا عن بَيِّنَةٍ وحُجَّةٍ، وما نبني ما نبني إلا عن بينة وحجة. فما عدَّله الدليل فهو العدل الثِّقَة، وما جَرَحه الدَّليل فهو المُجَرَّحُ المَدْخُول.

فإن كان ما جئت به حقًا فللقراء خيره وبركته، ولي ما كابدته من النَصَبِ والهمِّ، وإن كان باطلاً فعليَّ تبعته وعارُه، وخَلاهم ذمٌّ.

ربما لم تُعْنَ أمة في العالم بلغةٍ ما كما عنيت الأمم الإسلامية باللغة العربية، وقد عظمت هذه العناية واتصلت وتلاحقت مدة ثلاثة عشر قرنا، فتوافر العلماء عليها في القديم يدرسونها من نواحيها المختلفة، درسوا مفرداتها وعرفوا التغيرات التي تلحق المفرد، والأوزان التي يكون عليها، وكيف تتصرف الكلمة في الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشَبَّهة إلخ، وعرفوا قواعد ذلك وسَمَّوه علم الصرف، وعرفوا ما تدل عليه كلُّ كلمة من معان، والشواهد

التي يستشهد بها على هذه المعاني، ودَوَّنوا ذلك وسَمُّوه علم متن اللغة، ودرسوا نظمها وتراكيبها المختلفة، وما يفيده كلُّ نَظْمٍ وتركيب، ووضعوا قوانينه وسَمَّوه علمَ النَّحو. ودرسوا فضيلة الكلام، ووضعوا القواعد التي يحسُن بها الكلام وسَمُّوها علمَ البلاغة. ودرسوا ما في لغة العرب من شِعْرٍ ونَثْرٍ وبَيَّنُوا معانيه. ودرسوا أوزان الشعر وأعاريضه وقوافيه وهَلُمَّ جَرًّا.

وضعوا كل ذلك في قوانين، ووضعوا هذه القوانين في كتب قد سُطِّرَت، وصُحُفٍ قد نُشِرَت، وكان كلُّ جِيلٍ من الأجيال يزيد وينقص، ويُغَيِّرُ ويُبَدِّل على حسب ما يتراءى له، ويضع الكتب الجَمَّة والأسفار المختلفة، وكانوا يعكفون عليها يتدارسونها يُعَلِّمُهَا كبيرُهم صغيرَهم، وعالمُهم جاهلَهم، وقد ورثنا نحن هذه العناية فدرسناها في جميع معاهد التعليم، فهي تُدَرَّسُ في وزارة المعارف[1]، في الأقسام الابتدائية والثانوية وفي التعليم الأوَّلي، وهي تُدَرَّسُ في المعاهد الدينية والأزهر في الأقسام الابتدائية والثانوية، وهي تدرس في كلية اللغة العربية من كليات الأزهر، وفي كليتي الآداب من جامعتي فؤاد[2]، وفاروق[3]، وهي تدرس

(١) وزارة التربية والتعليم حاليا.

(٢) جامعة القاهرة الآن.

(٣) جامعة الإسكندرية الآن.

في دار العلوم ومدارس المعلمين والمعلمات، ونصيبها من الحصص في هذه المعاهد نصيب الأسد.

عكفت مدارسنا على هذه القواعد التي استنبطها العلماء المتقدمون في النحو والصرف والبلاغة والعَروض والقافية تدرسها وتضبط شوارد العربية على المتعلمين.

وكانت تقسم القواعد على سِنِي الدِّرَاسَة قِسْمةً تراعي فيها الحكمة، فهي قليلة موجزة في الأقسام الابتدائية، وكثيرة مُطَوَّلَة بعض الشيء في الأقسام الثانوية، وهي مطولة كل التطويل ومستوعبة كل الاستيعاب في المدارس العالية.

إني لأعجب كيف تخفق مدارسنا وتخفق الأجيال قبلنا في تعليم هذه اللغة مع هذه العناية وهذا الجهد.

أينجح الحائك في تعليم الحياكة؟ والبَنَّاء في تعليم البِنَاء، والنجَّار في تعليم النِّجَارة، وكلُّ ذي صنعة في الدنيا في تعليم صنعته، ويخيب رجل العلم والتربية في تعليم اللغة العربية؟

أينجح تلاميذ الصُّنَّاع جميعًا إلا قليلاً، ويخيب تلاميذ رجال العلم إلا قليلاً مع أن الأولين يبذلون أقل جهد ومشقة في تعليم الصناع ولا يعللون المسائل ولا يفلسفونها، ولا يعملون شيئًا إلا أن يأخذوا المتعلمين بأعمال كثيرة من صنعتهم ويُمَرِّنُوهُم ويُكَرِّرُوا ذلك، فإذا هم قد حَذَقُوا الصنعة وأجادوها، ومع أن الآخرين

يبذلون كل جهد ومشقة، ويذكرون علل العربية ويفلسفونها، ويُطْلِعون تلاميذهم على دقائقها وخفاياها.

لعل مازحًا يمزح ويقول: إن سِرَّ هذا الإخفاق في هذه العناية، وسر هذا النجاح في هذا الإهمال.

وسنأخذ هذا المزاح جدًا، ونرى أنه يشير إلى الطريق ونضع أن سرَّ نَجَاحِ أولئك في طريقتهم وسِرَّ خَيْبَةِ هَؤلاء في طريقتهم.

سِرُّ نَجَاح أولئك في المِرَانة والتَّكرار حتى يكسبوا الصَّنْعَةَ، وسِرُّ خيبة هؤلاء في الاعتماد على القواعد وترك الحفظ والمرانة والتكرار.

ولو أخذ كل بطريقة الآخر لخاب الناجح، ونجح الخائب.

لو عَلَّمَ الحائك تلميذَه بطريق القواعد فحسب، وظل طول عمره يقول له شُدَّ الخيطَ طُولًا واسلُك فيها الخيوط عَرْضًا ليتكَوَّنَ مِنْهَا سُدى ولُحْمَة ولم يأخذه بأعمال الحياكة الكثيرة وتكرارها والمرانة عليها، لخاب في التعليم ولم يُكْسِبْهُ الحياكة، ولو أخذ عالم العربية بطريق المرانة والتكرار والحفظ، فحَفَّظَ تلاميذه أساليب العربية البليغة، ومُثُلَهَا الرائعة مما يُعتاد في الخطاب، وأخذهم بالنَّسْجِ على مِنْوَالِها في الحديث والكتابة والخطابة لنجح في تعليمه.

ولا عجب أن يكون هذا الصانع العامي أقرب إلى الحقيقة من هذا العالم المُرَبِّي، لأن هذا العامي يرجع إلى الواقع ويَسْتَمْلِي منه وهذا العالم قد أغفل الواقع وقلَّد ما كان عليه الآباء والأجداد.

هذا العامِّي يَعْلم أن قواعد الصَّنْعَةِ لا تُعْطِي الصَّنْعَة، ولا يعطيها إلا تمرين المتعلم، وأخذه بنماذج كثيرة، وتكرير ذلك حتى يتقنها.

وهذا العالم أغفل هذه الحقيقة وظنَّ أن قواعد اللغة تُكْسِبُ اللغة وأن قواعد البلاغة تُكْسِب البلاغة فأخذ يبدأ فيها ويعيد، ويكرر ويكثر من التكرار، فأكسبهم مَلَكَةَ في قواعد اللغة، ولم يُكْسِبْهُمْ ملكة اللغة.

سيهول هذا أقوامًا ويرونه سَخفًا من القول. وقياسًا مع الفارق، ويقولون: إنَّك لم تعمل شيئًا سوى أن قِسْت قياسًا فقلتَ: تعليم وتعليم، ولغةٌ وصنعةٌ، وكما أن الصَّنْعَة لا تُكْسَبُ بالقواعد إنَّما تُكْسَبُ بالعمل والتَّكْرَار كذلك لا تكسب اللغة العربية بالقواعد فحسب إنما تكسب بالعمل والتكرار والحفظ، والقياس لا يفيد اليقين، فطرق العلم مختلفة، فهذا يعلم من طريق، وذاك يعلم من طريق آخر، فالروائح تُعَلَّمُ بالشَّمِّ، والطُّعُومُ تُدرَكُ بالذَّوْقِ، والأَلْوَان تُدْرَك بالبصر، فكما لا يصحُّ أن يُقال: إن الأحمر قد كان طريق العلم به البصر فيجب أن يكون الحامض طريق العلم به البصر كذلك لا يصح القياس الذي ذكرته، فلعل هناك فارقًا بين الصَّنْعَةِ واللغة يجعل أحكامهما مختلفة، فتكون الصنعة تكسب بالتكرار، وتكون

اللغة تكسب بالقواعد، فالقياس لا يجدينا ولا ينفعنا، فلا بد أن تأتي بالبرهان لنُصَدِّقَ به، ولا نَجِدُ عنه مَعْدي.

وإني أَعِدُ القُرَّاءَ أَنْ أَجِيءَ بالبرهان على أن اللغة كسائر الصنعات لا تكتسب بالقواعد، إنما تكسب بالحفظ والتكرار، وأن أدير الحديث على طرق إقناعية شتى حتى أفوز بإقناع أولي الأمر فنحلَّ مشكلة من مشكلاتنا العديدة، لنفرغ لمشكلات أخرى.

٤ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُهَا؟ [١]

في الأمثال العربية – قَتَلَتْ أرضٌ جاهلَها، وقَتَلَ أرضًا عالمُها – ومعنى ذلك أن من سلك أرضًا وكان جاهلاً بطرقها ضلَّ وهلك، ومن سلك أرضًا وكان عالمًا بمسالكها قطعها ونجا منها. وهذا لا يختص بالأرض والمسافر، بل يعمُّ كلَّ من يزاول أمرًا من الأمور، فإن زاوله عالمًا به تغلَّب عليه، وإن زاوله عن جهل خاب فيه.

للعلم سلطانه القاهر، والمتسلِّحُ به مُتَسَلِّحٌ بِسِلَاح الظَّفَرِ [٢]، وللجهل عثراته الموبقة، والمتسلح به متسلح بسلاح مفلول. إن الأمم التي تحل مشاكلها مستضيئة بنور العلم تنجح فيما تحاول، وتتغلب على الصعاب التي تعترضها، والأمم التي لا تستهدي العلم ولا تستشيره في مشكلاتها، لا تكاد تُحَلُّ لها مُشْكِلَة.

وما الفرق بين الأمم المتحضرة والأقوام الهمج، إلا أن الأُولَى آمنت بالعلم وبسيطرته على الوجود، فسعت للكشف والمعرفة، وكلما علمت شيئًا استفادت منه في حياتها، وأن الثانية لا تؤمن هذا الإيمان بالعلم، ولا تعترف له بهذه القدرة، فهي تحل مشاكلها بما يأتيها به عفو الخاطر، فتعثر دائمًا ويلج بها العَثار.

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٣١، ص ٧١٠-٧١٢ الاثنين ٦ رمضان ١٣٦٢هـ / ٦ سبتمبر ١٩٤٣م.

(٢) الظَّفَرُ: الفَوْزُ بالمطلوب.



وخير علاجٍ ما يكون مبنيًا على طبائع الأشياء، فأول ما يُبدأ به معرفة طبيعة الشيء، ثم يُعَالَجُ على حَسب هذه الطبيعة وبنور هذه المعرفة.

وعلى هذا فخير ما يُعمل لحل مشكلة اللغة العربية أن تُعرف طبيعتها ومن أي جنس هي! وما خصائص هذا الجنس! وقد أدركتُ ذلك واقتنعتُ به، ونريد أن نقنع به القراء.

قضيتان إن آمنتم بهما سَلَّمْتُمْ معنا بما نريد: إحداهما: أن اللغة في المتكلمين بها ملكة، ثانيتهما: أن الملكة لا تكتسب إلا بالتَّكْرَار لا بالقواعد فحسب.

إذا استطعتُ أن أُقِيمَ الدليلَ على هاتين القضيتين وصَدَّقتم بهما وجب أن تُصَدِّقُوا أن اللغة لا تكتسب بالقواعد فحسب، بل بالتكرار والحفظ والمحادثة، وسأحاول ذلك فيما يأتي:

اللغة: أصواتٌ يُعَبِّرُ بِهَا كلُّ قوم عن أغراضهم. والتعبيرُ باللغة والفهمُ عنها يقتضي أمرين:

١ - السرعة: فكلما خطر بباله معنى خطر اللفظ الدالُّ على مفرداته، وخطر التركيب الدالُّ عليه في وَحَاء[١]، وكُلَّمَا سَمِعَ جملةً فهم معاني ألفاظها وما يدلُّ عليه التركيب.

٢ - الإجادة: وذلك بأن يكون جاريًا على قوانين هذه اللغة لا يُخْطِئُ فيها، وذلك لا يكفي في أن تكون اللغة معلومة فحسب، بل لا بد أن تكون مَلَكَةً، أي حالة راسخة

---

(١) الوَحَاء: السُّرعة.

في النَّفْسِ، لأنَّها إذا كانت معلومةً علمًا ساذجًا ولم تَصِر مَلَكةً، وأراد المتكلم التعبير عن معنى، فكَّر ورَوَّى في اللفظ الذي يدلُّ على ذلك المعنى، واستعرض الألفاظ المخزونة في حافظته حتى يعثر به، ثم فكَّر فيما يعلمه من تراكيب هذه اللغة ليختار التركيب الذي يفيد ذلك المعنى، ووضع اللفظ في هذا التركيب، وأعطاه الأحوال المناسبة، وذلك يقتضي جهدًا وزمنًا، وربما ينقضي بياض النهار وسواد الليل في تعبيرين أو ثلاثة، ما دامت اللغة علمًا ساذجا. أما إذا عمقت إلى أن صارت ملكة، فإنه إذا أراد التعبير عن معنى انثالت(١) عليه الألفاظ، وانثالت عليه التراكيب دون جهد ومشقة، سريعًا لا يبطئ، مصيبًا لا يخطئ.

وقياس ذلك قياس العامل الذي يَصُفُّ الحروفَ للطَّبْعِ، فإنه إذا كان مبتدئًا واقتصر على العلم بأمكنة الحروف، وأراد بعد هذا العلم الساذج أن يصف حروف كلمة اقتضاه ذلك من التفكير والجهد والزمن ما ليس بالقليل، وربما انقضى اليوم ولم يصف إلا بضع كلمات.

أما إذا تجاوز ذلك إلى أن صار ملكة، فإنك ترى يده تلقط الحروف من هنا ومن هنا، وفكرُه يسبقُ يَدَهُ، ويدُهُ تسبقُ فِكْرَه، حتى يصف في الدقيقة عدة كلمات.

---

(١) انْثَالَ عَلَيْهِ القَوْلُ: تَتَابَعَ وَكَثُرَ فَلَمْ يَدْرِ بِأَيِّهِ يبدأُ.

وهذا شأن المَلَكَاتِ كُلِّها تأتي بالشيء بعجلة وإتقانٍ، وتريك العَجَبَ العُجاب، ترى الأمر الذي له أجزاء كثيرة ويحتاج إلى فكر في هذه الأجزاء يأتي به صاحبُ الملكة دون فكر كأنما هو ساحر يأتي بالخوارق.

رآني صديقٌ أُمِّيٌّ، كان قد بدأ في تعلم القراءة والكتابة أقرأُ فهالته السُّرعة والإصابة، فقال أتظنني أصدقك في أنك تقرأ من هذا الكتاب؟ لا، إنك تقرأ من حفظك. أمجنون أنا حتى أصدقَ أنك تقرأُ ما لا تحفظ؟ أفي هذه السرعة تَعْلَم ما هذا الحرف وما الذي يليه وهكذا وتعلم حالاته أمفتوح أم مضموم أم مكسور أم ساكن، وإنَّ تركيب ذلك يكون كذا؟ وهَبْكَ عرفت هذه الكلمة فكيف تعرف صاحبتها بهذه السرعة، وكيف تجمع من الحروف كلمات ومن الكلمات جملاً، منطلقًا كالسَّهم، مصيبًا كالقضاء؟

وهذا تفكير سليم لو أغفلنا من حسابنا أمر الملكات، ولكن الملكات كائنات من كائنات هذا الوجود، ولها هذا الفعل الغريب، والسحر العجيب. إن النَّجَّار الذي اكتسب ملكة النِّجَارة يأتي بأعمال أشد إتقانًا وأسرع ممن لم يكتسب ملكة النجارة. إنه يدق المسمار بالقَدُومِ مائة مرة، فلا تخيب منها مرة، حتى إن صاحبه ليمسك له

المسمار وهو يدق آمنًا أن تفلت منه ضربة فتصيب يده، ومن لم تكن عنده ملكة النجارة يدق مائة مرة فلا تصيب رأس المسمار منها واحدة.

وإن المرء ليعجب للحائك كيف يسلك الخيوط في الخيوط المشدودة بحركة سريعة وإتقان عجيب لا يدخل الخيط في غير موضعه المراد له، ولا يعقد ولا يقطع. وإن الملكة لتدخل في أغلب أعمالنا فتجعلها أعظم إتقانًا وأسرع، وتجعلنا نأتي من الأعمال ما نحتاج إلى آلاف السنين لنعمله لو لم تكن عندنا هذه الملكات. فبالملكات نكتب ونقرأ ونتكلم ونحسب ونعمل في الصناعات المختلفة من حياكة وخياطة ونجارة وحدادة وطباعة مع الإسراع والإجادة والإحسان

ولولا الملكات لما قمنا بهذه الأعمال وسواها إلا مع الخرق والإبطاء كما أريناك في صَّفَّافِ الحروف الذي لم يكتسب ملكة في صنعته. وإن الزمان لأسرع من أن ينتظرنا، وحاجة الحياة شديدة الإلحاح تتطلب السرعة والإجادة، وإن قوة المرء محدودة لا تفي للعمل بدون ملكة لأن ما كان من الأعمال كذلك يقتضي من المرء جهدًا ومشقة وتفكيرًا تستنفد من قوته ومن دمه وأعصابه ما هو بحاجة إليه.

وإنها لحكمة من الله عظيمة أن يخلقَ فينا الملَكَاتِ فتجعلنا نجيب مطالب الحياة المتعددة بأقل ما يكون من الزمن، وأيسر ما يكون من الجهد، وأسرع ما يكون من العمل، لاسيما حاجة التخاطب. فالله أرحم بعباده من أن يقف التخاطب على هذه الجهود المضنية، والمتاعب الشاقة، والتخاطب عمل دائم، لا تنقضي منه حاجة

حتى تتجدد حاجة، ولا يفرغ المرء من خطاب حتى يستأنف خطابًا آخر، ولا يفرغ من فهم خطاب إلا إلى فهم مخاطبات أخرى وهَلُمَّ جَرًّا.

لقد قلنا الآن ما يمكن قوله في أن اللغات في الناس ملكات يقتدرون بها على الإفهام والفهم، وأظن أن القراء آمنوا بذلك لما أوردته من الأدلة.

وقد بقي أن أقول في القضية الأخرى وهي أن الملكة لا تُكْتَسَبُ بقواعد وإنما تكتسب بالمزاولة والتكرار.

إذا استقريت الملكات ولاحظت كيف تتكون علمت أن الملكات لا تكتسب إلا بالدأب والمرونة وتكرار العمل لا بالقوانين والعلم المجرد. لاحِظْ صناعة صَفِّ حروف الطباعة تجد أن العامل إنما يكتسبها بمزاولة صف الحروف والتقاط الحرف من مكانه المُخَصَّصِ له وتَكْرَار ذلك حتى تكتسب الملكة، وليس يكسبها بالعلم المجرد بأن من أراد صَفَّ كلمة فليأخذ حروفها المتعددة من أماكنها المخصصة لها وهكذا فإذا أتم صفحة وضَعَهَا بين ضاغطتين لمنعها من الشتات والانفراط.

لاحظ صناعة الموسيقى تجدها لا تكتسب بقوانينها الفنِّية فحسب، فلا تكتسب بقول الأستاذ اضرب بالخنصر والبنصر والسبابة وشدِّ الأوتار؛ إنه بذلك لا يكون عازفًا ولا موسيقيًا إنما يكون موسيقيًا إذا زاول هذا الضرب مرارًا وتكرارًا، فأكسب أصابعه المرونة والسرعة والاستجابة لما رسمه في وَحَاء، ثم أكسب نفسه وذوقه بذلك الملكة في الموسيقى وفَنِّهَا الجميل.

ولو مكثت طول عمرك تقول لمتعلم الحياكة شُدَّ الخيط طولًا وأَدْخِل فيها الخيوط عرضًا ذاهبًا يمنة وذاهبًا يسرة لما تعلم بذلك شيئًا من الحياكة؛ إنما يتعلمها بمزاولة هذه الأعمال حتى تكتسب يده الخفة والمرونة.

ولو ردَّدت على متعلم السباحة قولك اركض برجلك اليمنى في الماء، واضرب بذراعيك، لما تعلم بذلك السباحة، ولو سبح متعمدًا على هذه القواعد لأدركه الغرق ولذهب ضحية القواعد والقوانين.

الآن علمنا أن اللغة في المتكلمين ملكة، وعلمنا أن الملكة لا تكتسب بالقواعد، إنما تكتسب بالمرانة والتكرار، فيلزمنا – شئنا أو أبينا – الإقرار بأن اللغة لا تكتسب بالقواعد، إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وهو المطلوب الذي حاولنا إثباته.

أرأيتم أنني كنت مصيبًا حين قلت يجب أن نحل مشاكلنا بالعلم، ويجب أن نعرف طبيعة الشيء وخصائصَه لنبني الحل على هذه الطبيعة؟

أرأيتم كيف كنا نُعَلِّمُ اللغة على غير طبيعتها، أرأيتم كيف كنا نمثل دورًا مخجلاً، فكنا كمن يطرق الحديد وهو بارد فيشقى ثم يشقى والحديد لا ينطرق معه ولا يلين، فيهزأ منه مَنْ يراه، ويضحك مِلأ شِدْقَيْه، ويرى كيف يُشْقِي الجهلُ بطبائع الأشياء صاحبَه، ثم لا يحظى بطائل ولا كبير فائدة.

أكثروا من المطالعة في كتب الأدب. احفظوا الكثير من أشعار العرب. احفظوا ما تقدرون عليه من الخطب. ارووا الأمثال السائرة، والنوادر البارعة، والرسائل

البليغة، والمحاورات العذبة. اخلقوا في بيئتكم المدرسية جوًا عربيًا لا تتحاورون فيه إلا بالعربية، فإن لم يكن ذلك في جميع الدروس ففي دروس اللغة العربية.

لتقوموا بروايات تمثيلية تحفظون أدوارها، وتستظهرون محاوراتها؟ وليمثل كل منكم دوره باللهجة العربية والتوقيع الخطابي.

لا تكتفوا بالعام الدراسي بحفظ مقطوعة أو مقطوعتين، ولا برسالة أو برسالتين، بل فَلُّوا دواوين الأدب واختاروا واحفظوا وأَسْرِفُوا في الحفظ، وطالعوا وأسرفوا في المطالعة، واكتبوا الرسائل، وحَبِّرُوا المقالات على نمط ما تحفظون وغِرار ما تألفون.

بذلك وبذلك وحده تحوزون ملكة اللغة، وتملكون زمام البيان.

٥ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُهَا؟ (١)

ومن غريب الأمر أن الطريق الذي أشرنا بسلوكه، والذي أبان العلمُ أنه لا طريق إلى تعلم اللغات سواه، هو الطريق الذي هدت إليه الفطرةُ وسَلَكَتْهُ في تعليم الوِلْدَانِ لغات آبائهم، وتعليمِ الأجيال لغةَ أممهم، فالفطرة اصطنعت في تعليم اللغات طريق الحفظ والتَّكرار، والمرانة والاعتياد.

ينشأ الطفل فيسمع أبويه وأهليه يتكلمون بمواضعات خاصة فيحفظها وتتكرر على سمعه، ويعتادُهَا لسانه فتصير مَلَكة، وبذلك يَحْذِقُ (٢) لغة قومه.

كأن الفطرةَ قد عَلِمَتْ أنَّ اللغة في الإنسان مَلَكة، والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار فاستعملت ذلك في تعليم أمم الأرض لغاتها، ولم تخطئ مرة واحدة فتلجأ إلى طريق القواعد والقوانين لأنها لا تُكْسِبُ المَلَكَات.

أما نحن فجهلنا ذلك، وأخذنا نُعَلِّم اللغة بالقواعد والقوانين، ولم نلجأ إلى تعليمها بالحفظ والتَّكرار، فكانت الفطرة أقربَ إلى الصَّوَابِ، وأبعدَ عن الخطأ، وأثقبَ فكرًا، وأَسَدَّ نظرًا، وكنا أقربَ إلى الخطأ، وأبعدَ عن الصواب، وأعظمَ خرقًا. وكانت الفطرة تُعَلِّمُ اللغة أثناء المعاملات اليومية من لَعِبٍ وقضاءِ حاجةٍ، وبيع وشراءٍ؛ أما نحن فقد أحطناها بالقوانين التي يَفْنى العمر ولا تَفْنَى؛ فكانت

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٣٢، ص ٧٣٠-٧٣٢ الاثنين ١٣ رمضان ١٣٦٢هـ / ١٣ سبتمبر ١٩٤٣م.

(٢) الحِذْقُ: المهارة في كل عمل.



مقتصدة أعظم الاقتصاد، وكنا مسرفين أشد الإسراف. كانت الفطرة تُعَلِّمُها بالتدرج من الأسهل إلى الأصعب، ومن البسيط إلى المركب مراعية حال المتعلم، فتعطيه ما يناسبه ولا يجافي عقله. أما نحن فلم نراع ذلك بل تعمدنا مضادته، فعلمنا القواعد التي هي فلسفة اللغة، تعلم بعد تعلمها، ومرتبتها في الوجود متأخرة عنها، فلم تظهر إلا بعد ظهور اللغة بأزمان. أقول عَلَّمْنَا القواعد قبل تعلم اللغة وجعلناها وسيلة إلى تعلمها، ولم نراع حال المتعلم فجئنا بأطفال الأقسام الابتدائية والتعليم الأولي، وأخذنا نُعَلِّمُهُمْ القواعد، ونعطيهم من العلم ما ينبو عن أذهانهم؛ فكانت جارية على مقتضى الحكمة، وكنا جارين على غير مقتضاها، أو على مقتضى شيء آخر، وكانت مُيَسِّرَة كل التيسير، وكنا مُعَسِّرين كل التعسير.

وكانت تُعَلِّمُها أثناء سرد الحوادث اليومية، وأخبار الجيران، والأهل والخلان، والمحادثات السَّارَّة والأخبار المُمْتِعَة، وتاريخ الناس ومُلَحِهِم، وفي أثناء الأغاني والمدائح والمراثي. وكنَّا نُعَلِّمُها في قواعدَ جَافَّة خالية من كل ذلك، فكانت تعلمها مع المتعة والمسرة. وكنا نعلمها مع الضيق والحرج. ولما راعَتْ ذلك كُلَّه كانت ناجحة في تعليمها كل النجاح، ولما أهملنا ذلك كله كنا مخفقين كل الإخفاق.

أراني فيما سبق قد أطلت المسافة في الاستدلال، وذكرت في البين أن اللغة ملكة، وأن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار، وكنت أستطيع أن أختصر الطريق، وأقول لننظر إلى الفطرة كيف تعلم اللغة، ولنحاكها فيما تفعل، ولنعمل كما تعمل.

وإذا نظرنا هذا النظر وجدناها تُعلِّم أبناءنا اللغة العامية بالتكرار والمحادثة، وكذلك كانت تُعَلِّم أطفال العرب لغة آبائهم. كانوا يسمعون في طفولتهم من آبائهم ومُخَالطيهم مفردات اللغة وأساليبها، والبليغ المأثور من بيانها، ويتكرر ذلك على أسماعهم، فيحاكونه ويقلدونه ويتكلمون على نهجه، فيكتسبون الملكة في اللغة بالسماع والتكرار والحفظ؛ فإذا الطفل الناشئ ولسانه البادئ جار على هذه اللغة لا يخطئ ولا يَشِذ، ولو حاول جهده أن يحيد عن الصواب لاستعصى ذلك على لسانه، ولَوَجَدَ في ذلك مشقة وعَنَتًا.

إن محاكاة الفطرة في أعمالها داعية إلى النجاح والتوفيق، وكلما كان المرء أقرب إليها كان أقرب إلى الصواب، وأبعد عن الخطأ، ويكون خطؤه بقدر بعده عنها، ومجافاته لقوانينها.

ومن سوء حظ المتعلمين أن ما في المدارس المصرية مما له تعلق بالطريقة الطبيعية قد أهمل ولم يعن به، وهو فيها صورة لا معنى، وشكل لا حقيقة؛ ففي المدارس المصرية حفظ ومطالعة، ولكن التلاميذ يهملون ذلك الثَّمْدَ[1] القليل الذي فرضته عليهم المدارس المصرية من المحفوظات، ولا يحفظون إلا النزر القليل ليقولوه أمام لجنة الامتحان الشفوي. وفيها مطالعة، ولكن يمرُّ العامُ كلُّه وهم لم يطالعوا

(١) الثَّمْدُ الماءُ القليل الذي لا مادَّ له، يظهَرُ في الشتاء ويذهَب في الصَّيف.



إلا صفحات معدودة، وفي الكتب المقررة شواهد على النحو والصرف والبلاغة، ولكن التلاميذ لا يحفظون شاهدًا، ولا يستظهرون مثلاً.

وضعت يدي على خمسة تلاميذ اتفاقا دون اختيار، وكانوا من تلاميذ الثقافة، وكان علم البيان مقررًا عليهم وفيه كثير من الأمثلة والشواهد، وسألتهم واحدًا واحدًا عما حفظوه من شواهد البيان، فلم يكن منهم من يحفظ بيتًا واحدًا، ومن المُحْزِنِ أَنْ المُمْتَحِنِين لا يقيمون وزنًا لذلك، وأن المدرسين لا يقيمون له وزنا أيضًا، فلا هؤلاء يُحَتِّمُونَ عليهم حفظَ الشَّوَاهِد، ولا أولئك يَرَوْنَ المُقَصِّرَ في حِفْظِهَا مُقَصِّرًا في الامتحان.

وهذا إهمال عظيم في الحفظ والتكرار، وهو وإن كان محزنا فإن لهم العذر كل العذر فيه، لأنه ثبت في أذهان الجميع معلمين ومتعلمين أن المُعَوَّلَ عليه إنما هو القاعدة، فإذا فُهِمَت وحُفِظَتْ فما عداها من حفظ الشَّاهِد والمَثَلِ فَضْلٌ، ولا يعلمون أنَّ هذا الفَضْلَ هو الذي إذا عُني بحفظه وتكْرَارِه رسم صورة ذهنية، يكتب الناشئ على مثالها، وينسجُ على مِنْوَالها.

وقد علَّمَتْنِي التَّجْرِبَة أنَّ ما يؤخذ من المحفوظات في المدارس لا يغني التلاميذ شيئًا، فمن الواجب أن يُكَلَّف التلاميذ أن يَعْكُفُوا على بعض دواوين الأدب، فيقرؤوها، أو يَخْتَارُوا منها، ويجمعوا ما يختارون في كراسة ويحفظوه ويفهموا معناه، وتُكُون هذه الكَرَّاسَة بِيَدِ التِّلْمِيذ عند الامتحان شاهدة على جده وعمله، فيقدمها

للمُمْتَحِن فيرى أهي كافية أم غير كافية، ثم يمتحنه فيها مِنْ أَوَّلها ومِنْ وسطها ومن آخِرِهَا ليعلم هل حفظ ما اختار؟

وقد عَلَّمَتْنِي التَّجْرِبَة أيضًا أن ما يؤخذ من المطالعة في العام الدراسي أمام المدرس لا يُغْنِي عن التلاميذ شيئًا، فَمِنَ الواجب أن يُكَلَّفُوا بِكُتُبٍ يُطَالِعُونَهَا أثناء العام الدراسي ويكتبون آراءهم فيها ويلخصون محتوياتها، وكذلك في العُطْلَة، ويكون لهذا وذاك دَخْلٌ في تقدير الدرجات.

كل ما في الوجود يشهد لي أن اللغة إنما تُكْتَسَبُ بالحفظ والتَّكرار وأن القواعد لا تُغْني في اكتساب ملكة اللغة فَتِيلا.

لعلَّك جلست إلى بعض الممثلين واستمعت إلى حديثه فرأيته يتكلم بالعربية لا يكاد يخطئ: وينحدر كالسيل، ويهدر كالرعد.

ولعلك جلست إلى بطل من أبطال اللغة العربية يعرف قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تكاد تَخْفَى عليه منها خافية، فرأيته يتكلم بالعامية لا يكاد يُقيم جملة، ولا يستطيع أن يلين لسانه بالعربية، فعجبت كيف يملك الأول هذا القَدْرَ مِنَ العَرَبِيَّة مع جهله، وكيف يقصر عنه الثاني مع علمه؟

أتدري لم هذا؟ إن الأول زاول اللغة العربية عملاً، وحفظ أدواره في الروايات، وألقاها ومُرِّنَ على ذلك فاكتسب ملكتها، فإن تكلم بعدُ صَدَرَ عن الملكة فأجاد؛ أما الثاني فعلم قواعد النحو والصرف والبلاغة، ولم يزاول اللغة حفظًا وعملاً، فلم يكتسب ملكتها فكان هذا القصور المعيب.

أَجَلَسْتَ مع بعض العامة الذين يكثرون من قراءة الجرائد والروايات فرأيته يقيم لسانه بالعربية أكثر من ذلك النَّحْوي الذي جعل همه في القواعد والقوانين.

ولعلك رأيت بعض من لا يعرفون علم العَرُوض والقافية، ولا يعرفون البحور وأوزانَها، ولا الخبن والطي[1]، إذا سمع بيتًا مكسورًا أدرك عيبه بمجرد سماعه، وإذا سمع بيتًا صحيحًا أدرك صحته كذلك؛ ولعلك رأيت بعض من يعرفون هذه العلوم لا يهتدون لعيب البيت أو صحته إلا إذا أخذوا يتعرفون من أي بحر هو ويجرونه على أوزانه. إنَّ ذلك لأنَّ الأَوَّل تَرَبَّى عنده مقياس ذهني لأوزان الشعر من كثرة قراءته وحفظه، فإذا سمع شعرًا اختلَّ عن هذه المقاييس أدرك ذلك بذوقه، والآخر لم تُرَبَّ عنده هذه المقاييس بل شُغِلَ بقواعد الشِّعْرِ عن حفظه وقراءته والقواعدُ لا تربي الملكة.

إنَّ كثيرًا من علماء العَرُوض لو حاولوا نَظْمَ بيت من الشعر أعجزهم؛ وإن كثيرًا ممن لا يعرفون هذا العلم يأتي لهم الشعر طيعًا منقادًا -والسر ما قلناه وكررناه من أمر الملكة والتَّكْرَار.

---

(١) الخَبن والطَّيّ، أي حذف الثاني الساكن وحذف الرابع الساكن، كحذف سين مستفعلن، وحذف فائه، فيبقى: متعلن، فينقل إلى: فعلتن، ويسمى: مخبولًا. التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٩٧.

سَلُوا كُلَّ كَاتِبٍ يَحُوكُ الوَشْي[(١)]، ويَنْفُثُ السِّحْرَ[(٢)]، وكلَّ شَاعِرٍ يقول الشِّعْرَ، ويَنْظُمُ الدُّرَّ، في مصر وفي بلاد الشرق، بماذا نِلْتُم هذه المنزلة ووصلتم إلى هذه الدرجة من البيان يجيبوك بأنهم لم ينالوا هذه المنزلة إلا بالقراءة الكثيرة، والحفظ الكثير ومزاولة الكتابة والحديث.

إن قوانين الوجود صارمة نافذة أبدية فمن سايرها وعمل على مقتضاها انتفع بها وسار على ضوئها إلى التوفيق، ومن جهلها لحقه الضرر بهذا الجهل، ومن أراد التخلص منها، وحاول أن يخضعها لإرادته عنَّي نفسه فيها لا يطاوعه ولا يجد إليه سبيلاً.

---

(١) الوَشْي: خلط كلام بكلام، والمعنى: يُنَمِّقُ الكَلَامَ بحُسْن وجمال.

(٢) يقصد بالسحر: البيان، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: وإنَّ مِنَ البَيَان لسحرا.

٦ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُهَا؟ [1]

لقد هال بعض علماء العربية ما يرونه من تعلم ولدان الأعراب لغتهم بالطريقة الطبيعية إذ يخرجون يتكلمون بها لا يخطئون ويعربون فلا يلحنون، ووازنوا بين هؤلاء الوِلدان وبين تلاميذهم الذين يُعَلِّمُونَهُم على طريقة القواعد والقوانين، فرأوا البَوْنَ شاسعًا، والفرقَ واضحًا: هذا يُصيب ولا يُخطئ، وهذا يُخْطئ ولا يكاد يصيب، إذا أخذ الأول بالخطأ لم يطاوعه لسانه، وتعذَّر عليه الخطأ كما يتعذَّر على الآخر الصواب. رأوا هذه المشاهدة، ووازنوا هذه الموازنة، فذهبوا إلى أن اللغة العربية للعرب ولأبنائهم بالطبيعة والفطرة، ولغيرهم بالتعليم، وشتان بين ما هو بالطبيعة وما هو بالتعلم والتكلف؛ ولن يبلغ المُتَكَلِّفُ وإن بلغ الغاية شأوَ الطبعي الفطري.

وهذا المذهب غير صحيح وإن كان أصحابه معذورين في الذهاب إليه.

أمَّا العُذْرُ فلأنهم يُفنون أعمارهم في درس اللغة العربية وقوانينها وعللها وأسبابها، يبذلون طاقتهم ثم لا يجدونهم قد بلغوا ما يبلغه ذلك الغلام الذي ينشأ في البادية من إجادة اللغة وامتلاك ناصية الشعر والنثر.

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٣٣، ص ٧٥٠-٧٥١ الاثنين ٢٠ رمضان ١٣٦٢هـ / ٢٠سبتمبر ١٩٤٣م.

وأما أن هذا المذهب خطأ فيدل عليه أنه لو كانت اللغة العربية طبيعية في العرب لما تخلفت، لأن ما بالطبيعة والذات لا يتخلف. ونحن نحكم بالتخلف، فلو أخذت صبيانًا من أبناء العرب وربيتهم في فارس أو الروم لخرجوا يتكلمون الفارسية أو الرومية، ولم يحسنوا شيئًا من العربية؛ وإذن فليست اللغة العربية في العرب وأبنائهم طبيعة وليست فيهم لذاتهم، ولو أخذت صبيانًا من أبناء فارس وربيتهم في بادية العرب لخرجوا يتكلمون العربية ولم يعرفوا شيئًا من لغة فارس والروم. فالصحيح من القول إذن أن اللغة العربية في العرب وغيرهم بالتعليم والاكتساب؛ إلا أن الطريقين مختلفان، فالعرب يتعلمونها بالحفظ والاختلاط وتربية الملكة، والنُّحَاة يتعلمونها بالقواعد والقوانين، ويهملون تربية الملكة، فتكون الطريقة الأولى أجدى وأنفع، وتكون الطريقة الثانية أخيب وأقل جدوى.

ونحن ليس في استطاعتنا أن تكون البيئة العربية فنأتي بالطريقة الفِطْرِيَّة، ولكن في استطاعتنا أن نُقَارِبَ، وأَنْ نُقَلِّدَ الطَّرِيقَةَ الفِطْرِية فنحسن التقليد، ونكثر من الحفظ، ونعمل على تكوين ملكة اللغة بالعادة والدُّرْبَة والتَّكرار.

أَيَجْمُل برجال التعليم أَنْ يخطئوا في تعليم الولدان اللغة العربية فيعلموا بالقواعد ما لا يعلم إلا بالتكرار والحفظ ثم يطالبونهم بكتابة مواضيع تكون جارية على أساليب اللغة، خالية من اللحن والغلط، فإن لم يستجيبوا لهم نسبوا إليهم العجز والتقصير؟

كيف يكتبون كتابة جارية على أساليب العربية ولم تتكون في أذهانهم مقاييس ونماذج عربية يكتبون على مثالها؟ وكيف يتكلمون كلامًا جاريًا على أساليب اللغة ولم تتكون في أذهانهم صور ذهنية تدعوهم للتكلم على منهاجها؟ وكيف نطالبهم بالسُّرْعَةِ والجَوْدَةِ في الكلام وتوفير الزَّمَن والجُهْد وهم لم يكتسبوا مَلَكَة اللغة التي بها يكون ذلك؟

الحقُّ أَنَّكم تستنبطون الماء من الحَجَرِ، وتطلبون في الماء جَذْوَةَ نار. الحقُّ أَنَّكُم تأتون الأمر من غير بابه، وتُلْجِمُون الفَرَسَ من الخَلْفِ. الحقُّ أَنَّكم إِذْ تَلُومُونَ التلاميذ على خيبتهم في اللغة تلومون غيرَ ملومين، وتأخذونهم بذنب أنتم علله، وبجَرِيرَة أنتم أسبابها. ولو أنصفتم للمتم الطريقة التي علمتموهم عليها، أو بالحري لرجعتم باللوم على أنفسكم.

يا قوم جربتم طريقة القواعد في تعلم اللغة العربية ألف مرة، وفي كل مرة تُخْفِقُون، وجَرَّبَتها الأجيال قبلكم كذلك، فجَرِّبُوا مَرَّةً واحدة طريق الحفظ والتكرار، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة، وألا تعدلوا بها غيرها، ولو بذل لكم ما يستطاع للعدول عنها إلى طريقتكم الأولى لم تفعلوا، لأنكم قد وجدتم في هذه الطريقة النجاح حين وجدتم في الأولى الإخفاق.

ونحن نُعَلِّمُ في مدارسنا المصرية اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، كما تعلمها مدارس الجاليات الأجنبية، ولكن الشركات والبنوك والمحلات التجارية التي تصطنع هاتين اللغتين في الكتابة والخطابة تفضل أن تستخدم من تخرَّج في المدارس الأجنبية على أن تستخدم من تخرج في المدارس المصرية، لأن الأول يجيد اللغتين كتابة وحديثًا، والثاني أبانت التجربة أنه لا يجيدهما كأخيه. أتدرون لمَ ذلك؟

إن شؤم طريقة تعليم اللغة بالقواعد قد تُعدى فتنجح، ويعملون هم هذا العمل فيخيبون، ولا تدعوهم أنفسهم لترك أسلوبهم واقتباس أسلوب الناجحين؟ وأعجب من هذا أن ترى هذه المدارسُ أسلوبَنَا الخائب، وتلمس خيبته فلا تنصحنا ولا ترشدنا إلى الطريق القويم في تعليم اللغات.

أيستطيع أحد أن يرى ضالًا يمشي على غير الجَادَّة تَنْكُبُه الأَحْجَار وتُرْدِيه الحُفَرُ، ولا يُقِيمُه على الجَادَّة؟

لست أدري أأرجع باللائمة علينا لعدم استفادتنا منهم، أم أرجع باللائمة عليهم لعدم إرشادنا؟ ولكن يظهر أن بين الجماعات منافسة كما بين الأفراد؛ فلا ترى جماعةٌ جماعةً ضالة وتهديها السبيل. فإن كان ذلك كذلك فقد أغناكم الله عن أجنبي يضن عليكم بالنصيحة. وهاكم النصيحة من رجل من أنفسكم محب لكم يود خيركم،

ويحرص على نفعكم، ويعز عليه أن تضيع جهودكم، وأن تبدد أعماركم. وهو ناصح أمين؛ فهل أنتم منتصحون؟

٧ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُهَا؟ [(١)]

لقد استغللنا ما استنبطناه من علم يتعلق بتعليم اللغة في تعليم اللغة العربية وفي تعليم اللغة الإنكليزية وفي تعليم اللغة الفرنسية وأصبح في استطاعتنا أن نتقي الإخفاق في تعليم اللغة الإنجليزية والفرنسية، وأن نتقي هذا الرسوب الذي يُمنى به تلاميذنا في آخر كل عام دراسي في هاتين اللغتين والذي يبلغ في بعض السنين ٧٨ ٪ ووهبنا للتلاميذ أعمارًا بقدر الأعوام التي وقيناهم فيها الرسوب والتي كانوا يرسبون فيها لولا أخذهم بهذا المنهج الجديد، ونفينا عنهم وعن أهاليهم ذلك الحزن الذي كان يستولي عليهم في آخر كل عام دراسي بهذا الرسوب، وَوَفَّرْنَا على أهاليهم تلك الأموال التي كانوا ينفقونها في إعادة الأعوام التي رسبوا فيها. ومن ذلك يُعلم أن الباب الواحد من العلم إذا استغله أهلوه كان عظيم البركة جليل النفع، وربما كان أجدى على الأمة والأفراد من كثير من الخيرات المادية.

ولسنا نستغل هذا الباب من العلم في تعليم اللغات فحسب بل سنستغله في كثير من مشكلاتنا الأخلاقية والاجتماعية والسياسية فيُرى كيف يعظُم نفعه، وتحلُّ بركته، وكيف يجلب من الخير مالا يدركه الوهم، ولا يحصيه العَدُّ.

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٣٦، ص ٨١٢-٨١٣ الاثنين ١٢ شوال ١٣٦٢هـ / ١١ أكتوبر ١٩٤٣م.

وهذا وأمثاله هو الذي جعلني أومن بالعلم وأُعَظِّمُه وأُجِلُّه، وأرى أنه ما من خير للأفراد والأمم إلا وهو مصدره، وما من شر يصيب الأفراد والأمم إلا وللجهل يد فيه ظهرت أو خفيت.

لعل قائلاً يقول: إنك آمنت بالملكة في كسب اللغة العربية إيمانًا لا تزعزعه الشكوك، وظننت أنها تفيد في كسب العربية كما تفيد في كسب اللغة الإنجليزية والفرنسية، ولم تفطن إلى ما بين اللغة العربية وسائر اللغات من فارق.

إن اللغة العربية كثيرة الأحكام، متشعبة الفروع، فلا تستقل الملكة بضبط هذه الأحكام الكثيرة، ولا يضبطها إلا العلم المفصل بالقواعد والقوانين، وسأضرب مثلاً بـ(لا) العاملة عمل إن، فإنَّ شرط عملها هذا العمل:

١ -أن تكون نافية.

٢ -وأن يكون المنفي الجنس.

٣ -أن يكون نفيه نصاً.

٤ -ألا يدخل عليها جارّ.

٥ -أن يكون اسمها نكرة.

٦ -أن يكون متصلاً بها.

٧ -أن يكون خبرها نكرة - فإن كانت غير نافية رفع ما بعدها، وإن كانت لنفي الوحدة عملت عمل ليس نحو لا رجل قائماً بل رجلان، وإن دخل عليها

الخافض خفض ما بعدها نحو جئت بلا زاد، وإن كان الاسم معرفة أو منفصلاً منها أهملت نحو لا الدار دار ولا الجيران جيران، ونحو ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[1].

هذه أحكام كثيرة ولا يسعف بها إلا معرفة القواعد، فأما الملكة فلا تستطيع الاهتداء إلى هذه التفاصيل.

ونحن نقول لهذا القائل: إنك أسأت الظن إذ ظننت أن الملكة لا تهتدي إلى الفروق الخفية والمداخل المتشعبة، إنها أهدى من القَطَا، وإن الإنسان يطمئن إليها في الهداية إلى ما يشتجر من الأحكام. إنها تهدي المرء إلى الصواب الجاري على القواعد وإن لم يعرف القواعد. انظر إلى الهمزات في علم الرسم كيف يكتب المرء يئد على ياء، ويأمن على ألف، ويؤمن على واو، تهديه ملكته التي اكتسبها بالمرانة والتكرار وإن لم يعلم القاعدة أو لم يستحضرها.

وكذلك الألفات ما يكتب منها ألفًا وما يكتب منها ياء، فيكتب المرء رمى بالياء ودعا بالألف كأن في منطقة اللاشعور فينا عالمًا يعلم أن رمى أصلها الياء فتكتب ياء، ودعا أصلها الواو فتكتب ألفًا، ويكتب أغزى بالياء كأن عالمًا فينا يعلم أنها وإن كان أصلها الواو إلا أنه لما قيل فيها أغزيته كتبت ياء.

---

(١) الصافات: ٤٧.

يعجب المرء كيف تهدي الملكة إلى الحق كأنها تستملي من قواعد مكتوبة، وتمتاز الملكة عن القواعد بالسرعة التي لا يبلغها الرجوع إلى القواعد. ولقد بلغ من اهتداء الملكة أنها تكتب المطَّرِدَ على حسب القاعدة، والشَّاذ على ما قيل من شذوذ، فهي تكتب داود بواو واحدة، وتكتب عمرو بواو بعدها، وتكتب مائة بألف زائدة وإن لم تكن في هجائها.

فإذا كانت هداية الملكة ما ذكرنا في الكتابة فلا عجب أن تهدي مثل هذه الهداية في الكلام.

قال أبو الفتح عثمان بن جِنِّي (ت٣٩٢هـ) في كتابه الخصائص: سألت الشجري يوما فقلت له: يا أبا عبد الله! كيف تقول: ضربت أخاك، فقال: كذاك. فقلت أفتقول ضربت أخوك؟ قال لا أقول أخوك أبدًا. قلت: فكيف تقول ضربني أخوك؟ فقال: كذاك. فقلت ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبدًا؟ فقال: إيش ذا؟ اختلفت جهتا الكلام. نقل أبو الفتح هذه الحكاية في باب عنوانه أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها. واستدل بها على أن العرب كانت تعرف قواعد النحو والصرف، ورأى أن ما قاله الأعرابي نظير قول النحاة: صار المفعول فاعلاً.

وليس ما ذهب إليه ابنُ جِنِّي من الاستنتاج صحيحًا، فهذا العربي لم يكن يرجع إلى القواعد، وإنما كان يرجع إلى ملكته يستشيرها ويستهديها فَنَبَتْ ملكته عن ضربتُ أخوك، ولم تَنب عن ضربني أخوك، كما تنبو ملكة الكاتب عن كتابة الهمزة في يئد بالواو وفي يؤمن بالياء، وإن لم يعرف القاعدة ولم يستشرها.

لعلنا بذلك قد طمأنا الذين يشفقون على اللغة من أن يَكِلُوهَا إلى الملكة، ويرون أن الملكة لا تكفي هادية، لأن مذاهب العربية مختلطة متشعبة قريب بعضها من بعض، لا يُفَرِّقُ بينها إلا العقل الواعي والعلم البصير. وقَدَّمنا من الأدلة ما يدل على أنهم إذا وَكَلُوهَا إلى المَلَكَة فقد وَكَلُوهَا إلى حفيظ أمين.

فليتأمل هؤلاء الذين يَصُدُّون - أو سيصدون - عن طريقتنا فيما نحاول، أننا نحاول كسبًا جديدًا للغة العربية، فبدل أن نقتصر على علم قواعدها تكون لنا ملكة وهيئة راسخة من هيئات نفوسنا وجزءًا من كياننا، وتكون هذه الملكة دعامة لفهم اللغة وتذوقها، ولفهم قواعدها وأصولها دون جهد أو عناء.

ليعلم هؤلاء الذين يحبون النحو والصرف وقواعد البلاغة، أننا نحب النحو والصرف وقواعد البلاغة أكثر منهم حين ندعو إلى تعليم اللغة بأسلوب يُكَوِّنُ ملكة اللغة في نفوس المتعلمين، لأننا نريد أن نجعل قواعد النحو والصرف

والبلاغة فوق العلم بها ملكات لنا مختلطة بلحومنا ودمائنا غائصة في أعماق نفوسنا وداخلة في منطقة اللاشعور فينا.

لقد ظَفَرَت اللغة العامية مع عدم الاحتفال بها والعناية بتعليمها بأن صارت ملكة في النفوس، فغلبت اللغة العربية التي لم تظفر بذلك إلى الآن، وكانت لغة البيت والشارع والمدرسة ولغة الدَّرْس والخِطاب ولغة الأغاني والمسرح والخيالة، وليس للغة العربية حظ في شيء من ذلك إلا أنها لغة الكتابة، والذين يكتبون بها قليل، وهذا القليل لم يكتسب الكتابة من القواعد وتَعَلُّمِهَا، إنما اكتسبها من طريق الحفظ والقراءة وتذوق الكثير من بليغ المنثور والمنظوم ومن مزاولة الكتابة والكلام بها، حتى اكتسب نماذج ذهنية في نفسه ومناطق اللاشعور فيه، يتكلم على مقتضاها، وينسج على منوالها، فلم لا نسعى لرفع اللغة العربية من مجالها الضَّيِّق المحدود إلى المجال الواسع غير المحدود؟

لم نتركها خافتة ضئيلة النفوذ محدودة السلطان بعيدة عن الجماهير وعن كثير من الخاصة لا تعرفهم ولا يعرفونها مقصورة على طبقة قليلة من خاصَّة النَّاس؟

إنما أريد بما أعرض من هذا التوجيه الجديد أن ننقذ اللغة العربية من سيطرة العامية وأن نوسع دائرة نفوذها في شؤون الحياة.

يا سبحان الله! أيعلم كل صانع في الدنيا أنه لا يَحْذِقُ المتعلم صَنْعَتَهُ إلا بالمرانة والتكرار، فلا يكتفوا بإلقاء القواعد للمتعلمين وحفظها بل يأخذوهم بالدربة والمرانة على أعمال صنعتهم الجارية على حدود قواعدها، حتى يحذقوا صناعتهم، ولا يعلم ذلك رجالُ العلم في بلاد الشرق منذ آماد طويلة، فاكتفوا في تعليم اللغة بدراسة قواعدها ورأوا تلك السبيل المثلى في تَعَلُّمِهَا، وأنَّها تفيد الطالب الناشئ، وتجعله قادرًا على التعبير بها في صحة وإتقان! ومن عجب أن إخفاق القرون في هذا السبيل لم يصرفهم عنها ليبحثوا عن منهج أسد، وطريق أقوم.

٨ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُهَا؟ (١)

لا أريد أن أضع منهاجًا مُفَصَّلاً للطريقة الجديدة لتَعَلُّمِ اللغة العربية، وإنما أريد أن أضع قواعد مجملة تُتَّبع عند وضع هذا المنهاج، وهذه مبنية على ما تقدم بحثه.

يجب أن يحذف درس القواعد من التعليم الابتدائي والأَوَّلي لأن القواعد كما قلنا لا تكسب ملكة اللغة وإنما هي فلسفة للغة وضوابط؛ فمن الواجب أن نسعى في أن نُكَوِّن للناشئ ملكة اللغة أولًا.

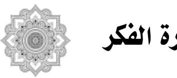
يجب أن نستبدل بالقواعد المطالَعة الكثيرة والحفظ الكثير والمحادثة والمحاورة.

ويجب أن يختار للتلاميذ ما يحفظونه بحيث يكون مناسبًا لأذهانهم لا يعلو عليها، وتؤلف لهم محاورات يحفظونها ويتحاورون بها وتكون مما تكثر في الكلام ويحتاج إليها في الخطاب.

ويجب أن يعلم أن هذه المحفوظات تحفظ لتكون نموذجًا ذهنيًا ليقيس عليه كلامه من حيث لا يدري فيجب أن يعنى بهذه النماذج فتحفظ صحيحةً لا غلط فيها، ومعربة لا لحن فيها، فإنه إذا حفظها ملحونة ارتسم النموذج في ذهنه كذلك، فنسج على منواله، وأنفق مما اكتسب. ويجب على المدرس أن يراعي تلاميذه ويعلم موطن الضعف في لغتهم ويزودهم بما يزيل ضعفهم، ويُقَوِّم لسانهم، فإن رأى منهم أنهم

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٣٧، ص ٨٣١-٨٣٣ الاثنين ١٩ شوال ١٣٦٢هـ / ١٨ أكتوبر ١٩٤٣م.



يجرون الفاعل في أحاديثهم فليعلم أنهم بحاجة إلى أن يحفظوا كثيرًا من المقطوعات فيها أمثلة كثيرة للفاعل، وليأخذهم بحفظها صحيحة غير ملحونة.

أما مرحلة التعليم الثانوي فيجب أن يظل التعليم بالحفظ والمطالعة فيها ويزاد عليه قواعد اللغة، ولكن ليست القواعد التي بين أيدي التلاميذ الآن، بل القواعد التي سأقدم مشروعها، والتي تجمع الصدق والوضوح والسهولة.

يجب ألا تقل العناية بالحفظ والمطالعة في هذه المرحلة بل يجب أن تزيد، ويجب كما قلنا أن تؤلف لهم روايات تمثيلية أخلاقية يحفظون أدوارها ويقومون بتمثيلها.

ويجب كما قلنا أيضًا أن يُكلَّف التلاميذ بنخل دواوين الأدب واختيار أحسن ما يقرؤون، وأن تعطى درجات لمن قام بعمل ذاتي في أيام العطلة الصيفية في الحفظ والمطالعة.

أما مرحلة التعليم العالي فهي كمرحلة التعليم الثانوي في الحفظ والمطالعة والقواعد، ولكن يجب أن يُتَعَمَّق في درس هذه القواعد، وفي بحث أصولها وفي الموازنة بين مذاهب العلماء فيها.

فأما خلق جو عربي في المدرسة أو في دروس اللغة العربية خاصة لا يتكلم الطلاب والمدرسون فيه إلا باللغة العربية، وتكليف التلاميذ بكتابة موضوعات ينشئونها فقد سبقت الإشارة إليها فيجب أن تدخل في البرنامج الجديد لتعليم اللغة.

وينبغي أن يعلم أن تكليف التلاميذ بموضوعات ينشئونها ليس لغوًا في طريقتنا كما هو لغو في الطريقة الأولى، لأن الطريقة الأولى كانت تكلفهم الإنشاء وليس عندهم معاني يكتبونها لقلة ما يطالعون وما يحفظون، وليست عندهم ملكة اللغة العربية – أما في الطريقة الحديثة فهي تكلفهم الإنشاء وعندهم معان خلقتها والحفظ والاطلاع على آراء العلماء، وهي تكلفهم وقد رسخت في نفوسهم ملكة اللغة بالحفظ والمطالعة والحديث، وسيسر ذلك المعلمين ويجعل الدرس لذيذًا لأنهم إذ يصححون كراسات التلاميذ في الإنشاء لا يطلعون على لغو من القول يقضي العين ويغثي النفس كما كان في الماضي؛ بل يطلعون على أقوال لها حرمتها ومكانتها إذ هي بنت المطالعة الكثيرة والدرس الطويل.

ذلك أسلوب نراه كفيلاً بكل ما نريد من رقي لغوي وبياني لأنه كفيل بتكوين الملكات في اللغة والبيان، وبهذه الملكات تفهم اللغة وتتذوق أولًا، وتفهم أصولها وقواعدها ثانيًا، ونراه كفيلاً أيضًا بإمتاع المتعلم وإلذاذه، وكفيلاً بفائدته وخيره.

فأما إمتاع التعليم بهذه الطريقة فإنها تعلم اللغة بآداب السالفين، وحِكَمِ الماضين، وبالأشعار البليغة، والخُطَبِ الفَصِيحَة، وتواريخ الأمم، وفي كل ذلك غذاء للعقل، وإرضاء للقلب، وإمتاع للعاطفة؛ والمرء يُسَرُّ ويأنس للخبر الغريب، والنادرة الطريفة، والحكمة النافعة، والمثل السائر، والجواب المُسْكِتِ، والقول السديد، والرأي الحميد، وكل هذا جعل في الطريقة الحديثة مادة لتعليم اللغة، يطالع فيه،



ويحفظ منه، والقول إن كان بليغًا، والمعاني إذا كانت رائعة أنست بها النفوس، وهشت لها، ووجدت فيها المتعة واللذة.

وأما الفائدة فأي فائدة أعظم من التأدب بآداب العلماء، والاطلاع على حكمة الحكماء، والانتفاع بتجارب ذوي التجارب، وهذا كله جعل في طريق تعليم اللغة، والكلمة الطيبة إذا نزلت بالنفس وعلقت بها واستوثقت منها، وأيقنت بها، فإنها تكون هادية ومرشدة، ينتفع بها المرء في غُدُوِّه ورواحه، وصبحه ومسائه، كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[(١)]، والمرء ما عاش بحاجة إلى الأدب الذي به تعمر القلوب، وتزكو النفوس. قال عبد الله بن المقفع: (ولسنا إلى ما يُمسك أرماقنا[(٢)] من المأكل والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول. وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل. ولسنا بالكَدِّ في طلب المتاع الذي يُلْتَمَسُ به دفع الضرر والغلبة بأحق منا بالكَدِّ في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا)[(٣)] وإن المرء قد

---

(١) إبراهيم: ٢٤ -٢٥

(٢) الأرماق: جمع رمق وهو بقية الحياة.

(٣) الآثار الكاملة، عبد الله بن المقفع، حققها وشرحها: د. عمر الطبَّاع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم

يفيده الحرف من الأدب ويكون أردَّ عليه من جيش عرمرم. قال معاوية: لقد رأيتني وأنا أهم بالفرار يوم صِفِّين وما يمنعني إلا قول الشاعر:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي[(١)]

أين من هذا كله القواعد وليس فيها متعة ولا لذة، فليست عاطفية حتى تثير العاطفة والوجدان، وليست عقلية حتى تكون فيها لذة المعقولات لمن اعتاد المعقولات، إنما اللغة مواضعة واصطلاح، وقواعد اللغة شرح وتفسير لهذا الاصطلاح، وليس فيها إلا بعض علل عقلية، وهذا مغمور وسط علل مدخولة، وأسباب غير معقولة.

وكما أنها لا تثير لذة، ولا تبعث متعة، كذلك لا تحصل منها على فائدة. وما الفائدة منها وهي ليست حكمة ولا مثلاً ولا شرحا لقانون من قوانين الحياة، وهي تبعد عن الحياة وتجاربها وعن محيطها الواسع، وبحرها الجياش المضطرب، وأن الذي يقرأ كتابًا في القواعد كالأشموني أو المطول، يخرج منه ولم يستفد خبرة بالحياة، بخلاف من يقرأ كتابًا كالكامل لأبي العباس المبرّد، أو البيان والتبيين لأبي عثمان

للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص ١٠٦.

(١) البيت منسوب لابن الإطنابة، عامر بن عمرو بن زيد مناة بن عمرو، من قبيلة الخزرج، أمه الإطنابة بنت شهاب بن زِبّان من بني القين بن جَسْر. شاعر جاهلي قديم، الأمالي، أبو علي القالي، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م، (١/ ٢٥٨).

عمرو بن بحر الجاحظ؛ فإنه يخرج منه بحكمة الدهور وعظة الأيام، ومهما فاته فلن تفوته حكمة أو تجربة، هي عصارة عصور، وخلاصة دهور.

وما أظن الأمم الإسلامية مُنِيَت بما منيت به، بعد العز والمنعة والقوة والصولة إلا من شغل علمائها وخاصتها طول عمرهم بكتب القواعد التي لا تكشف إلا عن طرف يسير جدًا من هذا الكون الواسع، أو بالحري لا تكشف عن شيء إلا عن مواضعة واصطلاح وتفسير لهذه المواضعة وهذا الاصطلاح، ومن انصرافهم عن هذا الكون الفسيح وعلومه، وعلل حوادثه وأسبابها، وشؤون النفوس وخواطرها، وتزكيتها وتدسيتها.

ما هذا الحظ العاثر! قد جمع لنا المتقدمون أبواب الحكمة وتجارب الحياة، وكانوا أحرص الناس على حفظها حتى يَنْتَفِعَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُم، وكان حريًا بنا أن نغترف من هذه الموارد العذبة، ونستقي من هذا السلسبيل الصافي، فكان نصيب النافع منا الإعراض والنفور، ونصيب غيره الإقبال عليه، والكلف به.

أي شيء أنفع وأجدى من حكم أفادها أصحابها بعد التجارب المُرَّة، والعَثَار والخيبة، والتَّرَدِّي والسقوط، وبعد النَّيْلِ تارة، والإخفاق تارات، وبعد أن ذاقوا حُلْوَ الحياة ومُرَّها، وصفوها وشوبها، فأفادتهم التجارب علمًا، فجمعوا هذا العلم في جُمَلٍ قصيرة، وحروف قليلة، لتكون أقل كلفة، وأيسر مؤونة، يسهل حفظها وادِّخارها إلى وقت الحاجة لينتفع بها.

وهنا شيء أرى من الواجب عليَّ أن أُنَبِّهَ عليه، وهو أن اسم الأدب أطلق كذبًا وزورًا على تلك الأبيات من النسيب والغزل المذكر والمؤنث، وعلى وصف الخمر ومجالس الشراب، وعلى أبيات البطالة والعجز، وعلى أخبار الفساق والمجان، فيجب أن يتحرز من هذه ولا تدخل في مطالعات التلاميذ ومحفوظاتهم لأن تأثيرها على الأخلاق شديد، وإفسادها للمروءات عظيم، فكم من مستقيم أخرجه عكوفه على هذا الأدب الزائف عن استقامته، وكم مِنْ جَادٍ هَمُّه المعالي وعظائم الأمور صَيَّره هذا الأدب الزائف مُسِفًا ضئيل الأمل. ولا يصح أن ينكر هذا كله؛ فإن تأثير القول في النفوس عظيم، ونقضه للأسباب المتينة قوي. ويجب إذ آمنا بتأثير الكلمة الصالحة في النفوس أن نؤمن بتأثير الكلمة السيئة فيها أيضًا؛ فإن المعاني إذا كسيت الألفاظ الرائعة، والنَّظْمَ البَارِع كانت حبيبة إلى كل نفس، وكانت مداخلها إلى النفوس خفية، ونقضها للطبائع المحكمة عظيما. ولأمر ما حذر النبي ﷺ من كل منافق جهول القلب عليم اللسان.

وإذا دار الأمر بين تعليم اللغة من سبيل هذا الأدب الزائف وجهلها -اخترنا جهلها، لأنه خير لنا أن نعرب في أفعالنا ونلحن في أقوالنا من أن نعرب في أقوالنا ونلحن في أفعالنا.



الآن أشعر بما يشعر به من كان يحمل حملاً ثقيلاً فمشى به أميالًا في صحراء محرقة حتى ارفَضَّ عَرَقًا[(١)]، وتقطَّعَت أنفاسه تعبًا، ثم بلغ به مستراحًا ومقيلاً، فرمى بحمله وجلس بجانبه، فشعر بالراحة من ذلك الحمل الذي بهظه وأنقض ظهره.

أشعر بذلك لأنه كان حملاً ثقيلاً تلك الأمانة التي أخذ الله على العلماء ألا يدَّخِرُوا نُصْحًا ولا يجدوا سبيلاً لرفع أممهم إلا أرشدوهم إليه، ونبهوهم عليه، وقد كان يحزنني أن تُعَلِّمَنِي التجارب ما علمتني من قيمة القواعد في تعليم اللغة، وضرر الشغل بها عن علوم الحياة ثم أكتمه ولا أبوح به. والآن ولله الحمد قد خرجت من عهدة الكتمان، فبحت به، ولم أكتف بالبوح حتى أعلنته، ولم أكتف بالإعلان حتى دللت عليه. ولم أكتف بالتدليل حتى صرفت القول على وجوه شتى من التزيين والتقبيح والترغيب والتحذير. الآن وضعت الحمل وحمله آخرون.

---

(١) ارفَضَّ عَرَقًا: جرى عَرَقُه وسَالَ.

٩ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعَلِّمُهَا؟ [(١)]

لقد فاتحت كثيرًا من رجال التربية والتعليم في مصر ممن يهتمون باللغة العربية في هذا الأسلوب الجديد في تعليم اللغة، فكانوا جميعًا يلقونني بشبهة واحدة قد اتفق الجميع عليها، وكأنهم تواطئوا على إيرادها، أوردوها من لا أحصي ممن يهتمون بشئون التعليم في مصر، ومن قبل ذلك أوردتها فيما بيني وبين نفسي.

وهذا دليل على قوتها، وقرب تناولها؛ فإن استطعت حلها فقد ذللت عَقَبَة كأداء في سبيل الإصلاح المنشود.

يقولون جميعًا: مما يعوق ملكة تكوين اللغة العربية عندنا أن اللغة العامية سبقت إلينا فتكوَّنت ملكتها فينا، واللغة العامية تحريفٌ للغة العربية وخطأٌ فيها، فإذا تكونت فينا ملكة اللغة العامية فهذا معناه تكُّون ملكة الخطأ في اللغة العربية، وإذا سبق الخطأ وصار ملكة ثبت ورسخ، فإذا أريد بعد ذلك إصلاحه وصيرورة هذا الإصلاح ملكة تعذَّرَ واستحال.

ومما يزيد الأمر تَعَذُّرًا واستحالة أننا لا نزال نسمع مِنْ والدينا وإخواننا وأهلينا ومخالطينا وأصدقائنا اللغة العامية، يتكلمون بها ونكلمهم، ونتفاهم بها ونتساجل، فهي لغة البيت ولغة الشارع ولغة المدرسة ولغة الأغاني ولغة التمثيل ولغة الخيالة

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٣٨، ص ٨٥٠-٨٥٢ الاثنين ٢٦ شوال ١٣٦٢هـ / ٢٥ أكتوبر ١٩٤٣م.

ولغة بعض المجلات، أينما توجهنا وجدناها، وحيثما أصغينا سمعناها، وهذا معناه أن الخطأ واللحن في اللغة العربية سبق فصار ملكة، وأنه لا يزال يتردد على أسماعنا ونردده فيزداد رسوخًا، حتى يختلط بلحمنا ودمنا، فمهما فعلنا للتخلص من ملكة اللحن والخطأ لم يفدنا، وكلما هربنا من هذه الملكة لحقتنا؛ فأين النجاء وأين المهرب؟ وهي قد سبقت فاستحكمت فينا، ثم أخذت تلاحقنا وتسابقنا وتتغلب علينا وتقهرنا. ولعل هذا هو الذي دعا العلماء الأقدمين إلى أن ييأسوا من تكوين ملكة العربية الصحيحة، فاكتفوا بالقواعد والقوانين التي تضبط أمرها مع التنبيه والمعالجة، ولم يَسْمُوا إلى ملكتها التي تعطي التعبير بها دون قصد ولا تنبه ولا تكلُّف ولا علاج.

وإني أقول في جواب هذه الشبهة: أن ذلك يُبَيِّن عُسْرَ اكتساب ملكة العربية لا تَعَذُّرَه، والمشقةَ لا الاستحالة؛ فإنه لو استحال تكوين ملكة العربية مع سبق ملكة العامية لما وقع لأحد. وكيف وقد وقع للكثير من رجال اللغة والأدب؟ حقًا إن هذا دليل على التعسر لا على التعذر بدليل أننا نجد خلافه من نفوسنا وخلطائنا؛ فكثير منا قد سبقت إليه في صباه ملكة العامية، ثم عنى بكسب ملكة اللغة العربية بالحفظ والمرانة فاكتسبها، ولم تمنعه الملكة السابقة أن يكتسب الملكة اللاحقة؛ بل إني لأزعم أنه لا يكتب الكتاب، ولا يشعر الشعراء، ولا يخطب الخطباء باللغة

العربية إلا بفضل الملكة التي اكتسبوها من القراءة والحفظ والاعتياد والتي قاومت ملكات العامية في نفوسهم فغلبتها وظهرت عليها لا بفضل القواعد وحدها.

لقد قام الدليل على أن لا سبيل إلى اكتساب اللغة إلا هذا السبيل وهو أن اللغة ملكة والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار، فإذا تعين هذا السبيل بالدليل فلا معنى لتصيد الشُّبَه من هنا ومن هنا للهروب مما أوجبه الدليل وعَيَّنته الحُجَّة. وهل توقفت المدارس الأجنبية عن تعليم تلاميذها لغة غير لغتهم بطريق الحفظ والحديث بِحُجَّة أن لغتهم صارت ملكة فيهم فلا يمكن أن يكتسبوا ملكة لغة أخرى. والواقع أن من الناس من يجيد لغات كثيرة وكلها ملكات فيه، وقد اكتسبها بطريق المحادثة والحفظ، ولم تزاحم ملكةُ لغةٍ ملكةَ لُغَةٍ أخرى عنده، وإن كانت ملكة بعض اللغات عنده أقوى من بعض فذلك لا يعنينا لأننا في أصل تحصيل الملكة لا في جودتها، والمفاضلة بين الملكات بعضها وبعض. إن علماء الأخلاق قد جزموا بإمكان تغيير الأخلاق وقالوا: إنه يمكن أن يكون الجبان شجاعًا، والبخيل كريمًا والشَّرِه عفيفًا، والأخلاق ملكات والخلق الذميم تحريف للخلق الفاضل، ورأوا أن التكرار كفيل بالتغيير، وما على الجبان إلا أن يتشجع ويعمل أعمال الشجعان، وما على البخيل إلا أن يَتَسَخَّى ويعملَ أعمالَ الأسخياء، ليكتسب الخلق الجديد، ويتخلى عن الخلق القديم.

فإذا كانوا قد جزموا بذلك في الأخلاق غير متحفظين ولا مترددين فما أحرانا أن نجزم به في اللغة ولا نتحفظ ولا نتردد.

وليس ما يتصيدونه من شُبَهٍ مما يشفع لنا أن نترك الطريق الطبيعي لتعليم اللغة ونسلك طريقًا غير طبيعي في تعليمها.

على أننا قد أخذنا بالحيطة والحزم، فلم نمنع القواعد إلا في الأقسام الأولية والابتدائية فجعلنا التعليم فيها بالحفظ والمحادثة فقط، أما في مرحلة التعليم الثانوي وفي مرحلة التعليم العالي فقد جمعنا بين الطريقين، طريق القواعد وطريق الحفظ، فإن لم يزدها قوة فليس يزيدها ضعفًا، وهذا ريثما يبين للناس بالتجربة صلاحية الطريقة الجديدة لتعليم اللغة، فإذا بان صلاحها رفعنا القواعد إلا من التعليم العالي ومن المعاهد التي تعد مُعَلِّمَ اللغة العربية.

إنَّ ما يقال من الصِّعاب التي تعترض من يريد تكوين ملكة اللغة العربية، والتي تدفع بعض الناس إلى أن يظنوا أنها تجعل اكتساب هذه الملكة متعذرًا ومحالًا إنما هو منبهة على مواضع العقاب في تحصيلها، وليس من المحال التغلب على شتى هذه العِقَاب والصِّعَاب. فلنتلاف منها ما يمكن ملافاته، ولنبق للزمن ما عليه أن يُتِمَّه، وما دمنا نبذل الجهد المضني والزمن الكثير الذي هو رأس مالنا في تَعَلُّمِ العربية فعلينا أن نزيل من معوقات هذه الملكة كل ما تمكن إزالته، وإلا كنا نهدم باليسار ما نُشَيِّدُه باليمين.

علينا أن نجعل أغانينا باللغة العربية ولا نسمح للغة العامية أن تكون لغة الغناء ما دام ذلك يعوق ملكة العربية ونحن نبذل الجهد والمال في اكتسابها، ولا يصح أن نتناقض في أفعالنا.

علينا أن نجعل روايات المسرح باللغة العربية ولا نسمح للعامية أن تحتل المسرح لأن ذلك يُعَوِّقُ ملكة العربية فينا، ونحن قد ملأنا برامج تعليمنا باللغة العربية لنتعلمها، ولا نحب أن نكون كذلك الممثل الذي ظهر على المسرح وبيده اليمنى أوراق، وبيده اليسرى أوراق، فقيل له ما بيدك اليمنى؟ فقال قوانين. قيل له وما بيدك اليسرى؟ قال نسخ هذه القوانين.

علينا أن نُحَتِّمَ أن تكون لغة المجلات هي اللغة العربية ولا نسمح للعامية أن تحتل مكانًا فيها للعلة نفسها، وهكذا الشأن في الإذاعة وفي الصحافة.

وإذا كنا إذا بنينا بناء وشيدناه، وبذلنا المال في تشييده لا نسمح لغيرنا أن يهدمه، فحري بنا ونحن نبني ملكة اللغة العربية فينا، وننفق في سبيلها كرائم أموالنا، وزهرة شبابنا، وأعزَّ جهودنا ألا نسمح للمسارح ودور التمثيل والمغنِّين والمغنيَّات أن يهدموا ما نبنيه.

وعلينا أن نُبَكِّرَ في تلقين التلاميذ نماذج من المحفوظات العربية، وقد سهَّلت مدارس رياض الأطفال علينا هذه المهمة، فالتلاميذ يذهبون إليها في سن مبكرة، فعلينا نحن أن نبتهل هذه الفرصة فنعطيهم نماذج يحفظونها تناسب عقولهم، ولا تنبو عن أفهامهم، ما دامت الملكة السابقة لها القوة والسيطرة والغلبة.

لقد غالى بعضهم وزعم أن تكوين ملكة عربية أسهل على الإنجليزي والفرنسي منها على من سبقت له ملكة العامية، وذلك مبالغة في اليأس والقنوط.

إن العامية لا يمكن أن تقف في طريق تكوين ملكة العربية، بل إني أرى أنها عون على اللغة العربية، فمن السهل على من عرف العامية أن يتعلم اللغة العربية وتكون عونا له عليها، وتطيعه ملكة اللغة العربية بأيسر وأسهل مما تطيع من لا يعرفها ولا يتكلم بها كالإنجليزي والفرنسي، لأن معرفة العامية تعلم الكثير من العربية فتعلم كثيرًا من مفرداتها كالأرض والسماء والسحاب والماء والثرى والهواء، تعلم كثيرًا من أساليبها وتراكيبها، والنقص الذي دخل على ملكاته من تحريف العامية شيء سهل يمكن ملافاته إذا سار في الطريق المستقيم عكس من لم يعرف شيئًا من العامية، فبدأ في تعلم العربية من جديد كلمة كلمة، وحرفا حرفا، وأسلوبًا أسلوبا، ونَظْمًا نَظْمًا.

قد بلغنا في نصرة الأسلوب الجديد في تعليم اللغة العربية المبلغ الذي وسعه الجهد، وإن كان قليلا، وبلغه الوسع وإن كان ضئيلاً، ولم نترك حجة تفيد نصرته إلا تتبعناها، ولا شبهة تدل على خلافة إلا أفسدناها. ولم يبق للمهيمنين على تعليم اللغة العربية في وزارة المعارف وفي الجامعة وفي الأزهر عذرٌ في أن لا يصطنعوا هذا الأسلوب؛ فقد وضح الحق، وانخذل الباطل، ولم يبق عذرٌ لمعتذر.

١٠ -اللغة العربية لماذا أخفقنا في تعليمها؟ - كيف نُعلِّمُها؟ (١)

لقد كان يكفيني ما قدمته من الأدلة على فساد الطريقة الرسمية في تعليم اللغة العربية، وعلى صحة الطريقة التي بَيَّنْتُهَا وأفضت الكلام فيها، ولكني أعلم أن المألوف شديدٌ انتزاعُه، وأن النفوس تكره العدول عما وجدت عليه الآباء والأجداد إلى شيء لم يكونوا عليه، وربما خُيِّل إليها أن السلف الماضين لم يؤثروا هذه الطريقة على ما عداها إلا لفضلها وكفايتها، وأن العدول عنها إلى غيرها عدول عن الحق النافع إلى الباطل الضار، ولو كان في هذا الجديد خير لسبق إليه الأولون.

وإني أريد أن أبين أن الطريقة التي ندعو إليها هي طريقة العصور الزاهرة لسَلَفِنَا الماضين، وأنها لم تتغير إلى الطريقة التي نشكو منها إلا في عصور الضعف والتأخر العلمي، وأريد أن أذكر من أقوال السلف ما يشهد بتفضيل هذه الطريقة على طريقة القواعد والقوانين لأونس القلوب بأن ما أدعو إليه ليس شيئًا أنا ابتدعته وإنما هو شيء كان يعلمه رجال العلم والتربية من آبائنا السابقين.

وأريد بعد ذلك أن أذكر بعض أقوال رجال التربية من علماء الغرب في هذا الموضوع لأبين أن العقل والدليل ورجال العلم في القديم، ورجال التربية في

---

(١) مجلة الرسالة السنة الحادية عشر، عدد ٥٤٠، ص ٨٩٤-٨٩٦ الاثنين ١٠ ذو القعدة ١٣٦٢هـ / ٨ نوفمبر ١٩٤٣م.

الحديث وعلماء الشرق والغرب على أن اللغات إنما تكتسب بالتكرار والحفظ والتعهد والدربة وأن القواعد والقوانين لا تكسب ملكة اللغة.

أول كتاب وضع في نحو اللغة العربية وعكفت عليه الأجيال هو الكتاب لسيبويه(١)، وهو كتاب مليء بالشواهد من كلام العرب، شعرها ونثرها، وكلام وكلام الرسول ﷺ، وأبياته تزيد على الألف، وكان الدَّارس له يحفظ أبياته وشواهده ويدرس قواعده، فيكتسب ملكة اللغة بما يحفظ من المنظوم والمنثور، ويعلم قوانينها بما فيه من القواعد، ولم يكن النَّحْوي هو من عرف القواعد فحسب، بل كان النَّحْوي هو من عرف القواعد، وحَفِظَ أَشْعَارَ العرب، وعَلِمَ تخريجها، وحفظ أيامهم وخُطَبَهم وحِكَمَهُم ومساجلاتهم؛ ولذلك كان اسم النَّحْوي مرادفا لاسم الأديب، وألَّف العلماء كتبًا في تراجِم النحويين سميت باسم طبقات الأدباء، كما فعل ابن الأنباري في كتابه (نزهة الألِبَّاء في طبقات الأُدَبَاء)، وإذا قرأنا ترجمة من تراجم أساتذة النحو في عصوره الأولى كالمُبَرِّد(٢)،

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، ولد بقرية من قرى شيراز، يُقَال لَهَا الْبَيْضَاء. وتلقى العربية على الخليل بن أحمد الفراهيدي، مات بفارس في أيام الرشيد، سنة ١٨٠هـ. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (١٤/ ٩٩).

(٢) أَبُو الْعَبَّاس الْمُبَرِّد مُحَمَّد بن يزِيد بن عبد الْأَكْبَر الأَزْدي، ولد بالبصرة، وصَنَّفَ كتاب " الكامل " في

والكِسائي[(١)]، والفَرَّاء[(٢)]، وابن جِنِّي[(٣)] بَهَرنا ما نرى من حفظهم وإتقانهم واطلاعهم على شعر العرب والمُحَدِّثين واستيعابهم لغة العرب، والملكة التي جاءتهم من مزاولة هذه اللغة؛ فما من غريب إلا وهم به محيطون، وما من شاهد أو مَثَل إلا وهم به عالمون، وما من أسلوب إلا وهم عارفون بمعناه قادرون على تخريجه.

ولم يكن الأمر كذلك في النحو فقط بل كان أيضًا في البلاغة، فأول كتاب أُلِّفَ في البيان العربي وصل إلينا هو البيان والتبيين لأبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وهو كتاب حوى من الأشعار والخطب والأحاديث والأمثال والمساجلات ما هو كفيل بتربية ملكة البيان، والكتب التي وضعت بعده كالبديع

الأدب، مات سنة ٢٨٦هـ. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (٤/ ٦٠٣)، سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١٠ / ٥٤٦).

(١) هو علي بن حمزة بن عبد الله الكوفي المُلَقَّبُ: بِالكِسَائِيِّ، لَهُ عِدَّةُ تَصَانِيْفٍ، مِنْهَا: "مَعَانِي القرآن"، وكتاب في القراءات، وَكِتَابُ "النَّوَادِرِ الكَبِيْرِ"، وَمُخْتَصَرٌ فِي النَّحْوِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، مَاتَ بِالرَّيِّ، بِقَرْيَة أَرَنْبُوية (تقع بدولة إيران)، سَنَةَ١٨٩هـ. سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٧/ ٥٥٤).

(٢) أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى بنُ زياد بن عبد الله بنِ مَنْظُوْرٍ الأَسَدِيُّ، له كِتَابَ مَعَانِي القُرْآنِ، عُرِفَ بِالفَرَّاءِ؛ لأنه كان يفري الكلام، مات بطريق الحج سنة ٢٠٧هـ. سير أعلام النبلاء، (٨/ ٢٩١).

(٣) هو أبو الفتح عثمان بن جني النَّحْوي، ولد بالموصل، له مصنفات كالخصائص، والمنصف، وسر الصناعة، وصنف كتاباً في شرح القوافي، وفي العروض، وفي المذكر والمؤنث، توفي سنة ٣٩٢هـ، نزهة الألِبَّاء في طبقات الأُدَبَاء، كمال الدين الأنباري، (١/ ٢٤٥).

لابن المعتز[(١)]، ونقد الشعر لأبي الفرج قدامة ابن جعفر[(٢)]، والصناعتين لأبي الهلال العسكري[(٣)]، كلها كتب مُلِئت بالشواهد والأمثلة، ومُتَنَوِّعِ الأساليب، وقد عنوا بذلك ولزموه وحافظوا عليه ثقة منهم بأن كسب ملكة البيان إنما تكون بحفظ الأساليب التي استكملت شروط البلاغة، وابن الأثير[(٤)] في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حذَّرَ دارسَ كتابِه أن يقتصر على القواعد التي في الكتاب، وأوجب عليه أن يكتسب الذوق الأدبي بالاطلاع على بيان العرب من منظوم ومنثور والإكثار من حفظه وممارسة أساليبه؛ قال في مقدمة كتابه: ومع هذا فإني أتيت بظاهر هذا العلم دون خافي، وحُمْتُ حول حماه ولم أقع فيه، إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكَلِمِ التي بها تُنْظَمُ العقود وتُرَصَّعُ، وتُخْلَبُ العقول فتُخْدَع، وذلك شيء تحيل عليه الخواطر، لا تنطق به الدَّفاتر. واعلم أيُّها الناظر في كتابي أن

---

(١) ولد في بغداد عام ٢٤٧هـ، وتوفي ٢٩٦هـ.

(٢) كان نصرانيًا وأسلم على يد المكتفي بالله، وكان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليه في علم المنطق، توفي سنة ٣٣٧هـ، انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، (٥ / ٢٢٣٥)، والوافي بالوفيات، الصفدي، (٢٤ / ١٥٣).

(٣) هو الحَسَن بْن عَبْد الله بْن سهل بْن سَعِيد بْن يحيى بْن مِهْران، ولد بعسكر مُكْرَم (تقع بين البصرة وإيران)، وبها نشأ، توفي سنة ٤١١هـ، تاريخ الإسلام، الذهبي، (٩ / ٣٣٨).

(٤) هو أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، نسبة إلى جزيرة ابن عمر بلدة فوق الموصل بالعراق، ولد سنة ولد سنة ٥٥٨ وتوفى سنة ٦٣٧ هـ. سير أعلام النبلاء، الذهبي، ترجمة ٥٦٦٣.

مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذًا، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا، فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعًا، وأهدى بصرًا وسمعًا، وهما يريانك الخبر عيانًا، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا، وكل جارحة منك قلبًا ولسانًا، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريقة إلا كمن طبع سيفًا ووضعه في يمينك لتقاتل به وليس عليه أن يخلق لك قلبًا؛ فإن حمل النصال، غير مباشرة القتال.

وإِنَّمَا يَبْلُغُ الإِنْسَانُ غايتَه ما كل ماشيةٍ بالرَّحْلِ شَمْلاَلُ (١)

وكان كلما أفرط في درس القواعد والتعمق فيها ظهرت آراء تدعو إلى القصد في درسها والاقتصار منها على ما أقام الألسن. قال ابن السكيت: " خذ من الأدب ما يعلق بالقلوب، وتشتهيه الآذان، وخذ من النحو ما تقيم به الكلام، ودع الغوامض، وخذ من الشعر ما يشتمل على لطيف المعاني، واستكثر من أخبار الناس وأقاويلهم وأحاديثهم ولا تولعن بالغَثِّ منها "(٢).

---

(١) البيت منسوب لأبي الطيب المتنبي، (٣ / ٢٨٧)، وروايته هكذا:

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ... ما كل ماشية بالرجل شملال، والشملال: الناقة القوية السريعة.

(٢) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت الحموي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٣م، (١/ ٢٢).

وقال الجاحظ في رسائله: (فصل في رياضة الصبي، وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أراد عليه منه، ومن رواية المثل للشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع. وإنما يرغب في بلوغ غايته، ومجاوزة الاقتصاد فيه، من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور، والاستنباط لغوامض التدبير لمصالح العباد والبلاد، والعلم بالقطب الذي تدور عليه الرحى، ومن ليس له حظ غيره، ولا معاش سواه. وعويص النحو لا يجدي في المعاملات، ولا يضطر إليه شيء).

وقد وجد شعور منذ زمن طويل بتفضيل تعلم اللغة بالملكة على تعلمها بالقواعد.

عِيب على عمار الكلبي بيتٌ من شعره فامتعض وأنشد أبياتًا منها:

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم... وبين قوم على إعراضهم طُبِعُوا [١]

فهذا الشاعر قد فاضل بين الطريقتين، وفَضَّلَ الطَّرِيقَةَ العَمَلِيَّة على الطريقة العلمية التقريرية.

وكان الناس يأخذون ألسنتهم بالإعراب ويلتزمون العربية في كلامهم. وكانوا يعيبون من يلحن ويحفظونه عليه ويتحدثون به. وما زال الأمر كذلك في النحو

---

(١) (الحماسة المغربية) مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي (ت٦٠٩هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م، (٢/ ١٣٢١).

والبلاغة حتى نبتت في العصور المظلمة تلك الحماقة التي تُقَدِّسُ القواعد وتجعلها كل شيء في تعليم اللغة وتربية ملكتها؛ وأعطتها قوة العصا السحرية، فما هو إلا أن يضرب المرء بها حتى يستحوذ على لغة العرب فيكتب بها ويخطب ويساجل وينظم الشعر، فأكثروا من القواعد وأقلوا من عرض المثل والشواهد والأساليب، وورثنا نحن عنهم هذه الطريقة وسرنا عليها حتى الآن.

ورجال التربية في القديم والحديث والشرق والغرب طالما دعوا إلى تعليم اللغات بالحفظ والتكرار والمرانة والدربة، وبينوا أن القواعد والقوانين لا تعلم اللغة ولا تُكَوِّنُ مَلَكَتها، وطالما نَدَّدُوا بهذه الطريقة التقليدية، وبهذا الأسلوب العقيم في تعليم اللغة؛ فابن خلدون الفيلسوف الاجتماعي ت ٨٠٨هـ بَيَّن في مقدمته أن اللغة ملكة، وأن الملكات لا تكتسب بالقواعد ؛ إنما تكتسب بالحفظ والتكرار. قال في فصل عنوانه (أن اللغة ملكة صناعية) اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني... (والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولًا وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالًا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة)، ثم بَيَّن أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم، وكان حَرِيًا بأهل القرن الثامن وما تلاه من قرون أن ينتفعوا بآرائه وبما بسطه هذا العالم المُجَدِّد ودعا إليه من آراء في التربية، ولكن ابن خلدون رجل سبق

عصره فلم تنتفع به أمم الشرق، ومن المؤلم أننا في عصرنا الحديث لم نفك قيود التقليد، وننفض عنا غبار الكسل، ونحرر أنفسنا من هذه الطريقة التي تلاحقنا نتائجها إخفاقا بعد إخفاق، وخيبة إثر خيبة.

هذا حديث الشرق وحديث الغرب أعجب، فما من كاتب كتب في التربية إلا وأنحى على طريقة القواعد، ورأى أن اللغة لا تعلم إلا بالحفظ والمحادثة؛ فروسُّو رجل الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر نبَّه في صراحة على أن اللغات يجب أن تعلم بواسطة المحادثات لا بواسطة الصرف والنحو. والدكتور غوستاف لوبون المفكر الفرنسي ذكر في كتابه (روح التربية) أن الأمم الراقية لا تأخذ التلاميذ في تعليم اللغات بكتب النحو وإنما تأخذهم بالكلام المألوف. ثم قال وهذه الطريقة لا تحرم التلاميذ درس النحو. فهو يدرس النحو أحسن درس بهذه الطريقة اللاشعورية التي تحول النحو إلى ملكة راسخة لا إلى تكلف وتَعَمُّل.

ودعا سبنسر الفيلسوف الإنجليزي في كتاب (التربية) إلى تعليم اللغات بأسلوب أشبه بسُنَنِ الطبيعة التي يتعلم بها الطفل لغته الأصلية بلا مُعين ولا مُرْشِد فيضمحل التعليم بواسطة القواعد ويعتاض عن ذلك بطرق ناجعة، وذلك ما أفضى إلى تأجيل تعليم علوم النحو والصرف والبلاغة للطلاب. واستأنس في ذلك برأي المسيو مارسيل الذي ذهب فيه إلى أن علوم النحو والصرف والبلاغة ليست مما يبتدأ به في تعليم الأطفال، ولكنها متممات ومكملات. ثم قال سبنسر:

وقصارى القول إنه لما كانت علوم النحو والصرف والبلاغة إنما نشأت بعد تكون اللغة كان من الواجب أن يتلقاها التلميذ بعد تكون اللغة، وسوى هؤلاء كثير من رجال التربية في العصر الحديث.

إن أساليب التعليم والتربية التي تسير عليها أمة من الأمم هي خير مقياس لعقليتها وثقافتها ومقدار نضوجها، فإن كانت تجري على قوانين العقل والوجود وتساير الرقي الإنساني العام، وتلائم روح طبائع الأشياء، استدللت بذلك على ثقافتها ورقيها؛ وإن كانت تخالف ذلك أمكنك أن تحكم على الأمة بالتأخر في مضمار الحياة. وبالضعف في شتى مناحيها العقلية والاجتماعية والسياسية، وإن الأمم الرابضة حولنا، والمتطلعة إلينا، والتي تخالطنا وتجاورنا لتحكم علينا بما نصطنعه من أساليب في التربية والتعليم؛ فلنأخذ بالأسلوب المطابق لطبائع الأشياء وقوانين الوجود في تعليم اللغة العربية، إن لم يكن لإتقان اللغة والتوفيق في تعليمها، فالاتقاء حكم الأمم علينا بالتأخر في مضمار الحياة.

جهود المسلمين في النحو والبلاغة [1]

للعرب جهود موفَّقَة في ابتكار عِلْمَي النحو والصرف وجهود نذكرها مع الإعجاب والإجلال؛ نعجب بهم لأنهم أحاطوا باللغة العربية إحاطة شاملة كاملة. ولأنهم استوعبوا شواردها والنادر منها، فتراهم يَجْمَعُون في الموضع الواحد ما يمكن أن تستنتج منه قاعدة، ويجمعون ما خرج عن هذه القاعدة ويحكمون عليه بالشذوذ والندور.

ونعجب بهم لأنهم تعمَّقوا في البحث وأدركوا العلل والأسباب وحسن تهديهم إلى القياس.

ونُجِلُّهُمْ لأمانتهم وحرصهم على أن يصلو إلى الحقائق وخوفِهِم من أن يقولوا في اللغة بغير علم كأنما هي دين لا يجوز فيه التهاون والتسامح بل يجب أن يفرغ المرء جهده ليصل إلى الحق ولا يجوز أن يثق المرء بأول خاطر أو يسكن إلى الراحة والدَّعَة.

إن ابتكار العلوم يقتضي أمورًا لابد من وجودها ليُمْكِنَ الابتكار:

أولها: عقل مبتكر منطقي يبحث عن العلل والأسباب ويقيس الأمور بأمثالها.

ثانيها: حب للبحث والاستقصاء والابتكار وإيثار له على جميع حظوظ الدنيا وما فيها من متع وزخارف.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الأول، ص ٥٨-٦١، غرة المحرم ١٣٧٢هـ / ٢١ سبتمبر ١٩٥٢م.

ثالثها: إيمان بجدوى هذه البحوث وبأنها تهدف إلى غرض معين وتوصل إلى فائدة مطلوبة.

رابعها: بيئة تقدر العلم والعلماء وتبحث عن مبتكرات القرائح وترى فيها غذاء عقليًا لا تقل حاجتها إليه عن حاجتها إلى غذاء الأجسام، والبيئة الإسلامية في البصرة والكوفة كانت تستكمل هذه العناصر.

أما العقول المبتكرة الخصبة التي كانت تعلل وتقيس لتهتدي إلى المجهول العقلي، فقد وجد منها في هذا العصر عدد ليس بالقليل، فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي[(١)] كان عقله آية في البحث والابتكار والتعليل والقياس، وكان عنده من هذه الملكة ما كان عند أمة اليونان في عهد ازدهار العلوم فيها، كان مثل أرسطو وأفلاطون وسقراط، إلا أنه صرف هذه الملكة إلى معرفة مقاييس العربية وتعليلها ولو صرفها إلى علوم الطبيعة والاجتماع والأخلاق لما قل شأنه عن هؤلاء الأفذاذ في التاريخ من اليونان.

وقد بلغ الخليل بن أحمد الغاية القصوى في معرفة قوانين العربية، قوانين مفرداتها ومركباتها، وقد كان ككل العلماء المبتكرين إنما يعنيه الابتكار ويشغله البحث ولا يعنى بالتأليف والتنظيم، وقد كان تلميذه سيبويه ممن رزق ملكة التأليف والتنظيم

---

(١) صاحب كتاب (العين) ولد بالبصرة سنة مائة من الهجرة، وعاش بها، وأول من ألَّف علم العَروض، مات بالبصرة سنة ستين ومائة. سير أعلام النبلاء، (٧/ ٩٧).

فأخذ علم الخليل ونظمه وأخرج الكتاب في النحو، فطارت شهرته في الآفاق وهب سيبويه بفخره، فلما رأي الخليل ذلك أراد أن يصنع علمًا ينسب إليه ويختص به فوضع قوانين الشعر العربي وحصرها وبَيَّنَ علله وأعاريضه وما يصحُّ منها وما لا يصحُّ، وقد وضع كتابًا في اللغة سماه «كتاب العَيْن» في الأصل لكل القواميس التي أُلِّفَتْ بعده، وكان يظهر عقله للباحث إذا اجتمع به.

يروى أنه اجتمع مع عبد الله بن المقفع ثم افترقا فسئل كل منهما عن صاحبه، فقال الخليل عن ابن المقفع: عِلْمُهُ أكثرُ من عَقْلِه، وقال عبد الله بن المقفع عن الخليل: عَقْلُهُ أَكْبَرُ مِنْ عِلْمِه[1]، وكذلك كان كلُّ واحد منهما، فلو تتبع العالم الباحث آثارهما ودروسهما أزمانًا متطاولة لكانت خلاصة بحثه هذه النتيجة.

انظر إلى آثار ابن المقفع تجدها ترجمة لِحِكَمِ الأَوَّلِين وأمثالهم، وقد يأتي ببعض الحِكَم ولكنه يراه مشتقًا من كلام الأولين.

ونرى ملكته التقليدية ظاهرة في أوائل كتبه، اقرأ قوله في أول كتابه الأدب الصغير: « ومن أخذ كلامًا حسنًا عن غيره، فتكلم به في موضعه، وعلى وجهه، فلا ترين عليه في ذلك ضؤولة، فإنه من أُعِينَ على حفظ كلام المصيبين، وهُدي للاقتداء بالصالحين، ووُفِّقَ للأخذ عن الحكماء، ولا عليه أن لا يزداد، فقد بلغ الغاية، وليس

(١) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، الحموي، (٣/ ١٢٦٨).

بناقصه في رأيه، ولا بغائضه[١] من حقه أن لا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه»[٢]، تجده يدل على أن همه مصروف إلى جمع العلوم والحكم والاستكثار منها، ويرى أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية ولا يضيره ألا يكون استنبط واستحدث، وانظر إلى آثار الخليل تجدها كلها تعليلًا وقياسًا واستنتاجًا وابتكارًا.

وقد يعجب المرء كيف توجد هذه العقول الخصبة في أوائل الدولة الإسلامية ولم تمر بالأدوار التي تمر بها الأمم من طفولة وشباب واكتمال بما يقتضى أحقابًا طوالًا حتى تصل إلى سن ابتكار العلوم، ولو علم المرء أن الإسلام جاء إلى أمم كانت قد مرت بأدوار الصبا والطفولة ووصلت إلى حد الاكتمال فلم ينشئها الإسلام إنشاء وإنما جاء بأصلح من عقائدها وأخلاقها واجتماعها، نقول لو علم الباحث ذلك لزال منه العجب، إن الإسلام دخل في أمة الفرس والروم والسريان وقد كانت أمما ذات ثقافة ومدنية بل العرب أنفسهم جاءهم الإسلام بعد أجيال وأجيال من منشأهم فلا عجب أن تظهر فيهم ملكة الابتكار والاستنباط التي لا تظهر في الأمم إلا في دور نضوجها واستكمالها.

أما حُبُّ البحث والابتكار حبًا يصل إلى درجة العشق والهيام وإيثاره على كل شيء عداه، فيحدثنا التاريخ بأعاجيب منه، وحسبنا أن نذكر هنا الحادثتين الآتيتين:

---

(١) غاض من حقه: بخسه وأنزل به الغبن والإجحاف.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير: عبد الله بن المقفع ص١٣، ١٤، بيروت: دار صادر.

يروى عن أبي عمرو بن العلاء قال: كان يَشْتَبِهُ عَلَيَّ «فرجة» هل هو بالفتح أو بالضم، فسمعت قائلًا يقول:

رُبَّمَا تَجْزَعُ النفوسُ مِنَ الأَمْـ ـرِ لَهُ فَرْجَةٌ كحلِّ العِقَال (١)

بفتح الفاء من فَرْجَة، ثم قال: ألا إنه قد مات الحَجَّاج، قال أبو عمرو: فما أدرى بأيهما كنت أشد فرحًا بقوله، «فرجة»، أم بقوله مات الحجاج، فأنت تراه قد فرح باستفادة حرفٍ واحدٍ من اللغة فرحًا يعدل الأمن بعد الخوف، والظهور إلى الناس بعد الاستخفاء.

وأما الحادثة الثانية فهي أن سليمان بن على وجه إلى الخليل بن أحمد من الأهواز لتأديب ولده فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزًا يابسًا، وقال: كُلْ ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لى إلى سليمان، فقال الرسول: فما أبلغه. فأنشأ يقول:

أبلــغ سـليمان أني عنه في سـعة وفي غنًــى غـير أني لسـت ذا مـــال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال (٢)

وما أحسب الخليل آثر الإقامة مع فقره وإقلاله على الرحلة وما فيها من

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت، والفَرْجة: الخلاص من حزن ومرض وغيرهما، والعِقال: الحبل الذي به معقل البعير. شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، سيف الدين الكاتب، أحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ص ٦٣.

(٢) عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١٨هـ، (٣/ ٢١١).

غنى ويسار إلا أنه كان في بيئة يفهمها وتفهمه، ويبتكر لها فتعجب بابتكاره، وتناقشه فيُسَرُّ لهذه المناقشة، وكان لذلك في سعادة نفسية يتمنى جزءًا منها الأغنياء والموسرون، وستفوته هذه السعادة إذا ذهب إلى الأهواز وشغل بتعليم ولد سليمان وفاته تلاميذه الذين كان يأنس بمحاورتهم ومساجلاتهم كسيبويه والنضر بن شميل(١) ومؤرج السدوسي(٢) وعلى بن نصر الجهضمى(٣).

وكان النضر بن شميل يقول: أُكِلَت الدُّنْيَا بِعْلم الخليل وكُتُبِه وهو في خُصٍّ لا يشعر به، ولم تُؤْكَلْ الدنيا بعلمه في زمنه فحسب، بل أُكِلَتْ الدنيا بعلمه في جميع الأزمان بعده إلى اليوم، ولا يزال للخليل فضل جسيم على معلمي العربية اليوم في الأزهر ووزارة المعارف والجامعة، فبعلمه يرزقون وبقلمه كان لهم الجاه والشرف والمثالة في قومهم، كل ذلك كان من صوفيته في العلم التي كان يراها عبادة وزهادة،

---

(١) النَّضْرَ بنَ شُمَيْلٍ بن خرشة بن زيد بن كُلْثُوْمٍ، البصري النَّحْوِيُّ، نَزِيْلُ مَرْوَ وَعَالِمُهَا، وُلِدَ فِي حُدُوْدِ سَنَةِ اثنتين وعشرين ومائة، مَاتَ فِي أَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعٍ، وَمائَتَيْنِ. سير أعلام النبلاء، (٨/ ٨٠، ٨١).

(٢) هو مؤرج بن عمرو بن الحارث بن ثور بن سدوس البصري، أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، له عدة تصانيف: منها كتاب الأنواء، و"غريب القرآن" و"جماهير القبائل وكتاب المعاني" وغير ذلك، واختصر نسب قريش في مجلد لطيف سماه "حذف نسب قريش"، توفي سنة خمس وتسعين ومائة. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

(٣) هو عَلِيّ بن نصر الجهضميّ الْبَصْرِيّ وَالِد الْحَافِظ عَلِيّ بن نصر وَكَانَ من أَصْحَاب الْخَلِيل بن أَحْمد فِي الْعَرَبيَّة وصديقاً لسيبويه توفِّي سنة سبع وَثَمَانِينَ وَمِائَة. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م (٢٢/ ١٦٨)

ولذلك كان يقول: إذا لم تكن هذه الطائفة – يعنى أهل العلم – أولياء الله تعالى فليس هناك لله ولى، ولعلمه وزهده وعفته ورغبته عما في أيدى الناس كان سفيان يقول: من أراد أن ينظر إلى رَجُلٍ خُلِقَ مِنَ الذَّهَبِ والمِسْكِ فَلْيَنَظر إلى الخليل بن أحمد. بمثل هذا العشق والهيام بالبحث يستنبط العلم وتُكْتَبُ المعرفة.

أما أنهم كانوا يُؤَمِّلُون مِنْ وراء بحثهم غرضًا عزيزًا لديهم ويرونهم في أشد الحاجة إلى تحصيله فلأنهم كانوا يريدون المحافظة على كتاب الله أن يتطرق إليه اللحنُ وفسادُ الإعراب، وكانوا يخافون على اللغة العربية أن يذهب نظامها بمخالطة الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، فقد كانوا يسمعون اللحن في القرآن فيسوءهم ذلك، وأشد ما ساءهم أن قارئًا قرأ: أن الله برئ من المشركين ورسولِه بالجر، فقيل: معاذ الله أن يبرأ من رسوله، وقد هرعوا إلى وضع النحو بعد هذه الحادثة، وقد كانوا يرون اللحن في لغة العرب فيقودهم ذلك إلى وضع قوانين فيما كان فيه اللحن.

يروى أن أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسنُ السماء، فقال لها: يا بنيتي نجومها، فقالت: إني لم أرد هذا، وإنما تعجبت من حُسْنِها، فقال لها: إذن فقولي: ما أحسنَ السماء، ووضع باب التعجب.

وما أظن أنهم غاروا على اللغة العربية، هذه الغيرة إلا من أجل القرآن، وإلا فإن أمما كثيرة تركت لغتها تتطور وتتفرع إلى لغات كثيرة دون أن تعنى بضبطها والوقوف

في سبيل تطورها، ولكن علماء الإسلام عنوا بضبط لغتهم من أجل المحافظة على القرآن، فنشأت هذه الظاهرة العجيبة، وهى أنه لو قدر أن يحيا اليوم رجل مات منذ ألف سنة، فسمع المتحدثين بالعربية لما أنكرها ولفهمها، أما اللغات الأخرى فليست كذلك، فلو أن فرنسيًا مات منذ مائتي سنة وبعث اليوم، لما فهم اللغة الفرنسية التي يتحدث بها أهل هذا العصر لتطورها ومطاوعتها للأحداث الجارية عليها.

وقد بلغ من حرصهم على صحة اللغة وسلامة إعرابها أن أحدهم كان يخجل من اللحن ويراه سوءة لا ينبغي أن يعلمها أحدٌ عنه.

يُرْوَى أن الحجاج بن يوسف قال يحيى بن يعمر العدواني: أتجدني ألحن؟ فقال: الأمير أفصحُ من ذلك، فقال: عزمت عليك أتجدني ألحن؟ قال يحي: نعم، فقال له: في أي شيء؟ فقال: في كتاب الله تعالى، فقال: ذلك أشنع، ففى أي شيء في كتاب الله تعالى، قال: قرأت: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم ﴾[1]، فرفعت أحب وهو منصوب، فقال له الحجاج: طولُ لحيتك دفعك – وكان طويل اللحية – لا تساكنني في بلد أنا فيه، ونفاه إلى خُراسان.

(١) التوبة: ٣٤.

وأما البيئة العربية في ذلك الحين فقد كانت تشجع أعظم التشجيع على البحث والدرس، فقد كان الناس يعظمون العلماء ويستفيدون منهم ويرحلون إليهم، وكان الخلفاء والأمراء يُجْزِلُون صلات العلماء بِحَرْفٍ واحد من اللغة يستفيدونه منهم، كما يحكي المأمون قال بحضرة النضر بن شميل: قال رسول الله ﷺ: إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها، كان فيها سداد من عوز، فأورده بفتح السين، فقال النضر: سداد بكسر السين، فقال المأمون: وما الفرق بينهما؟ فقال النَّضْرُ: السَّدَادُ بالفتح القصد في الدين والسبيل، والسِّدَاد بالكسر المَبْلَغَة، وما سدد به شيئًا فهو سداد، قال العرجي[1]:

أَضَاعُونى وأيُّ فتىً أضاعوا ليوم كريهة وسِداد ثغر [2]

ثم أمر له المأمون بخمسين ألف درهم وأمر له الفضل بثلاثين ألفًا.

هذه العناصر الأربعة التي ذكرنا أنها تدعو إلى استنباط العلوم وابتكار قوانين اللغة كانت موجودة في البصرة والكوفة، ولذلك بدأ النحو في هذين المِصْرَيْنِ، ثم انتشر بعد ذلك في الأمصار الإسلامية، فليت شعري ما الذي فقدته الأمصار الإسلامية، كمصر والشام والحجاز، من هذه العناصر الأربعة فلم يظهر فيها النحو ولم

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفّان. وكان ينزل بموضع قبل الطائف يقال له (العرج) فنسب إليه. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، (٢/ ٥٦٠).

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، دار الجيل – بيروت (٢/ ٥٩٩).

تستنبطه، وكانت عيالًا فيه على البصرة والكوفة! وليت شعري ما الذي تنقصه الممالك الإسلامية الآن من هذه العناصر فعجزت عن استنباط العلوم ومجاراة الأمم في بناء هيكل العلم المقدس؟ هذا موضوع حقيق بأن يبحث مستقلًا لأنه لا يخلو من طرافة، لا يخلو من فائدة أيضًا.

آراء وأحاديث (علوم البلاغة في الميزان) -١-[١] [٢]

في علوم البلاغة العربية، مجال للبحث ومواضع للنقد، ففيها بعض الخطأ بما يجب التنبيه عليه وإصلاحه، ليتعاون المفكرون علي تنقية هذه العلوم، ونحن سنمثـــل ببعض أمثلـة مـن العلـوم الثلاثـة: المعاني والبيان والبديـع.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الثالث، غرة ربيع الأول ١٣٧٢هـ / ١٩ نوفمبر ١٩٥٢م، ٣٣٤-٣٤٠.

(٢) بدأت المجلة نشر سلسلة مقالات للشيخ محمد عرفة حول علوم البلاغة تحت عنوان (آراء وأحاديث)، وقد صدَّرت المجلة هذه السلسلة بكلمة أبانت فيها الهدف من تلك السلسة، وجاء نصها: " إن من ينظر في تاريخ المسلمين في القرون الأولى، يرى فيه ظاهرة من ظواهر الأمم المتقدمة، وهي البحث الفكري والإنتاج العلمي، فقد كان همُّهم الدرس والبحث والنقد والابتكار، فقد ابتكروا علوماً وجددوا فنوناً، وما بين أيدينا من ميراث علمي في النحو والصرف والعروض والبلاغة والفقه وأصول الدين وعلوم التفسير والحديث والفلسفة، هو من إنتاجهم وابتكارهم.

ثم خلفت خَلُوفٌ تركوا الإنتاج والابتكار والنقد، ووقفوا عند ما ترك الأولون: لم يزيدوا حرفًا، ولم ينقدوا رأيًا، ولم ينتجوا قاعدة، هذا العقم في العقل والجذب في الفكر مرض من أخطر الأمراض يجب علاجه، لأن الأمم إنما تتفاضل بعقولها، وتمتاز بالإنتاج العقلي والبحث الفكري، والأمم التي تخصب عقولها ويكثر انتاجها العلمي هي التي تعرف مجهولات الطبيعة وتسير على هدي هذا الوجود، والأمم التي تجدب عقولها ولا تثمر أفكارها لا تفهم نفسها ولا ما حولها وتخبط في هذه الحياة، وقد رأت المجلة أن تطب لهذا الداء بفتح باب من النقد تعرض فيه فكرة ما وتتناولها الأقلام بالتفنيد أو التأييد، وهذا فيه تمرين عظيم على البحث والإنتاج، ويدعو القراء إلى إعمال عقولهم، وكد أفهامهم لتبين الحق ومعرفة الصواب.

وقد بدأنا بنشر بعض بحوث لمدير المجلة في علوم البلاغة تحت عنوان:

«علوم البلاغة في الميزان»، وسيرى القارئ أنها إبطال لبعض القواعد البلاغية التي قررها الأولون واعتمدها المتأخرون، وهو ما يدرس في دور العلم المختلفة من الأزهر والجامعة ووزارة المعارف، ومن أجل ذلك ستتوفر الدواعي على معرفة هذا النقد والنظر فيه والعلم على إبطاله وتأييده، لأنه ينقد تراثًا علميًا عظيمًا ورثوه عن آبائهم وهو عزيز عليهم، فهم يحامون عنه، ويذودون من رماه، ولأن ما يبطله عمل اتفق عليه علماء البلاغة فهل يند عن الصواب عن هؤلاء جميعًا ويعرفه واحد؟ ومن هؤلاء الذين أجمعوا عليه؟ هم المتقدمون من عهد السكاكي إلى الآن.

فلو كان رأي فرد أو جماعة لجاز أن يدخل فيه الخطأ، أما وهو رأي العصور المختلفة والأجيال المتعاقبة، فمن العجب أن يدخل عليه الخطأ كل هذه حركات نفس ونزعات فكر تدعو الدارسين والباحثين إلى أن يستقبلوا هذا الباب بالاهتمام والنقد والتعليق، وإذا كان ذلك أدركنا ما أردنا من تنشيط العقول وحفز الهمم للبحث والابتكار، والله المستعان.



(١)

إني لأعجب لهؤلاء الكاتبين في البلاغة من المتأخرين، يعمدون إلى أسباب الحسن في الكلام التي هُدِىَ إليها المتقدمون، فيعللونها بغير عللها النفسية، ويسوون بينها وبين غيرها، حتى يصرفوا الذوق عن الإحساس بها وعن تذوقها، كأنهم قد تواصوا فيما بينهم على أن يفسدوا هذا العلم إفسادًا، حتى لا يبقوا فيه شيئًا صحيحًا.

هُدِي المتقدمون – كعبد القاهر[1] – إلى أنه قد يوجد شيء في النَّظْمِ فيُكْسِب الكلام حسنًا وجمالًا، كالحذف فإنه تحس من الكلام المحذوف منه بعض أجزائه في بعض الحالات جمالًا لا يكون إذا أنت ذكرت المحذوف، ومثَّل لذلك بقوله:

قالَتْ سُمَيَّةُ قد غَوِيتَ بأَنْ رَأَتْ ... حَقًّا تَناوَبَ مالَنَا ووُفُودُ
غَيٌّ لَعَمْرُكَ لا أَزالُ أَعُودُهُ ... ما دَامَ مالٌ عندَنا مَوْجُودُ[2]

---

(١) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، واضع أصول البلاغة، من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) من كتبه: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، و" المغني " في شرح الإيضاح، و"إعجاز القرآن، توفي سنة ٤٧١هـ. الأعلام، الزركلي، (٤/ ٤٨).

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، فصل (القول في الحذف – المبتدأ)، ص١٥٢، والبيتان لشاعر يخاطب امرأته وقد لامته على الجود.

وقوله:

تَثَاءبَ حتى قلْت: داسِعُ نفسه وأَخْـرَجَ أنيابًا لـه كالمَعَاوِلِ (١)

وقوله:

غَضْبَى ولا والله يا أهْلَهَا لا أَطْعَمُ البارِدَ أو تَرْضَى (٢)

وقوله:

وعَلِمْتُ أنِّي يومَ ذا ك مُنَازِلٌ كعبًا وَنَهْدا

قَوْمٌ إذا لَبِسُوا الحديد تَنَمَّروا حَلَقًا وقَدًّا (٣)

وقال عبد القاهر: هذا باب يشبه السِّحْرَ، لأنك تراك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأشد ما تكون بيانا إذا لم تبين، إلا أن عبد القاهر بيَّن أن في الحذف حُسْنًا ولم يبين سبب هذا الحسن وعِلَّتَه، واكتفى بأن يعرضَ عليها الشيء الجميل، ويضعَ أيدينا على موضع الجمال فيه وهو الحذف، وبَيَّن أننا لو ذكرنا المحذوف لما كان للكلام ذلك الحسن، فأما العلة في ذلك فلم يذكرها، ونحن إذا رجعنا إلى نفوسنا نجد العلة في حسن الحذف في هذه المواضع أمور نفسية، وهى أن المحذوف تدل عليه قرائنه، فإذا ذكر كان ثقيلًا موضعه، لأنه تعريف لما عُرِّفَ، وبَيَانٌ لِمَا بُيِّنَ، وإذا

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٥١، والمعنى: حسبْتُه من شدة التثاؤب، ومِمَّا به من الجهْدِ، يقذف نفْسَه من جوفه، ويُخرجُها من صدره، والأصل هو داسع نفسه فحذف المبتدأ.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ١٥٢، والأصل هي غضبى فحذف المبتدأ.

(٣) البيتان لعمرو بن معد يكرب في ديوانه المجموع، وشرح الحماسة للتبريزي، (١/ ٩١).



حُذف رُفِعَت المؤنة عن السامع بذكره، ورفعت الكلفة التي يكون عليها عندما يسمع حديثًا معادًا، أو كلمة فيها فائدة جديدة.

وبالجملة فالكلمة الخالية من الفائدة كالثقيل تقذى العين بوجوده، فإذا لم تبصره في موضع كان يُتَوقَّع وجوده فيه وجدت لذلك من الأنس والمحبة ما يغمر القلب سرورًا، وإذا أردت أن تتبيَّن شيئًا شبيهًا بذلك فاستمع إلى رجلين أحدهما يُطِيل في الكلام ويذكر ما لست بحاجة إلى ذكره ويكيل في غير طائل، والثاني يهجم بك على الفائدة من أقصر طريق، وكلما سار بك جدَّد لك فائدة، فإنك تجد للأول ثقلًا على القلب وضيقًا في النفس، وتجد في الثاني خِفَّةً وتجديدَ سرورٍ ولذَّة.

وشيء آخر، وهو الهجوم بالسامع على المطلوب دَفْعَةً، فإن مطلوبه في مثل:

قال لي كيف أنت قلت عليل ... سهر دائم وحزن طويل (١)

معرفة حاله فإذا قال عليل فقد هجم به على المطلوب وكفاه مؤونة الانتظار، هذا ما نجده في نفوسنا عند ما نُسَرُّ لحذف كلمة، ونبحث عن علة هذا السرور وهذا الارتياح.

وشيء آخر، هذه الجدة التي تراها في هذا الأسلوب، فإن الناس قد اعتادوا الأسلوب الذي لم يحذف منه شيء لكثرة دورانه في الكلام، ولم يعتادوا الأسلوب الذي حُذِفَ منه أَحَدُ جزْأَيْ إسناده، لقلة دورانه في ألسنتهم فإذا سمعوا الكلام

(١) لم أقف على قائله.

المحذوف منه شيء، سمعوا الجديد الذي لم يألفوه، والبدع الذي لم يعتادوه، فاستمتعوا منه بما يستمتعون من الجديد المبتدَع، والغريب المبتكَر، وليست هذه الجدة في السمع فحسب، بل هي جدة في الفكر، فقد كنت تتلقى المعاني من الألفاظ فعدت تتلقاها من العقل، يدل عليها ويشير إليها، وإن كان ذلك ليروعك ويؤثر عليك وإن كنت لا تدرى مأتاه ولا مصدره.

جاء السكاكي [(١)] والخطيب [(٢)] ومَنْ بعدهما، وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذِّكر، وجعلوا الحذف في موضعه كالذكر في موضعه، وجعلوهما حالين من أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال، فيُحَصِّلَان البلاغة، ثم ذهبوا يبحثون عن المقامات التي تقتضي الذكر أو الحذف، فقالوا: أما حذف المسند إليه فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من اللفظ أو العقل، أو اختيار تنبه السامع، أو مقدار تنبيهه، أو صونه عن لسانك أو صون لسانك عنه، أو تأتي الإنكار عند الحاجة، أو ادعاء تَعَيُّنِه، وجعلوا للذكر مقاماً، وهو أنه الأصل ولا مقتضىَ للعدول عنه أو الاحتياط لضعف التعويل على القرينة،

---

(١) هو يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السكاكي، من أهل خوارزم، ولد ٥٥٤هـ، وتوفي ٦٢٦هـ بخوارزم، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، (٦/ ٢٨٤٦)

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين القزويني الشافعي، ولد ٦٦١هـ بدمشق، من مصنفاته، تلخيص المفتاح، والإيضاح في علوم البلاغة، توفي ٧٣٩هـ بدمشق. طبقات الشافعية، السبكي، (٥/ ٢٣٨)، والأعلام للزركلي (٦/ ١٩٢).

أو التنبيه على غباوة السامع، أو زيادة الإيضاح والتقرير، أو إظهار تعظيمه أو إهانته أو التبرك بذكره، أو استلذاذه، أو بسط الكلام حيث الاصغاء مطلوب.

فأنت تراهم سَووا بين الذِّكْرِ والحَذْفِ عند المقتضى، وقد كان يفهم من كلام عبد القاهر أن للحذف مزية لا تكون لغيره، ولو مشينا على ما مشى عليه عبد القاهر لعلمنا اختصاص الحذف بهذه المزية، ودعانا ذلك إلى مراعاة الحذف في أساليبنا ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا.

وتراهم قد ذهبوا عن العلل الحقيقية لجمال الحذف – وهي ما ذكرناها – إلى العلل التي ذكروها، وبعض هذه العلل صناعية لا تخطر إلا ببال الذين توغلوا في صناعة العلوم العقلية، كتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ، وبعضها لا يخطر للبليغ المتكلم ولا للسامع ببال، أما العلل التي ذكرناها فهي علل نفسية قد يشعر المرء بآثارها، ولا يدركها، ولكن الفلسفي العارف بخفايا النفوس يدركها ويؤمن بها.

ولقد رغبت أن أُحَمِّلَ كلامهم ما ذكرته من المعاني، فقد قالوا: «وأما حذفه فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، أو تخييل العدول إلى أقول الدليلين من العقل واللفظ، فقلت قالوا «الاحتراز عن العبث» وهذا يؤدي إلى الاستثقال، والحذف يؤدي إلى رفع الاستثقال.

وقد لحظوا في قولهم تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ، أن الدلالة على المحذوف عقلية، ولكنني رأيتهم يرعون في غير هذا الجانب، فقد قال صاحب المطول في شرح ذلك: «فللاحتراز عن العبث، إذ القرينة دالة عليه فذكره عبث، لكن لا بناءً على الحقيقة في نفس الأمر بل «بناءً على الظاهر»، وإلا فهو في الحقيقة الركن الأعظم من الكلام فكيف يكون ذكره عبثًا، وقيل معناه أنه عبث نظرًا إلى ظاهر القرينة وأما في الحقيقة فيجوز أن يتعلق به غرض، مثل التبرك والاستلذاذ والتنبيه على غباوة السامع ونحو ذلك.

(٢)

لي من فلانٍ، صديقٌ حميمٌ، لئن سألت فلانًا لتسألن به البحر، لئن لَقِيتَ فُلانًا لَتَلْقَيَنَّ به الأسد.

هذه الأمثلة فيها جمال وبلاغة، ويحس المرء بطرب لا يجده إذا قال فلان صديقي الحميم أو فلان كالأسد أو كالبحر، وقد أحسَّ علماءُ البلاغة هذا الجمال فذهبوا يحُدُّون ويُمَيِّزُون ويُعَرِّفُون أسبابه، وأخيرًا سَمَّوا هذا النوع الذي أحدث ذلك الجمال: «التجريد»، وقالوا في تعريفه ما يأتي:

التجريد أن يُنْتَزَعَ من أمر ذي صفة، أمرٌ آخرُ مثلُه فيها، مبالغة لكمالها فيه، فقولنا: «لي من فلان صديق حميم»، يؤخذ منه أن فلانًا بلغ من الصداقة حدًا صحَّ معه أن ينتزع منه آخر في الصداقة، وكذلك: «لئن لقيتَه لتلقين به الأسد»، يؤخذ منه أنه بلغ من الشجاعة حدًا يصلح معه أن ينتزع منه أسد مثله في الشجاعة، وذلك لكمال الشجاعة فيه، وكذلك: «لئن لقيته لتلقين به البحر»، يفيد أنه بلغ من الكرم حدًا صح معه أن ينتزع منه بحر مثله في الكرم وذلك لكماله في الكرم.

وهذا تصورٌ غريب لهذه الأمثلة التي فيها هذا النوع من البلاغة، فلم تجر عادة أن المرء إذا بلغ حدًا من الكرم، صح أن ينتزع منه بحر مثله في الكرم وذلك لكماله فيه، وليت شعري ما هذا الانتزاع؟ أهو بطريق الولادة، أم بطريق آخر كانتزاع الصخر من الجبل، أم كانتزاع الثوب من اللابس.

هذه الحالة لا تدل على كرم ولا على مبالغة فيه، فما عُهد أن الكريم إذا بلغ في الكرم المبلغ العظيم، انتزع منه بحر يساويه في الكرم.

وإنَّ فهمَ هذه الأمثلة على هذا الوجه يُضَيِّع بلاغتها ويُفْسِدُ معناها ويجعله تصورًا كتصور البُلْه والممرورين، كريم يلد بحرًا، أو شجاع يشتق منه أسد، وصديق ينتزع منه صديق.

وقد كنا نفهم من هذه الأمثلة قبل أن نعرف التجريد في علوم البلاغة أن فيها حذفًا: لئن لقيت فلانًا لتلقين به الأسد، الأصل لتلقين بلقائه، أي بسبب لقائه، الأسد فحذف لقاء، وإنما كنت تلقى بلقائه الأسد، شبيهه لأنه فلست تلقى بلقائه إلا أسدًا، وما الجمال فيه إلا من جهة أنه أعطاك التشبيه بطريق مُكَنًّى عنه، لم يصرح به، وأنه صَوَّره بصورة الأسد، حتى كأنك تحسه وتراه، ولست تجد أحدًا له ذوق في البلاغة يفهم من هذه الأمثلة إلا ما قدمناه، وهو المعنى الذي يخطر لأول نظرة، ولكن علماء البلاغة يأبون إلا أن يجعلوه تجريدًا وتوليدَ شيء من شيء، ولم يلده، وانتزاع شيء من شيء لم ينتزع منه.

ومن عجب، أن هذا المعنى المتبادر قد شعر به بعض العلماء فذكروه وأبان أن أمثلة التجريد مبنية على الحذف، فأنكره العلماء المتأخرون وقاوموه ودفعوا في صدره حتى لم يبق إلا هذا المعنى السخيف الذي ينكره الذوق وينبو عنه الفهم ويجعل الأسد منتزعًا من الشجاع والبحر متولدًا من الكريم، وذلك مبالغة لكمال هذه الشجاعة في هذا الشجاع وكمال الكرم في هذا الكريم.

(٣)

«رأيت اليوم حاتمًا، ولقيت مادرًا، وسمعت سحبان، وكان في المجلس باقل»: هذه مُثُلٌ تدور على ألسنة المتكلمين، والغرض منها التشبيه، تشبيه الممدوح بحاتم في الكرم، وبسحبان في الفصاحة، وتشبيه المذموم بمادر في البخل، وباقل في الفهاهة، ولكن علماء البلاغة لا يقتصرون على ذلك بل يتأولون في حاتم فينتزعونه من معناه وهو العَلَمِيَّة على الرجل المعروف من طيِّئ، ويجعلونه كأنه موضوع للجواد سواء أكان ذلك الرجل المعهود والفرد غير المتعارف، وهو من يتصف بالجود، لكن استعماله في غير المتعارف يكون استعمالًا في غير ما وضع له فيكون استعارة.

وإنما فعلوا ذلك ليحافظوا على الأصل الذي وضعوه، وهو أن الاستعارة تقتضي إدخال المُشَبَّه في جنس المُشَبَّه به، بجعل أفراده قسمين: متعارفًا وغير متعارف، ولا يمكن ذلك إلا في اسم الجنس، ولا يمكن في الأعلام لأن العَلَم وُضِعَ لذات مخصوصة لا يتناول غيرها، فلهذا ارتكب هذا التأويل فيجعل العلم اسم جنس ليمكن ادِّعَاء دخول المُشَبَّه في جنس المُشَبَّه به.

ويَرُدُّ هذا الذي ذهب إليه البيانيُّون، أنه ليس من أحد يتكلم بهذه الأمثلة يقصد هذا الذي قالوه، ولا يفهم أحد ممن يسمعها هذا المعنى الذي ذكروه، فما من أحد يقول: رأيت اليوم حاتمًا، ويدور بخلده أنه شبه ثم تأول حاتمًا فنزعه من العلمية، وجعله كأنه موضوع للكريم الجواد وصار له فردان: فرد حقيقي هو ذلك الجواد من شيء، وفردٌ ادِّعَائي هو ذلك الممدوح إلى آخر هذه الصورة.

وليس أدل على فساد هذا الرأي من أنه دعوى لما لا يخطر بذهن متكلم أو سامع، فنحن نشرح أقوال المتكلمين بما يريدون ويعنون، وكل هذه الصورة لا تخطر إلا بأذهان هؤلاء البيانيين الذين اخترعوها.

ضع يدك على أي بليغ ما تختاره وسَلْهُ: ماذا يريد بقوله: «رأيتُ حاتمًا اليوم»، فإنَّه يُجِيبُك: أردت تشبيه هذا الكريم بحاتم في جُودِه وكَرَمِه.

وسَلْهُ أهو تَأَوَّلَ في حاتم وأراد منه مطلق جواد، وأنه صار يشمل حاتم طيِّئ، وهذا الجواد الممدوح، فإنه ينفى ذلك كُلَّه، ويقسم أنه لم يرد شيئًا من هذا، ولم يرد إلا التشبيه بحاتم في الجود.

على أنه إذا كان معنى حاتم الجواد فلا استعارة؛ لأن الجواد يطلق على سبيل الحقيقة على الممدوح، بخلاف أسد في قولنا: «رأيت أسدًا يرمي»، فإنه لا يطلق على الممدوح على سبيل الحقيقة فكان استعارة، وهذا التكلف العظيم ليحافظوا على أصل اخترعوه، وهو أن الاستعارة تقتضي دخول المشُبَّه في جنس المُشَبَّه به، وهذا الأصل أوردوا هم عليه اعتراضًا، وهو أنه كيف يدعي دخول المشبه في جنس المشبه به، ويقيم القرينة لتدل على أنه أراد المشبه لا المشبه به؟ وأجابوا بأنه بعد الادعاء صار المشبه به فردين: فرد حقيقي وفرد ادِّعائي، والقرينة قامت لتنفي الفرد الحقيقي وتثبت الفرد الادِّعائي، فدخلوا في باب آخر من الإغراب لم يرده مُتكلم ولم يفهمه سامع.

آراء وأحاديث (علوم البلاغة في الميزان) -٢ -[١]

إنا نتقدم بالشكر إلى الأستاذ محمود النواوي، أن أجاب دعوتنا إلى مناقشة ما كتبناه في نقد علوم البلاغة لنحفز العقول إلى البحث والابتكار، وغربلة تراثنا الماضي لنطرح منه الزُّوَان[٢]، ونُبْقِي مِنْه الحَبَّ الخالص وقد حصر ما نَقَدْنَا به في أمور:

أَنَّه جعل الذِّكْرَ بلاغةً مِثْلَ الحَذْفَ، إِلَّا أَنَّ الحَذْفَ أدق وجعل منه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[٣].

على أن ليس عدلًا من كليب، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[٤]، ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾[٥]، وقول الشاعر:

ومَا عفَت الرِّيَاح لَهُ محَلَّا ... عَفَاهُ مَنْ حَدَا بهم وَسَاقَا[٦]

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الثامن، غرة شعبان ١٣٧٢هـ / ٥ أبريل ١٩٥٣م، ص ٩١٢-٩١٧.

(٢) الزُّوَان: حَبٌّ يكون فِي الحِنْطَة يسمِّيه أهلُ الشَّام الشَّيْلَم، الْوَاحِدَة زُوَانَةٌ. تهذيب اللغة، أبومنصور الهروي (١٣/ ١٧٥).

(٣) الرحمن: ١٣.

(٤) البقرة: ٥.

(٥) المائدة: ٦١.

(٦) أورده الخطيب القَزويني في الإيضاح في علوم البلاغة، (٢٨٥)، وعزاه لأبي الطيب المتنبي، ولم أقف عليه في ديوانه.

وما ذكره يؤدي إلى أن يكون جاء زيدٌ، وضرب عمروٌ، وأكل خالدٌ بليغًا لأنه ذِكْرٌ صادف مَوْضِعَهُ، فيقال: ذكر المسند إليه لأنه الأصل ولا مقتضي للعدول عنه.

ومثل هذا لا يوصف بالبلاغة وإنما يوصف بالصحة والسلامة من الخطأ واللحن، وما ذكره من الأمثلة ليس بعضه بما نحن فيه بل هو من باب آخر هو باب التكرار، مثل: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(١)، التي تكررت في سورة الرحمن، ومِثْل: على أن ليس عدلًا من كليب، التي تكررت في قصيدة المهلهل(٢).

وكنا نود أن يأخذ بالمنهج الذي رأينا أن نأخذ به أنفسنا به، وهو أن نعرض القول على أذواقنا فإن أحسسنا له جمالًا وأخذتنا له أريحية، علمنا أنه بليغ وبحثنا عن علة جماله وسببه، ولو أخذ نفسه بهذا المنهج لما رأى في أمثال: جاء زيدٌ وضرب عمروٌ جمالًا وحَكَمَ بِأَنَّه - وإن كان من باب الذِّكْرِ الذي صادف موضعه لأنه الأصل ولا مقتضي للعدول عنه - ليس بليغًا، ولَحَكَمَ بأن عبدَ القاهر كان مصيبًا حين عمد إلى أبواب وخصَّها بالقول وبَيَّن ما فيه من بلاغة ولم يجعل كل كلام ككل كلام ما دام قد أصاب النحو ولم يخالف موضعه ولو سار المتأخرون كما سار عبد القاهر لميزوا الجمال وأفردوه وهدوا إليه ودلوا عليه، ولأجدى ذلك على المتعلمين فكانوا بذلك التميز والإفراد يعرفونه ويتوخونه في نثرهم وشعرهم.

---

(١) الرحمن: ١٣.

(٢) هو المهلهل بن ربيعة التغلبي، وقد كرر هذا الشطر في سبع أبيات متواصلات. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (١٥٢/٢)

لمَّا قلنا إن في الحذف جِدَّة وطَرَافة لأن الناس لم يعتادوه اعترض بأن الناس اعتادوه، ثم ذكر هنا أن العامة تعرف البلاغة، وذكر حكاية:

وأَحْسَنُ مِن نَورٍ تُفَتِّحُه الصَّبَا   بَياضُ العَطَايا في سَوَاد المَطَالِبِ(١)

ونحن لا نزال نؤكد أن الكلام الذي لم يحذف منه آلَفُ وأَشَدُّ دورانًا على ألسنتهم وأن الكلام المحذوف منه أقل بقليل.

وما زلنا نرى في الكلام المحذوف جدة وطرافة ونرى مكان المحذوف نفتقده فلا نجده من حيث كنا نترقب وجوده.

وأما أن العامة قد يقع لها كلام بليغ فهذا ما لم ننكره ولم نخالف فيه، بل قد صرحنا به وقد كنا نود أن نمثل في باب الحذف بقولهم:

شاكي ومين بيسمع مني   باكي ومين بيسأل عني

والمعنى أنا شاك، وأنا باك ولكنه حذف فكان له هذا الحسن وهذا الجمال.

وأما ما اعترضه بأن قول علماء البلاغة بأنه يحذف للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخيل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل أو اللفظ لازم لقوله إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل.

ولا يضرهم أن يدققوا بمراعاة قيود معينة.

ونحن ننقل عبارته بلفظها ليشاركنا القارئ فيهما.

---

(١) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي. ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، شرحه: شاهين عطية، المطبعة الأدبية – بيروت، ط١، ١٨٨٩م، ص ٤٦ .

سلك مسلك التعليل النفسي وهو كما بينه في آخر الكلام معنى يشعر المرء بأثره ولا يدركه ولكن الفلسفي العارف بخفايا النفوس يدركه ويؤمن به.

وإذا كان ذلك فلماذا لم يطبقه على قولهم الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين أليس ذلك لازمًا لقوله إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل إلخ، ولا يضره أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة «بناء على الظاهر»، وكلمة «تخييل»، فإن ذلك هو مقتضى الدقة الفلسفية ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف فإن الفيلسوف لابد أن يحتاط فيجعل كلامه منطقيًا على الواقع كل الانطباق.

الفرق بين العلل التي نذكرها والتي يذكرها المتأخرون أن العلل التي نذكرها هي أمور إذا كان الكلام عليها اكتسب الجمال والروعة سواء أعلمها المتكلم أم لم يعلمها أما العلل التي يذكرونها فهي أمور يقصدها المتكلم فلابد أن يكون عارفًا بها، ولذلك إذا اعترضنا عليهم حين يقولون بأن المسند إليه يُحْذَف لتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ، بأن هذه معان لا تدور بخلد المتكلم ولا يعرفها، لا يلزمنا ذلك في تعليلنا لأننا لم نقل إن المتكلم يقصدها، أما هم فقولهم تخييل العدول أي تخييل المتكلم العدول يقتضى أن المتكلم يعرفه ويقصده، لأنه كيف يخيل شيئًا لا يعرفه ولا يقصده، فقوله ولا يضر أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة: «بناء على الظاهر»، وكلمة «تخييل»، فإن ذلك هو مقتضى الدقة الفلسفية

ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف فإن الفيلسوف لابد أن يحتاط فيجعل كلامه منطبقًا على الواقع كل الانطباق.

قلنا: ذلك يضر كل الضرر لأن المتكلمين ليسوا جميعًا فلاسفة بل الفيلسوف يكون واحدًا في المليون أو أقل، فلا يراعون هذه المعاني الدقيقة والقيود الخفية فيها كل الاحتياط، أما نحن فلم نوجب أن يعرف المتكلم علل البلاغة التي نذكرها، وإنما يعرفها العالم الذي اشتغل بالعلوم الحكمية، وهما جميعًا يحسَّان جمالَ الكَلَام وروعته، وبعد ذلك يختلفان، أما العامي فلا يدرى العلة والسبب، وأما الحكيم فيدرى العلة والأسباب، ومثل ذلك مثل عالم وحكيم يسمعان قطعة موسيقية أو يريان روضًا نضيرًا، فيُطْرَبان ويَعْجَبَان ولكن الحكيم يدرك من تناسق النغم ومن بدائع الصنعة ما لا يدركه الآخر.

وقد بقي من اعتراضات حضرته اعتراض واحد وهو أن بعض العلل التي ذكرتها لازم لبعض، فالهجوم بالمخاطب على المطلوب دَفْعَةً يلزمه دفع الاستثقال والاستكراه، فإن من هجم بك على المطلوب فقد دفع عنك ثقل الفضول الذي تقذي به العين، وأقول وإذا كان أحدهما يلزمه الآخر فماذا يقدح في كونهما شيئين، لا أنه لا يقدح في كونها شيئين وقد عددناهما أمرين لذلك، وهما حقيقتان متميزتان كل التميز، ثم قال: مع أنني كنت أحب ألا يورد في هذا المقام البيت الذي أورده:

قال لي كيف أنت؟ قلت: عليل   سهر دائم وحزن طويل



فإن القريب من النفس أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر، وإن اشتغال المريض بشأنه جدير بأن يحول دون مراعاته لحال السامع، وإذا كان المريض مشغولًا بأمره عن احترام الزائر والاعتدال له وتحيته، فأحرى ألا يفكر في الهجوم به على المطلوب، وأقول هذا الاعتراض يزول بما قدمناه من أن العلل التي علمنا بها حسن الكلام لا يلزم أن يقصدها المتكلم فلا يضرنا أنه مشغول بأمره عن أن يفكر في الهجوم على المطلوب دَفْعَةً، فإن ذلك لازم للحذف سواء أراده المتكلم أم لم يرده، فإن من سمع في جواب كيف أنت؟ عليل، فقد هجم على المطلوب دفعة دون أن يشغل بأمر آخر، وما ارتضاه من أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر لا يتنافى مع ما قلناه فيمكن أن يجتمعا، ولو شئنا المُشَاحة لقلنا إذا كان ضيق المقام لم يمنعه أن يتبسط في الجواب، فيقول عليل سهر دائم وحزن طويل فحرى ألا يضيق بقوله: أنا.

وأُكَرِّرُ شُكْرِي للأستاذ النواوي مرة أخرى وأسأل الله أن يلهمنا الصواب ويجنبنا الزلل.

النحو والنحاة [١] [٢]

بيني وبين الأستاذ إبراهيم مؤلف كتاب (إحياء النحو) معرفة لا أذمُّها ولا أشكو منها، وهي وإن لم تبلغ الصداقة لم يَشُبْهَا دَخَلٌ ولا انحراف، كنا نتقابل لمامًا، فكنت أقوم بما يجب له، وكان يقوم بما يجب لي، اشتركنا مع آخرين في وضع مناهج كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف فأحببته ومِلْت إليه، إذ رأيتنا نتفق في كثير من الآراء الإصلاحية، ورأيته صادق النية فيما كنا نعالج من شئون.

ما كنت أُقَدِّرُ أنه سيأتي يوم أضطر فيه إلى مناقضة آرائه، والوقوف معه موقف الخصومة، ولكن هكذا شاء القدر، وهكذا كان.

---

(١) صدرت مجلة الأزهر هذا المقال بشيء من الإيضاح يبين سببه وهدفه، وجاء نصه كالتالي:
" أشرنا في باب النقد والتقريظ إلى كتاب بهذا العنوان، ألفه ونشره صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل محمد أحمد عرفة المدرس بكلية الشريعة في الرد على كتاب «إحياء النحو» للأستاذ الفاضل إبراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب، الذي اقترح فيه اصلاح النحو على قواعد غير التي وضعها أئمته الأولون، وقد رأينا أن ننشر مقدمة هذا الرد لزيادة بيان الموضوع المتنازع فيه، وحرصًا على نصيحة ثمينة في وجوب تنزه المتناظرين عن هجر القول نقلها عن حضرة صاحب الفضيلة الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر"

(٢) مجلة الأزهر، المجلد التاسع، الجزء الأول، ص ١٢٢-١٢٤. المحرم ١٣٥٧هـ / ١٩٣٧م، ومن الجدير بالذكر أن الشيخ قد ألف كتابًا يحمل عنوان (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة)، ونال بهذا الكتاب عضوية هيئة كبار العلماء سنة ١٩٤١م.



قرأت له كتاب «إحياء النحو» فعرفت منه وأنكرت، وما أنكرت أكثر ما عرفت، فقد أنكرت منه أنه نحل النحاة مذاهب لم يقولوها، ونقدها، وأبان خطلها، فَصَوَّرَ النحاة لقارئي كتابه قومًا بُلْهًا أو ممرورين، يقولون ما لا يُعقل ويفهمون ما لا يفهم، وأنكرت منه أنه انتحل مذاهبهم وهجنهم إذ لم يصلوا إلى ما وصل إليه، أي إلى مذاهبهم، وأنكرت منه أنه قعد قواعد في العربية لو أخذ الناس بها لغيرت من روح العربية، ولأفضى ذلك إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجهها.

وأنكرت منه أنه عمم في الطعن ولم يخصص، حتى أدخل سيبويه وكتابه، وهذا يصرف المتعلمين عن هذه المناهل العذبة، ويصدهم عن هذا الخير الذي يُنَمِّي عقولهم، ويُصْقِل ألسنتهم، ويُفْضِي بهم إلى سر العربية.

أنكرت ذلك كله، ورأيت حتمًا عليَّ أن أكتب كتابًا أنصح به تاريخ العربية الذي أفسده هذا الكتاب، وأَرُدَّ به الأمور إلى نصابها، ولكن تذكرت أنني نقدت قومًا من قبل فأفسد النقد ما بيني وبينهم، ولقيت من خصوماتهم عنتًا، وأن هذا النقد حَرِيٌّ أن يفسد ما بيني وبين الأستاذ.

تذكرت ذلك فأحجمت عن النقد، وعولت على أن أترك الأمور تجري مجاريها، ولكن تمثلت هؤلاء النحاة وهم في أجداثهم[١] يهضمون هذا الهضم بعد أن ملئوا الدنيا علمًا، ويُخاف عليهم هذا الحيف وقد خرصت ألسنتهم الناطقة التي كانت

(١) في قبورهم.

تجلجل في الدنيا، عدا عليهم البلى فأعجزهم عن إقامة الحجة ودفع التهمة، ويَارُبَّ يوم لو رماهم أحد بباطل لدفعوا الشبهة بالحجة، الباطل بالحق الواضح المبين.

وإذا قد آلوا إلى ما آلوا إليه فقد صار حتمًا على أبنائهم الذين تخرجوا عليهم، واغتذوا من علمهم أن يقوموا عنهم بِرَدِّ التُّهَمِ ودَفْعِ العاديات.

هذا واجب إنساني، إذ نصرة المظلوم والأخذ بيد العاجز حق إنساني، ولو اختلفت الدار وشط المزار.

وهو واجب الأساتذة على أبنائهم الذين هذبوا عقولهم في تثقيفهم، وعار على الأبناء أن يُظلم الآباء، ويُعْتَدَى عليهم ولا يدفعوا عنهم هذا الظلم وهذا الاعتداء.

ثم هو واجب اللغة العربية، إذ يجب على أبنائها أن ينفوا عنها تحريف الغالين، وتأويل المقصرين، ثم وهو واجب للعلم في نفسه، إذ يجب على العلماء أن يقروا الأمور في نصابها، ويضعوا الأشياء في مواضعها.

وأخيرًا هو واجب علينا لتلاميذنا، إذ حتم علينا أن نعرفهم الحق من الضلال، وأن نُسَدِّد خُطَاهم، وأن نحكم لهم فيما اختلف الناس فيه.

قلت هذه العوامل كلها في نفسي، فآثرتها على عامل المعرفة، وقلت ما قاله أرسطو: إن أفلاطون صديقي والحق صديقي، ولكن إذا تعارضت صداقة أفلاطون وصداقة العلم آثرت صداقة العلم على صداقة أفلاطون.



لا أكتم القارئ أنني كتبت هذا النقد مرتين، فقد كتبته أولًا بعد أن قرأت الكتاب بإمعان وموازنة، فرأيت المؤلف يبصر النأي البعيد، ويتجاهل الداني القريب، ويدرك الخفي المستور، ولا يدرك الظاهر المكشوف، وينقل أعجاز النصوص ليستشهد بها على ما رآه، ولو نقلها كلها صدورها وأعجازها لدلت على نقيض ما رآه، فآمنتُ أنه لم يؤت من جهل، وأنه مدرك مذاهب النحاة على ما هي عليه من حق وسمو، وإنما شَوَّهَهَا ومسخها عن علم، ونسب للنحاة التقصير عن علم، وانتحل مذاهبهم عن علم، وحاربهم بها عن علم بأنها أسلحتهم، وأفسد ما أفسد من قواعد اللغة عن علم وعن قصد، وآمنت أن الدكتور طه حسين عندما أثنى على الكتاب كان متآمرًا مع المؤلف على إخفاء الحق وستر الواقع، للطعن في ميراث السلف، والإعلاء من شأن تفكيرهم الحديث.

آمنت بهذا وذاك، فكتبت الكتاب بهذه العقيدة، فقسوت عليهما كل القسوة، واشتددت عليهما كل الشدة، ووقف مواقف عدة أبين هذا ومبلغَ صاحبه من الأمانة في العلم، وخطر هذه الطريقة على التفكير وعلى المتعلمين، وطالما وقفت حائرًا لا أدرى من أي حاليهما أعجب: أمن جرأتهما على ستر مذاهب النحاة وهي لا خفية ولا مستورة، أم من جرأتهما على انتحال هذه المذاهب والتزين بها، وخدعة الناس عن هذه الرواية التمثيلية، وإيهامهم أنها الواقع لا ريب فيه.

كتبت النقد وأنا منطو على هذه العقيدة فجاء لاذعًا شديدًا قارسًا، ثم أطلعت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي

على شيء من التدبير في هذا الكتاب، فغير رأيي في هذا التدبير، وقال: انقد الفكرة وَدَعْ صاحب الفكرة، وليكن نقدك عفيف اللفظ، تقي الأسلوب، وإذا كان الناس قد اعتادوا سماع الهجر والفحش في المساجلات العلمية فما أحراك أن تسمع الناس نوعًا آخر من النقد تتجلى فيه نزاهة العلماء على ساقط القول، ويتجلى فيه صدق اللهجة وعفة الأسلوب، والعدل في الحكم، والإنصاف في الموازنة، وبدل أن تصور مخالفيك كما تصورتهم، يحسن أن تتصورهم رفقة في سفر انقطع بهم الطريق واعتسفوا طرقًا مهلكة، فرأيتهم وأنت على الجادة يتخبطون في ليل دامس، وصحراء مهلكة، فيجب أن يأخذك من الشفقة والرحمة عليهم ما يأخذ هذا المسافر الذي على الطريق من الرحمة والشفقة على هؤلاء المتعسفين.

أدب كريم، وخلق عظيم، وهدي نبوي، وسجايا حسان، لا تكون إلا لمن كان مثل الأستاذ الأكبر، راض نفسه على أن يرى الناس جميعًا أبناء وأخوة، يسره إصابة المصيب، ويشفق على المخطئ، ويدعو له بالهداية والتوفيق ويعم الجميع بالمحبة والإحسان!

وما سمعت هذه النصائح الغالية حتى شرح الله صدري لما قال، فرجعت إلى الكتاب فكتبته مرة ثانية، وأسقطت منه هذه المواقف التي كنت أقفها من صاحب الفكرة، وجعلت هدفي الفكرة، فما كان في الكتاب من حلم وأدب في المناظرة فإلى الأستاذ الأكبر مرجعه، وإلى هذه النصيحة مرده، وما فيها من نَبْوٍ واعتساف فمن نزوات النفس وجماح الطبع، وللطبع جموح وللنفس نزوات.

بيئة البصرة وأثرها في النحو العربي [١]

هناك أمثلة تدور بخاطر من يعاني تاريخ النحو العربي، وهي: لماذا وضع بالعراق دون سائر الأقطار الإسلامية كجزيرة العرب ومصر والشام؟ ولماذا بُدئ به أول ما بُدئ في البصرة دون سائر أمصار العراق؟ إن المطلع على تخطيط البصرة يعلم أنها خُطَّت لتكون مَشْتَى لجيوش المسلمين إذا شتوا، ويكتسون فيها إذا انصرفوا من غزوهم، وهي على حدود البادية وقد نزح إليها كثير من قبائل العرب وكثير من الموالي[٢]، وكان يَفِدُ إليها كثير من الأعراب، وقد شغلهم أمر مهم كيف يحفظون القرآن من اللحن، فَهُدى أبو الأسود[٣] إلى حفظه من اللحن في الكتابة باهتدائه إلى الشَّكل، ثم اهتدوا بعد ذلك إلى حفظه من اللحن في القول والقراءة جميعًا لما هدوا إليه من استخراج قواعد النحو واستنباطها.

كانت الكثرة الكاثرة من سكان البصرة للعرب، وكان فيها عدد أقل من الموالي[٤]، فظهر اللحن في قراءة القرآن وفى اللغة العربية بمخالطة الموالي،

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثامن عشر، الجزء الأول، ص ٨٣-٨٧.

(٢) كالأصبهانيين الذين أتوا بها وأقاموا فيها. فتوح البلدان، (٣٧٣). (الكاتب)

(٣) هو ظَالِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سُفْيَانَ بْنِ عَمْرٍو، المشهور بأبي الأسود الدؤلي، ولد سنة ١٦ ق. ه، ووضع علم النحو، توفي بالبصرة سنة تسع وستين في طاعون الجارف، وعمره خمس وثمانون سنة. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، (٢/٥٣٥).

(٤) المولى المُعتَق انتسب بنسب مُعتِقِه ولهذا قيل للمُعتَقين الموالي، مع انتشار الإسلام أُطلق على المسلمين من غير العرب اسم الموالي.

والمسلمون جَدُّ حُرَّاصٍ على القرآن الكريم أن يُغَيَّرَ أو يُحَرَّف، وعلى لغتهم أن يدخلها التحريف والتبديل.

هذه البيئة الطبيعية ليست موجودة في سائر أقطار الإسلام، فليست موجودة في جزيرة العرب لأن سكانها غالبيتهم العظمى عرب، فهي أبعد عن اللحن وفساد اللغة، وليست موجودة في سائر بلاد العراق لأن سكان هذه البلاد كان أكثرهم من الفرس ولم تكن جمهرتهم من العرب، نعم ما كان يشارك البصرة في ذلك إلا الكوفة، ونحن نعتقد أنه لو لم يظهر النحو في البصرة لظهر في الكوفة، ولذلك ظهر فيها بعد قليل، وشاركت في قواعده بجزء ليس بالقليل، ومهما يكن من شيء فقد سبق العراق أقطار الإسلام، وسبقت البصرة خاصة سائر أمصار العراق في وضع النحو، وذهبت بفخر ذلك، وكان لها السبق والتقدم، وكان لعلمائها الفضل في ابتداء النحو تبويبه، ووضع قواعده وتفريع فروعه.

وإن الكتاب لسيبويه ليدلنا على أن البصرة ولدت النحو وربَّتْهُ ونَمَّتْهُ حتى لو لم يشاركها فيه مصر من الأمصار فخرج مستغنيًا بها عن غيرها، ولم يضره ذلك في قليل ولا كثير، إن الكتاب لسيبويه أحاط بقواعد النحو وأصوله وكثير من فروعه وعلله وحكمة الواضع فيما وضع وكثير من أقيسته، حتى جاءنا علمًا قد طاب واستوى، وقد سار الكتاب مسير الشمس في جميع الأقطار الإسلامية، واشتغل الناس به درسًا وتمحيصًا وفهمًا وشرحًا واختصارًا، بل إنه لم يُخدم كتاب في العربية مثل ما خُدِمَ الكتاب لسيبويه، وقد كان العلماء المتقدمون لا يرونه يُعَلِّمُ النحو

فقط، وإنما يعلم الابتكار والاستنتاج أيضًا، وقد كانوا يستكثرون على قدرة عالم واحد أن يفتح مثل الكتاب فنحلوه لاثنتين وأربعين عالمًا، قال ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانًا منهم سيبويه.

لقد كان لبيئة البصرة وجوِّها وزمانِها ومكانِها دخل كبير في أن كان ما استنبطوه من قواعد النحو على ما هو عليه، ولم يكن على غيره مما استنبطه علماء الكوفة أو غيرهم من علماء الأمصار، ونحن نشير إلى طرف من ذلك.

كانت البصرة قريبة من البادية، وفيها كثير من العرب، ويفد إليها كثير من الأعراب، ووضع النحو في زمن متقدم، فنشأ عن ذلك في نفس علمائها تقديسهم للغة العرب، وللعرب المتكلمين بالعربية، فكانوا لهذا يرون أن «العرب لم تعدل من شيء إلى شيء إلا لشيء»، ولم يفطنوا إلى أن المتكلمين باللغة قد يظنون في الشيء أنه من باب كذا فيعطونه حكمه ويكون ذلك توهمًا منهم، أما الكوفيون فقد شغلوا بالنحو من زمن متأخر، وكانوا بعيدين عن البادية، ولم يكن يطرقهم من الأعراب كثير[1]، وكانوا أقرب إلى الترف والمدنية، فلم تكن فيهم هذه القداسة للُغة العرب والمتكلمين بها، فَجَوَّزوا

(١) نزل الكوفة من اليمن اثنا عشر ألفًا ومن نزار ثمانية آلاف. فتوح البلدان صـ٢٨٥، وأقام بها أربعة آلاف من الديلم. ٢٨٨ فتوح البلدان، ٢٨٩. (الكاتب)

عليهم التوهم كما يجوز علينا في محادثاتنا فنظن أن الشيء من باب فنجريه عليه وهو من غيره فما كان ينبغي أن يأخذ حكمه وسأمثل لذلك:

ورد لفظ أشياء ممنوعًا من الصرف، وهو أفعال جمع شيء كبيت وأبيات، وأفعال لا يمنع من الصرف، فوقف سيبويه البصري موقفًا أظهر فيه القداسة لمنهج العرب فقال: إن أشياء أصلها شيآء فهي فِعْلَاء، ثم حصل قلب مكاني فجيء بالهمزة في أولها وقيل أشياء فهي على وزن لَفْعَاء، وإذا كان أصلها فعلاء وفعلاء تمنع من الصرف فلا غرابة في منعها من الصرف.

جاء الكسائي الكوفي وقال: إن أشياء على وزن أفعال ولكن العرب توهموا أنها على وزن فعلاء فمنعوها الصرف، ثم جرت في لغة القرآن على ما نطق به العرب، وليس بغريب أن يتوهم في الشيء أنه من باب لمشابهة بينهما فيُعْطَى حُكْمُه.

ولهذا السبب ذاته، وهو تقديس اللغة، منع البصريون أشياء محافظة منهم وتزمتًا، كما سبق بيانه.

ورد عن العرب فعال ومفعل للتكرير ممنوعًا من الصرف فيما قبل خمسه، كثناء ومثنى وثلاث ومثلث ورباع ومربع، ولم يرد في خمسة وما بعدها، فامتنع البصريون عن الإتيان بصيغة فعال ومفعل في الخمسة وما بعدها وأجازه الكوفيون، وحجة البصريين أنه لم يرد عن العرب في هذه الأعداد فلا نجيء به، وحجة الكوفيون أنه جاء فيما قبلها فنقيس عليه غيرها، وليت شعري ماذا منع البصريين من القياس مع

أنهم يقولون به؟ فإن قالوا كان يجب لنقيس أن يرد خماس وخمس وسداس ومسدس وسباع ومسبع، قلنا إذا ورد فما حاجتكم إلى القياس إذ أنه يكون قد ثبت بالسماع؟

وبالجملة فقد كان البصريون يتشددون في القياس فلا يقيسون إلا على ما كثر، ولا يقيسون على الشاهد الواحد ولا النادر والكوفيون لا يتشددون هذا التشدد، فيقيسون على ما ورد ولو نادرًا، ويقيسون على الشاهد الواحد ولو لم يأت في الباب غيره. ورد عن العرب مثل:

أقاطن قوم سلمى أم نووا ظعنا ... إن يظعنوا فعجيب عيش من قطنا [1]

ومثل:

خَليلَيَّ ما وافٍ بعهدي أنتما ... إذا لم تكونا لِي عَلَى مَنْ أقاطِعُ [2]

مما وقع الوصف فيه فاعلًا أغنى عن الخبر إذا اعتمد على نفي أو استفهام فقاس البصريون والكوفيون ذلك.

وورد:

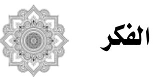
خَبيرٌ بنو لِهْبٍ فلا تك مُلْغيا ... مقالةَ لِهْبِيٍّ إذا الطيرُ مَرَّتِ [3]

---

(١) البيت بلا نسبة في أوضح المسالك، (١/ ١٩٠)، وشرح قطر الندى، ص ١٢٢.

(٢) البيت بلا نسبة.

(٣) هذا البيت ينسب إلى رجل طائي، ولم يعين أحد اسمه.



فرفع الوصف فيه فاعلًا دون أن يعتمد على نفي أو استفهام، فقاس الكوفيون على هذا الشاهد، وأجازوا أن يرفع الوصف الفاعل السَّاد مَسَدَّ الخبر ولو لم يسبقه نفى أو استفهام، وامتنع البصريون من القياس لقلته، وهم لا يقيسون إلا على ما كثر.

والكوفيون منغمسون في حضارة الفرس، فعلموا حاجتها إلى تيسير اللغة، وعلموا أن اللغة خلقت لتخدم أصحابها لا ليكونوا خدمًا لها، والبصريون وإن كانوا على حضارة ولكنهم أقرب إلى البداوة فلم يدركوا هذه الحاجة، لذلك توسع الكوفيون في القياس وأقلَّ البصريون منه.

وأنت تعلم أن القياس يوسع اللغة ويذللها للحاجة المتنوعة، ويمكن من استخدامها في الأغراض المختلفة، والوقوف على السماع أو الإقلال من القياس يحُدُّ من ذلك، وكلما كانت الأمة أعظم تقديسًا للعقل وأشد استعمالًا للقياس وأقل حظًا من السماع، وكلما كانت الأمة أقل حضارة كانت أحفل بالسماع وأكثر إهمالًا للقياس الذي هو أثر العقل والتفكير.

ولقرب البصرة من البادية ومخالطتها للأعراب الأقحاح وسهولة الأخذ عنهم لم يأخذوا إلا عنهم، ولبعد الكوفة عن البادية وعدم تيسر الأخذ إلا عن العرب المخالطين اكتفوا بالأخذ عنهم، ولذلك قال اليزيدي البصري:

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونـــــه ... على لغي أشياخ قطر بل

فكلهم يعمل في نقض ما ... به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأشياعـــــه ... يرقون بالنحو إلى أسفل

وقال الرياشي البصري: «نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب[1]، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء يأخذون اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ[2] وأكلة الشواريز[3]».

ولست أزعم أن تأثير البيئة هذا مُطَّرِدٌ فينتج آثاره دائمًا، ولكننى أقول إنه الكثير الغالب، فلا ينافي هذا أن يقول البصريون بما كان ينبغي أن يقول به الكوفيون، وأن يقول الكوفيون بما كان ينبغي أن يقول به البصريون لو جرى القياس على اطراده، ولا ينافي أيضًا أن يوافق بعض البصريين الكوفيين في مذهبهم، وأن يوافق بعض الكوفيون البصريين في رأيهم.

وبعد، فقد طال بنا القول، وسنرجع بقية الحديث إلى فرصة أخرى، إن شاء الله تعالى.

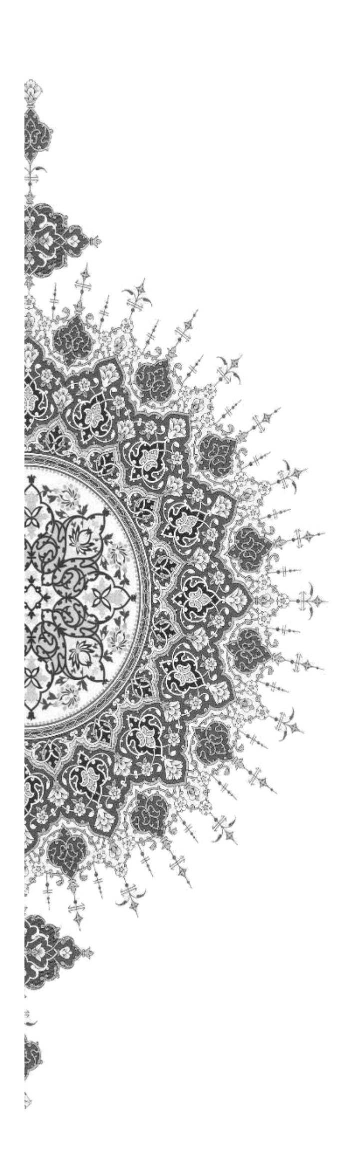
---

(١) أي خشني الجلود الذين يصيدون الضب.

(٢) الكواميخ: جمع كامخ وهو الأدام.

(٣) الشواريز: جمع شيراز وهو اللبن الرائق المستخرج ماؤه.

المجموعة الرابعة
قضايا فقهية



المجموعة الرابعة
قضايا فقهية

تحتوي على المقالات التالية:

١ - هِبَةُ بنات القبائل والأخوات وهبة الهَرِم.

٢- بين التشريع والسياسة في عصر الرشيد.

٣- تحديد الملكية في الإسلامية.

٤- الختان.

هِبَةُ بنات القبائل والأخوات وهبة الهَرِم [1]

وجَّه إلينا المسيو إيفون لينان[2] هذا السؤال:

ورد في التاسولي[3] الجزء الثاني من كتاب «البهجة شرح التحفة»: من الهبات الباطلة هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن وهبة الهَرِم.

فهل صحيح حسب رأى المالكية أن الهبات المذكورة باطلة، وهل رأي التاسولي هذا هو الرأي الراجح والمعمول به أم لا؟

الجواب:

ينقل بعض المالكية في كتبهم أن هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن باطلة، وهبة الشيخ الهَرِم والمرأة الهَرِمَة كذلك باطلة، ولكن ليس ذلك لنقص في بنات القبائل والشيخ الهرم عن التصرف؛ بل لعلل أخرى وسنذكرها:

أما بطلان هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن فللإكراه المعنوي وعقد المُكْرَه غير لازم، وذلك لأن بنات القبائل قد شاع عدم ميراثهن، ولو امتنعن من الهبات لأوجب ذلك استهانتهن وقطعهن والغضبَ عليهن وعدم تحملهن إذا غضبن من

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الخامس، الجزء الثاني، ص ٢٠٢-٢٠٣

(٢) لم أقف له على ترجمة، ويبدو أنه كان أحد الأجانب الموجودين في مصر والمهتمين بالقضايا العلمية.

(٣) يقصد به مؤلِّف كتاب: البهجة في شرح التحفة، وهو علي بن عبد السلام بن علي، أبو الحسن التُّسُولي (ت: ١٢٥٨هـ).

أزواجهن، فإذا وهبن في هذه الحالة كن مكرهات على الهبة، فمن النظر إليهن أن تبطل هبتهن؛ لأنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس.

وأما بطلان هبة الشيخ الهرم والمرأة الهرمة، فذلك إذا ادَّعى أنه وهب للنفقة عليه، فهذه الهبة تكون باطلة، لأنها تصير بيعًا في نظير النفقة عليه والنفقة عليه مجهولة لا يدرى كم يعيش ولا كم تبلغ نفقته، فحصل جهل في أحد العِوَضين، فحصل البطلان لذلك، وعبارة المالكيين تفيد ما ذكرناه، قال أبو عبد الله محمد التاودي في شرحه على المعاصم على أرجوزة ابن عاصم (١): من الهبة الباطلة هبة بنات القبائل والأخوات لقرابتهن مع اشتهار عدم توريثهن، فلهن الرجوع في حياتهن، ولورثتهن القيام من بعدهن، لأنهن لو امتنعن من الهبات لأوجب ذلك استهانتهن وقطعهن والغضب عليهن وعدم الانتصار لهن إذا أصابهن شيء من أزواجهن، ولا فرق بين المتجالات ذوات الأولاد وغيرهم، قاله الباجي وأبو الحسن، صحَّ من المعيار ومثله في الدر النثير.

وقال التاسولي في شرح البهجة على التحفة:

من الهبة الباطلة أيضًا هبات الهَرِم من الرجال والنساء كما في العلمي وغيره، والقول قولهما إنهما وهبا ليقوم الموهوب له بنفقتهما ومؤنتهما، فيكون من أفراد قول الخليل: وكبيعه بالنفقة عليه حياته، ومعلوم أن الإنسان مصدق في الوجه الذي

(١) ج٢، ص ٤٠٥.

أخرج به ماله عن ملكه، ولم ينفرد التاسولي بالقول المتقدم في بطلان هبة بنات القبائل، بل قاله الباجي وأبو الحسن ونقله وأقره التاودي، وله وجه صحيح.

وأما بطلان هبة الهرم والهرمة فمبني على أن هبة الثواب كالبيع يلزم فيها تعيين العوض وهو مرجوح، والراجح أنه لا يلزم فيها تعيين العوض كنكاح التفويض، وعلى ذلك لا تبطل بعدم التعيين ويرجع فيها إلى ثواب المثل.

بين التشريع والسياسة في عصر الرشيد [1]

يرى الإسلام أنه لابد للأمة من حكومة يناط بها العمل على مصلحة المجموع، ودرء المفاسد عنه، والفصل في الخصومات، ورد اعتداء القوي على الضعيف.

ولكن هذه الحكومة قد يكون الفساد منها، فتصبح عبئا ثقيلا علي الشعب، وتكون أشد عليه من كل شيء عداها، أراد الإسلام الاحتياط لذلك؛ فعمد إلى قانون شرعه، بين فيه ما يجب على الرعاة وما يجب لهم، وما يجب علي الرعية وما يجب لها، وكفل هذا القانون أن يعيش الجميع في ظله في خير، لا يشقى هؤلاء بأولئك ولا يشقى أولئك بهؤلاء.. وجعل الإسلام القائمين على هذا القانون العلماء المجتهدين الذين يستنبطون الأحكام، ويضعون القواعد ويقيسون ما لم يذكر في الشرع على ما ذكر، ومالم يُبَيَّن على ما بُيِّنَ فيه.

وجرى العمل في عصور الإسلام على أن يكون التشريع بعيدًا عن السياسة، غير خاضع لها، لا يحاول رجال السياسة – أولا يظهرون أنهم يحاولون – أن يسيطروا على التشريع ورجاله، ويأبى رجال التشريع أن يسيطر عليهم رجال السياسة.

---

(١) مجلة الهلال، العدد رقم (١٠) ١ أغسطس ١٩٤٠م، ص ١١٨٠-١١٨٢م، وقدمت المجلة احتفاء بهذا المقال بالنص التالي: (بين التشريع والسياسة، أو بين السلطتين التشريعية والتنفيذية صراع وتنازع من زمان قديم، والأستاذ محمد عرفة يصور لنا في هذا المقال جانبا من هذا النزاع في عصر الرشيد، وكيف لجأ بعض المشرعين إلى الحيلة وحسن التخلص، وآثر البعض الآخر سبيل الصراحة فلقي في ذلك عنتا وأذى)

كان أبو حنيفة ومالك والشافعي والأوزاعي رضوان الله عليهم . يستنبطون الأحكام والقوانين من الكتاب والسنة والإجماع والقياس بعيدين عن السلطة التنفيذية، لا تسيطر عليهم، ولا يقبلون منها سيطرة، ولا سلطانا.

كانوا يستنبطون من الأحكام والقوانين ما هو في مصلحة السياسة حينًا، وما هو في غير مصلحتها حينا آخر، وما كان هذا ولا ذاك مقصدًا لهم، وإنَّما كان يأتي عن المصادفة والاتفاق، حسبما تقتضيه طبيعة البحث، فان اقتضي البحث حُكْمًا في مصلحتها فذاك، وإن اقتضي حُكْمًا في غير صالحها فذاك، يقررون الأول غير متلومين. ويقررون الثاني غير متحرزين.

وقد كان ذلك لأن الاسلام أعطى المشرعين سلطانا علي التشريع، وجعلهم أمناء عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩)

وأوعد علي الخيانة في التشريع أشد الوعيد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٩)

وفي فصل هاتين السلطتين المصلحة كل المصلحة، فإن الأحكام الشرعية هي القانون الذي حد مصلحة الراعي ومصلحة الرعية، وهي التي تبسط سلطانها على

الجميع دون استثناء، ويجب أن يكون القائمون بها في منجاة من التأثر بالسلطة التنفيذية لئلا يميلوا معها فيجاروا في استنباط الأحكام – الحاكمين، ويجوروا على المحكومين.

وكانت السياسة تحاول أن تبسط سلطانها على التشريع في بعض المسائل، فكان الفقهاء يدفعونها عن ذلك، تارة بالحيلة فينجون منها وتارة بالمقاومة فينالهم شرها.

دعا المنصور الخليفة العباسي أبا حنيفة، فلما كان عنده قال الربيع حاجب المنصور – وكان يعادي أبا حنيفة –: يا أمير المؤمنين، هذا أبو حنيفة يخالف جَدَّكَ، كان جَدُّكَ عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين جاز الاستثناء، وقال أبو حنيفة لا يجوز الاستثناء إلا متصلا باليمين. فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، إن الربيع يزعم أنه ليس في رقاب جندك بيعة. قال: وكيف؟! قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم. قال: فضحك المنصور، وقال: يا ربيع، لا تعرض لأبي حنيفة. فلما خَرَجَا قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي، قال: لا، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي.

فقد أراد الربيع أن يُحَكِّمَ الخليفة في استنباط أبي حنيفة الفقهي، ويلزمه بألا يخالف ابن عباس جد الخليفة، ولكن أبا حنيفة تخلص بلطف حيلته.

وفي زمن هارون الرشيد سُعِي بمالك بن أنس عالم المدينة وإمامها إلى الأمير العباسي جعفر بن سليمان والي المدينة من قبل الخليفة الرشيد، وقيل له: إنه لا يرى أيمان بيعتكم شيئا، فضربه بالسياط ومده للضرب حتى انخلع كتفاه.

كان مالك بن أنس يبحث بحثًا علميًّا فيمن يكره على فعل شيء فيفعله، أيكون مُؤَاخَذًا بهذا الفعل أم لا يكون مؤاخذًا به؟ وهذه مسألة يبحث فيها رجال التشريع ورجال الأخلاق يبحث فيها الأولون ليعلموا أتكون مسئوليته على المرء في فعل ما أكره عليه أم لا؟ ويبحث فيها الآخرون ليعلموا مدى تأثير الفعل المكره عليه في أخلاقية فاعله. وأدى مالكًا بحثُه إلى أن بعض أفعال المكره كأيمانه وطلاقه لا يؤاخذ بها، وكان ما أداه إلى هذه النتيجة، قوله ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ " (١).

ثم إن البيعة قد تقع بإكراه، ويقسم أهل الحل والعقد على أن يكون رجل ما خليفة عليهم، فهذه أيضا من أيمان المكره التي لا تلزم ولا يؤاخذ بها صاحبها.

نمى ذلك إلى جعفر بن سليمان فرآه ينقض عليهم أمرهم من أساسه، فكل مكره على البيعة في حِلٍّ من الخروج عليهم ونبذ بيعتهم، فعاقب مالكا على ذلك كما أسلفنا.

---

(١) أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه، أبواب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٦) .

وماكنا نحب أن تقع هذه الحادثة – ولا أمثالها – في عهد الرشيد، فالإمام مالك من العلم والورع والتقى والمهابة بالمكان الذي لا يجهل شأنه، وما كان منه لم يكن إلا اجتهادًا لا يختص بمكان ولا زمان، لم يقصد به غرضًا ولا حادثة معينة، فلو كان في الخلافة غير العباسيين وكان في الحكم غير الرشيد لما تغير اجتهاده في هذه المسألة، ولا قال بغير ما قاله، فلم يكن غرضه تحريضًا على الخروج على العباسيين، ولا إشعال نار الثورة، فيكون مستحقا لهذا الجزاء، وكان ينبغي أن يقدر ذلك كله، فلا تهدر حرمته، ولا تمتهن كرامته وكان ما كسبه مالك من هذه الحادثة أكثر مما ضره، فما زال أمره يعلو بعد ذلك، وشأنه يرتفع، وكأن هذا الضرب كان وسام الشرف قد قُلِّدَه من قبل الله عز وجل، فوقرته العامة وعظمته الخاصة، لأن الشَّعْبَ جُبِلَ علي حُبِّ المظلوم، وكراهية الظالم، وعلى حب الفضائل الاجتماعية، فهو يوالي جد الموالاة من استمسك بالحق وشب عليه، ولو أوذي في سبيله. ويرى أن هذا منتهى التضحية، فقد كان قادرًا على أن يوالي الظالم، ويكسب عطفه وجاهه بكتمان الحق وخيانة العلم، ولكنه آثر إعلان الحق والأمانة في العلم على الجاه والمال، بل آثرهما على العافية في النفس والبدن.

وبودنا أن نعرف: أكان الرشيد على علم، فاستشاره جعفر بن سليمان في ضرب مالك، فيكون عليه جزء من التبعة، أم استبد جعفر بالأمر ولم يستشعر الرشيد،



وتصرف هذا التصرف بنفسه، فتكون عليه التبعة كلها كاملة غير منقوصة، ويكون الرشيد منها براء.

إن المصادر التي بين أيدينا كلها تذكر جعفر بن سليمان، ولا تذكر الرشيد، ولا أنه استشير في هذا وأذن، فالتبعة على جعفر - وليس على الرشيد منها شيء - فهو الذي يتحمل وزرها ويتولى كبرها.

ولا يخفف التبعة عن جعفر أن الوشاية ألقيت إليه بأن مالكًا ينقد أيمان البيعة بذاتها ليقلل من قيمتها، ويحكم على الخروج على الدولة، فقد كان على جعفر أن يتثبت ويتبين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

تحديد الملكية في الإسلامية(١)

لقد تغيَّرت أوضاع وتبدلت نُظُم، وسُنَّتْ قوانين في هذا العهد الجديد(٢)، ومن القوانين التي سُنت قانون تحديد الملكية الزراعية، والناس يتساءلون عن رأي الفقه الإسلامي فيه، وهل في ذلك شيء سلف عن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين؟

ونحن سنبين هنا أن الإسلام يمنع التفاوت الكثير في الأرض الزراعية، ويحرص على ألا تتجمع في جانب من الأُمَّةِ فيكون فيه الغنى والعزة والقوة، وتُحْرَمُهَا الجوانب الأخرى فيكون فيها الفقر والعجز والضعف، وما وقع في مصر إلى الآن من المِلْكِيَّات الكبيرة حتى صار رجل واحد يملك آلاف الأفدنة وعنده عبيد الأرض مثل هذا العدد يزرعونها له ويؤدون له غلاتها، لم يكن بإذن الإسلام، وعلى الرغم من تعاليمه وقع سوء توزيع الأرضين مما يمقته الإسلام ويقي الأمة إياه قبل أن يقع؛ لأن الوقاية خير من العلاج، ويعالجه إذا وقع، وقد عالجه الإسلام قديمًا بمثل ما عالجته الدولة اليوم فالتاريخ يعيد نفسه.

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الثاني، ص ١٤١-١٤٥، غرة صفر ١٣٧٢هـ / ٢٠ أكتوبر ١٩٥٢م.

(٢) يقصد عهد ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.



قد يستغرب السامع هذا الذي أقوله من أن الإسلام نزع بعض الأرضين من أيدي مالكيها بعد أن رآها تتجمع في جانب من الأمة وتَصْفُر[١] منها جوانب أخرى، ومن أنه منع ذلك قبل أن يقع، ولكن الغرابة ستزول عندما نورد من الآثار ما يدل على ذلك.

رُوِي عن يزيد بن أبي حبيب، أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص يوم افتتح العراق: «أما بعد، فقد بلغني كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم، وما أفاء الله عليهم، فانظر ما اجلبوا به عليك في العسكر، من كراع أو مال: فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها؛ ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء»[٢].

علم من قواعد الإسلام ومن عمل الرسول أن ما غنمه المسلمون من مال وأرض يقيم أربعة أخماسه على المجاهدين، وقد قسم رسول الله أربعة أخماس أرض خيبر على المجاهدين فلما فتح المسلمون العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص سأل المقاتلون سعدًا نصيبهم في الأرض، وطلبوا أربعة أخماسها فمنعه عمر، وقال: أمَّا ما غنموه

(١) تَصْفُر: تخلو.

(٢) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ١٣٦. كتاب الخراج، أبو يوسف، ص٢٤، وكتاب الخراج، يحي بن آدم القرشي، ص٢٧، ٤٨، ويزيد بن حبيب راوي هذا النص عالم مصر وإمامها قال فيه الليث بن سعد: يزيد عالمنا وسيدنا، توفى سنة ١٢٨هـ

من منقول فاقسمه بينهم وأما الأرض والأنهار فلا تقسمها واتركها بأيدى عمالها ليزرعوها ويؤدوا خراجًا يُقسم على المسلمين، وعَلَّل عمر ذلك بأنه لو قسمها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء فجعلها باقية على حالها يملكها المسلمون جميعًا، وقسم خراجها بين المسلمين مخافة أن يحوزها المقاتلون فلا يبقى شيء لمن يأتي بعدهم من المسلمين، فأنت تراه قد منع من تكدس الأرض في جانب من المسلمين وإخلاء الجانب الآخر منها قبل أن يقع.

وورد هذا المعنى في حديث آخر عن إبراهيم التيمي، قال: لمَّا فتح المسلمون السواد قالوا لعمر: اقسمه بيننا، فإنا افتتحناه عُنْوَة، قال: فأبى، وقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين؟ وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه، قال: فأقر أهل السواد في أرضيهم، وضرب على رءوسهم الجزية، وعلى أرضيهم «الطسق»، أي: الخراج ولم يقسم بينهم[1].

ولم يكن ذلك بأرض السواد بالعراق فحسب، بل وقع مثله في أرض مصر نفسها، حدَّث سفيان بن وهب الخولاني، يقول: لما افتُتِحَتْ مصرُ بغير عهد، قام الزبير فقال: يا عمرو بن العاص، اقسمها، فقال عمرو: لا أقسمها، فقال الزبير: لتقسمنها، كما قسم رسول الله ﷺ خيبر، فقال عمرو: لا أقسمها، حتى أكتب إلى أمير المؤمنين فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن دعها حتى يغزو منها حَبَلُ

(١) كتاب الأموال لأبي عبيد بن سلام، تحقيق: د. محمد عمارة ١٣٥.

الحَبَلَة[١] قال أبو عبيد القاسم بن سلام الذي روى هذا الحديث في كتابه الأموال: أراه أراد: أن تكون فيئًا موقوفًا للمسلمين ما تناسلوا، يرثه قرن بعد قرن، فتكون قوة لهم على عدوهم[٢].

ففيه روايات متضافرة على معنى واحد، وهو أن عمر منع المقاتلة ما كانوا يرونه حقًا لهم بمقتضى الكتاب وعمل الرسول ﷺ من قسمة أربعة أخماسها عليهم لئلا يحوزها الحاضرون ولا يبقى منها شيء لمن يأتي بعدهم.

ولم ينفرد بذلك عمر، روي مثله عن علي ومعاذ بن جبل، عبد الله بن أبي قيس أو عبد الله بن قيس الهمداني قال: قدم عمر الجابية، فأراد قسم الأرض بين المسلمين، فقال له معاذ: والله إذن ليكونن ما تكره، إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون، فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدًا، وهم لا يجدون شيئًا، فانظر أمرًا يسع أولهم وآخرهم[٣].

---

(١) حبل الحبلة: نِتاج النِّتاج وولد الجنين الذي في بطن النافة، وهي الأنثى التي هي حبل في بطن أمها فينتظر أن تُنْتَجَ من بطن أمها، ثم ينتظر بها حتى تشب ثم يرسل عليها الفحل فَتَلْقح. لسان العرب، مادة (حبل)، مج٢ (٤/ ٢٣)

(٢) الأموال لأبي عبيد بن سلام، تحقيق: د. محمد عمارة ١٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦ – ٣٧.

وأشار بمثل ذلك علي حين استشاره عمر، فهؤلاء النفر من جلة الصحابة: عمر وعلي ومعاذ بن جبل، اتفقوا على منع المقاتلة عن قسمة الأرض بينهم رعاية لمصلحة بقية المسلمين لئلا يحوزها المقاتلة ولا يبقى شيء لمن يجيء بعدهم، وقد وافقهم الصحابة وجرى العمل عليه في أيام عمر والخلفاء من بعده فقد منعوا التفاوت الشديد في امتلاك الأرض قبل أن يقع.

وأما أنه عالجه بعد أن وقع، فقد ورد عن قيس بن أبي حازم، قال: «كانت بجيلة (وهي قبيلة من المسلمين) ربع الناس يوم القادسية فجعل لهم عمر ربع السواد، فأخذوه سنتين أو ثلاثًا، فوفد عمار بن ياسر إلى عمر، ومعه جرير بن عبد الله، فقال عمر لجرير: يا جرير، «لولا أني قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم، وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم» ففعل جرير ذلك، فأجازه عمر بثمانين دينارًا»[(١)].

وورد أن امرأةً مِن بَجِيلَةَ يقال لها أُمُّ كُرْزٍ قالت لعمر: يا أمير المؤمنين، إن أبي هلك، وسهمه ثابت في السواد، وإني لم أسلم، فقال لها: يا أم كرز، إن قومك قد صنعوا ما قد علمت – أي تسليم الأرض –، قالت: إن كانوا قد صنعوا ما صنعوا فإني لست أسلم حتى تحملني على ناقة ذلول، عليها قطيفة حمراء وتملأ كفي ذهبًا، قال: ففعل عمر ذلك، فكانت الدنانير نحوا من ثمانين دينارًا.

---

(١) كتاب الأموال، ص ١٣٩.



وحادثة قبيلة بجيلة تشبه ذلك القانون الذي أصدرته الدولة بتحديد الملكية الزراعية فهما يجتمعان في أنهما أخذا الأرض ممن كانت تحت أيديهم بعوض يؤدى لهم نظرًا لمصلحة المجتمع، فقد قال عمر: لولا أني قاسم مسؤول لكنتم على ما جعل لكم، وأرى الناس قد كثروا، فأرى أن ترده عليهم مع شيء من الفوارق:

منها: أن عمر نزع الأرض كلها، والقانون نزع ما زاد على مائتي فدان وأبقى له مائتين، وهذا الفرق لا يؤثر لأنه إذا جاز أن ننزع الأرض كلها ممن هي بيده، فلأن يجوز أن ننزع بعضها ويبقى بعضها من باب أولى.

ومنها: أن عمر جعلها وقفًا على المسلمين يزرعها من يزرعها على خراج يؤديه يصرف على المسلمين، أما القانون فقد مَلَّكها لغيرهم من الفقراء.

ومنها: أن عمر فعل ذلك والعهد قريب، والتراحم والإيثار بين المسلمين، وهذا يجعل مهمته سهلة، أما القانون فيفعل ذلك وقد بَعُدَ العهد وفني عليه الكبير ونشأ عليه الصغير وقد تغيرت نظرة المسلمين بعضهم لبعض فصارت نظرة استغلال لا نظرة أخوة وتعاون، وهذا ما يجعل المهمة شاقة، ولعل في هذا التدرج الذي جعل تنفيذه على خمس سنوات ما يخفف من وقعه، ولعله إذا فهم الإقطاعيون أن هذه الكِظَّةَ[1] كانت تضر بهم ولا تنفعهم وكانت تحرم كثيرًا من إخوانهم ما خلقه الله لهم، خفَّ وقعُه وزال ألمُه.

---

(١) الكظة: شيء يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام. لسان العرب، مادة (كَظَظَ) مج ٧ (١٣/ ٧٥).

تأملوا في هاته الوقائع التي تتعلق بالأرض تتبينوا المبادئ الإسلامية من خلالها، تلك المبادئ التي غرست في نفوس المسلمين الأولين وظهرت منهم أعمالًا حكيمة وقضايا عادلة.

يرى الإسلام أن المجتمع الإسلامي كأسرة واحدة، وليس من العدل أن يختص بعض الأسر بالأرض ويحرم الباقون، وقد فهم عمر، بل إنه لم ينظر لمن حضر فقط بل نظر للحاضر ولمن تلده الأرحام، انظر إليه حين يقول: فما لمن يأتي بعده؟ كره أن يحوز الأرض المقاتلة الذين بذلوا دماءهم وأموالهم في الجهاد حتى دانت لهم الأرض فيولد من يولد ويدخل في الإسلام من يدخل فيجد الأرض قد حازها مَنْ حازها ولا يجد ما يملكه.

ماذا يكون حكم عمر حين يجد قومًا لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب إنما ملكوها إقطاعًا غير شرعي أو ورثوها عمن ملكها كذلك، وحازوها ومنعوها عن بقية المسلمين وقد أساءوا التصرف فيها فلم يراعوا حق الله ولا حق الفقراء في هذه الأموال.

وقد بقي أن يقال: كيف يخالف عمر عمل رسول الله في خيبر من قسمة الأرض أخماسًا وجعل الخُمُس لله وللرسول والفقراء، وأربعة أخماسها في المقاتلة، ويذهب إلى حرمانهم وجعلها ملكًا للأمة يزرعها من يزرعها على خراج يؤدى ينفق منه على المسلمين؟



قلنا في ذلك وجوه: منها أن عمر ربما علم أن ما فعله الرسول كان على التخيير لا على طريق الإلزام.

ومنها أن عمر تأول آية الفيء على ما ذهب إليه وهي قوله: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ *وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وقد قال حين ذكر الأموال وأصنافها والآيات الدالة عليها: استوعبت هذه الآية الناس.

ولعل عمر ذهب إلى المصلحة المرسلة، ورفع الضرر، وقد علل بذلك فيما روينا عنه، ورحم الله عمر بن الخطاب فقد كان يعرف الأغراض العظمى للإسلام ويحافظ عليها، وقد كان يعلم أن الشريعة عدل وإنصاف فحيث وجد العدل

---

(١) سورة الحشر الآيات ٧-١٠.

والإنصاف فَثَمَّ شرع الله، وربما رأى في النص والحادثة تقييدًا بالزمان والمصلحة وما لابسها من حوادث، وكان يراعي المصلحة ورفع الضرر عن الأمة، ولا أعلم ضررًا أبلغ من التفاوت الكثير في الملكية الزراعية، وبحسبنا أن ننظر إلى آثاره السيئة عندنا فقد جعل في الأمة طبقتين طبقة أصحاب الأرض المالكين وفيهم الغنى والقوة، وفيهم ما يُنْتِجُه الغِنَى من التَّرَفِ والكِبْرِ والأشر والبطر والاستعلاء وغمط الناس، وطبقة الفلاحين وهم الكثرة الكاثرة من الأمة وفيهم الفقر والحاجة، وتتبعه آثاره من الجهل والمرض والذلة والضعة والمهانة والاستخذاء وخُلُقُ العبيد من الجبن والخَوَرِ والصَّغَار، ومثل هؤلاء لا يأبون الضيم ولا يحمون الذِّمَار ولا يدفعون العار.

وإنما تولدت فيهم هذه الرذائل وما يتبعها؛ لأنهم يرون أن رزقهم وحياتهم وعزهم وذلهم بيد صاحب الأرض إن شاء أبقاهم وإن شاء أخرجهم فرمى بهم إلى الطرقات حيث الجوع والعري والموت فيذلون له ويخضعون.

وهذه النفوس المريضة لا ينفع فيها علاج؛ لأنه كلما رفع المربون والعلماء من نفوسهم وراضوهم على العزة، طغى على ذلك كله ما هم فيه من حالة اجتماعية فاسدة ومن وضع يجعلهم محتاجين لمخلوق مثلهم، ماذا تنفع العظات والعبر إذا كانت تبنى والواقع يهدم، وإذا كانت تدعو إلى العزة وواقع الحياة يدعو للمذلة؟

أما الآن فإننا نأمل أن يصلح الله بتحديد الملكية الحالة الاجتماعية، وأن يحقق الله به كثيرًا من العدل في الجماعة، وأن يرفع مستوى المعيشة لكثير من الفلاحين فيتعلموا بعد جهل، ويصحوا بعد مرض، ويأمنوا يعد خوف، وأن يشعروا بالعزة والقوة والحرية، وأن تربى فيهم أخلاق الأحرار من الغضب للحق والإباء للظلم، والكراهية للاستعباد، فإذا استُنصِرُوا نَصَرُوا، وإذا استُنْفِرُوا نَفَرُوا، وإذا أتاهم عدو مُغِيرٌ طاروا إليه زَرَافات وَوُحْدَانا.

الختان[١]

نريد عرض بعض المشكلات الجنسية التي تَهُمُّ الشباب والتي لها ولتوجيهها الوجهة الطيبة أثرٌ حسن، ولكن يمنعنا الحياء لأننا لم نعتد عرض هذه المشكلات على صفحات الصحف والمجلات، وإن كنا قد اعتدنا معالجتها في الكتب، وقد كدنا نُسَايِرُ هذا الحياء فينا ونمشى على مقتضاه أو لإلحاح القُرَّاء في أن نعالج هذه المشكلات، وقد رأينا الحاجة مَاسَّة والفائدة مَرْجُوَّة، وقد استشرنا الدِّين فرأيناه يقول: لا حياء في الدين، ورأينا من نساء الصحابة من تسأل النبي ﷺ عن أمور قد يُسْتَحَى منها، عن خَوْلَةَ بنت حكيم أنها سألت النبي ﷺ عن المرأة تحتلم في منامها، فقال: إذا رأت الماء فلتغتسل[٢].

فاعتزمنا أن نعرض هذه المشكلات: كالعادة السِّرِّيَّة وموقفَ الدِّينِ منها، وكالختان في الذكر والأنثى، وموقف الدين والعلم منها، وسنبدأ بالكلام على الختان.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء العاشر، ص ١٢٤٢-١٢٤٤، غرة شوال ١٣٧٢هـ / ١١ يونية ١٩٥٣م.

(٢) أخرجه الإمام النسائي في السنن الكبرى، ك: الطهارة، باب إِيجَابُ الْغُسْلِ عَلَى الْمَرْأَةِ إِذَا احْتَلَمَتْ وَرَأَتِ الْمَاءَ، رقم (٢٠٢)، والحديث: صحيح.

الختان في التاريخ:

قال هيردوت المؤرخ اليوناني القديم: إن الختان معروف منذ زمن بعيد في مصر والحبشة ومنه يعلم أن المصريين والحبشة كانوا يمارسون الختان منذ زمن متقدم، ويقال إن السوريين والفينيقيين أخذوا عادة الختان عن قدماء المصريين.

وفى سِفْرِ التَّكْوين الإصحاح السابع عشر الآية التاسعة وما بعدها إلى الآية الرابعة عشرة: أن الله فرضه على إبراهيم وعلى جميع ذريته وجعله علامة الاتفاق والعهد بينه وبينهم[1].

وهو مذكور أيضًا في قوانين موسى سفر اللاويين الإصحاح الثاني عشر الآية الثالثة[1] وسفر الخروج الثاني عشر الآية ٤٥، ٤٨[2]، وقد حرص عليه اليهود فَهُمْ يختنون أطفالهم الذكور في اليوم الثامن بعد ميلادهم.

---

(١) والنص في الكتاب المقدس (العهد القديم) هكذا: ٩وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيم: (وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. ١٠هذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، ١١فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. ١٢اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. ١٣يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. ١٤وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي).

١٥وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ:(سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ. ١٦وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا. أُبَارِكُهَا فتَكُونُ أُمَمًا، وَمُلُوكُ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ). ١٧فَسَقَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ، وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: (هَلْ يُولَدُ لابْنِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟) .

وكان الختان مُتَّبَعًا في أول عهود المسيحية ثم نبذه الرسل ولم تأخذ به الكنيسة فلم يبق إلا في الحبشة.

وللختان عند اليهود قيمة ومزية إذ أنه عبارة عن عهد مبرم بين الله وإسرائيل يزكيه الدم، وهو تعبير عن طهارة النفس، وكان أنبياء إسرائيل يسمونه طهارة القلب، ووجد الرَّحَّالون عادة الختان متبعة في جميع أنحاء إفريقية السوداء، ويظهر أن شعوب الأزينكيين في أمريكا القديمة كانوا يعرفونها، كما أنها مألوفة بين الشعوب الأسترالية الأصيلة.

والمسلمون يؤدون عملية الختان بناء عن أمر الرسول بها، وهم يختتنون في سن الثامنة وما بعدها من العمر.

وللختان فوائد صحية وهو وقاية من أمراض تنشأ عن الالتهاب الجلدي.

والخِفَاضُ وختان الأنثى غير منتشر انتشار ختان الذكور وهو معروف بين الساميين والحاميين في جنوب غرب آسيا وفى إفريقية، وبين الزنوج في جنوب إفريقية

---

(١) ونَصُّه: وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ يُخْتَنُ لَحْمُ غُرْلَتِهِ.

(٢) نقلتُ النص من بداية الآية ٤٣ لفهم السياق، ونصه: ٤٣وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: (هذِهِ فَرِيضَةُ الْفِصْحِ: كُلُّ ابْنِ غَرِيبٍ لاَ يَأْكُلُ مِنْهُ. ٤٤وَلكِنْ كُلُّ عَبْدِ رَجُلٍ مُبْتَاعٍ بِفِضَّةٍ تَخْتِنُهُ ثُمَّ يَأْكُلُ مِنْهُ. ٤٥النَّزِيلُ وَالأَجِيرُ لاَ يَأْكُلاَنِ مِنْهُ. ٤٦فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ يُؤْكَلُ. لاَ تُخْرِجْ مِنَ اللَّحْمِ مِنَ الْبَيْتِ إِلى خَارِجٍ، وَعَظْمًا لاَ تَكْسِرُوا مِنْهُ. ٤٧كُلُّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ يَصْنَعُونَهُ. ٤٨وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ نَزِيلٌ وَصَنَعَ فِصْحًا لِلرَّبِّ، فَلْيُخْتَنْ مِنْهُ كُلُّ ذَكَرٍ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ لِيَصْنَعَهُ، فَيَكُونُ كَمَوْلُودِ الأَرْضِ. وَأَمَّا كُلُّ أَغْلَفَ فَلاَ يَأْكُلُ مِنْهُ).

وشرقها، وفى غرب السودان، وعند قبائل أخرى ممن تسمى بالشعوب البدائية في وسط إفريقيا وفى استراليا وفى أمريكا، ويلاحظ أن الآلات التي تستعمل في الخفاض عند هذه الشعوب الأخيرة هي آلات بدائية مما يدل على أن هذه العادة ترجع إلى أقدم العصور.

الختان عند المسلمين:

هو قطعُ بعضٍ مخصوصٍ من عُضْوٍ مخصوص، قال الماوردي: ختان الذكر قطع الجلدة التي تغطي الحشفة والمستحب أن تستوعب من أصلها عند أول الحشفة وأقل ما يجزئ ألا يبقى منها ما يتغشى به، وقال إمام الحرمين: المستحق في الرجال قطع القلفة وهي الجلدة التي تغطى الحشفة حتى لا يبقى من الجلدة شيء يتدلى، ونقل عن الرافعي أنه يتأدى الواجب بقطع شيء مما فوق الحشفة وإن قَلَّ، بشرط أن يستوعب القطع تدوير رأسها، قال النووي: وهو شاذ والأول هو المعتمد، والمستحق من ختان المرأة ما يطلق عليه الاسم، وقال الماوردي: ختانها قطع جلدة تكون في أعلى فرجها كالنواة أو كعرف الدِّيكِ، ويطلب ألا تستأصل.

مذاهب فقهاء الإسلام في الختان وأولهم:

وأقوال علماء الفقه في الختان ثلاثة: الأول: أنه واجب في حق الرجال والنساء، والثاني: أنه سُنَّةٌ فيهما، والثالث: أنه واجب في حق الرجال دون النساء، حجة أصحاب القول الأول: قوله ﷺ من أسلم فليختتن، وقوله لأُمِّ عطية: وكانت

خافضة أَشمِّي ولا تُنْهِكي، وقوله ﷺ: يا نساء الأنصار اختضِبْن غمساً واختفضن ولا تنهكن وإياكن وكفران النعم.

وهذه الأحاديث طعن في رجالها حتى قال ابن المنذر: ليس في الختان خبر يرجع إليه ولا سُنَّة تُتَّبَع[(١)]، وحجة أصحاب القول الثاني قوله ﷺ: الختان سنة في الرجال مكرمة في النساء، وقد طعن أيضًا في رجاله مع كونه لا يحتج به ليس فيه ما يدل على المطلوب لأن السُّنَّة في لسان الشارع أعمُّ من السنة في اصطلاح الأصوليين، والحق أنه لم يقم دليل صحيح يدل على الوجوب في النساء.

وخفاض المرأة موضوع يبحث فيه العالم الشرعي لبيان حكمه في الشرع، والعالم بوظائف الأعضاء ليبين وظيفة هذا العضو الذي يقع عليه الخفاض ليبين آثار الخفاض الاجتماعية: أهي آثار حسنة أم آثار سيئة.

وعلم وظائف الأعضاء يرى أن هذا العضو حَسَّاس وأنه مُعين على إتمام عملية التخصيب، وأنَّ قَطْعَه وإِنْهَاكَه يُبْعِدُ الشَّهْوَة، وإتمام العملية من المرأة الذي به تتم عملية الإخصاب، ومن ذلك يرى بعض علماء الاجتماع أن الخفاض سبب في انتشار المخدرات في البلاد التي تزاوله ومنها مصر لأن الزوج يجد شهوته أقرب من شهوتها، وأنه ينتهي قبل انتهائها، ويشعر أن هذا يجعل العملية ناقصة تسبب

---

(١) وممن ذكر أحاديث الختان ونقد العلماء لها الإمام محمد بن على الشوكاني في نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، (١/١١٢، ١١٣).



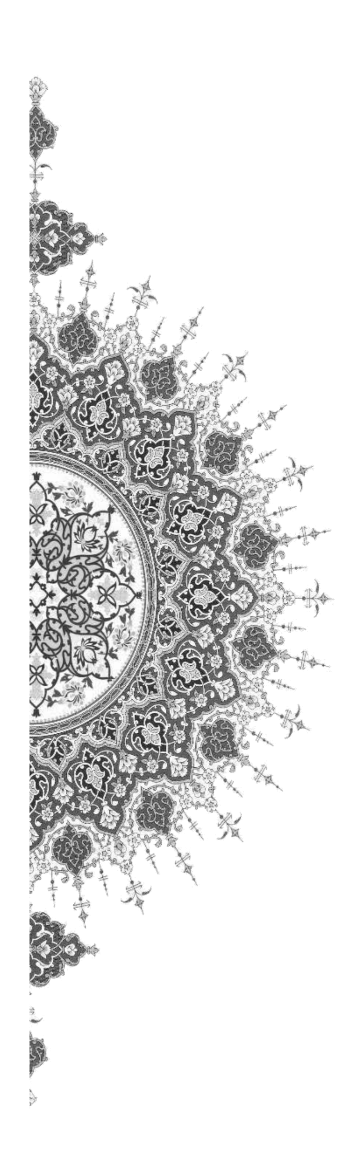
ألمًا للزوجة وذلك يدعو إلى بُغْضِهَا فيريد أن يكمل هذا النقص فيه ويجعل موافاة الشهوتين على قَدَر، فيستعين ببعض العقاقير التي شاع خطأ أنها تبطيء موافاة الماء من الرجل وذلك الحشيش والأفيون والمعاجين التي يدخلان في عناصرها ويزيدون فيقولون:

إذا أريد القضاء على آفة استعمال الحشيش والأفيون والمواد المخدرة فينبغي القضاء على أسبابها وهو خفاض المرأة لتكون المرأة طبيعية ويكون الرجل طبيعيًا فلا يحتاج إلى هذه المواد كعنصر مساعد.

وأن على العالم الشرعي بعد ذلك أن يبحث في نصوص الشرع ويرى هل هذه النصوص ملزمة حتمًا للخفاض فلا مندوحة عنه، أم ليست كذلك ففيه مندوحة عنه.

قد علمنا أقوال الفقهاء وأقوال رجال العلم في ختان المرأة، وعلمنا أن من الفقهاء من قال بأنه مكرمة وليس بواجب ومنهم من قال ليس في الختان خبر يُرجع إليه ولا سُنَّةٌ تُتَّبَع.

والعلم يرى أنه يضر بالحياة الزوجية ويؤدي إلى انتشار المخدرات بين الرجال، فإذا ثبت كل ذلك فأمره سهل جدًا فليس على من لم تختتن من النساء من بأس ومن اختتنت فيجب ألا يُنْهك هذه العضو منها، وإذا منع في مصر كما منع في بعض البلاد الإسلامية كتركيا وبلاد المغرب فلا بأس، والله الموفق للصواب.



المجموعة الخامسة
حول الحرب والسلام

المجموعة الخامسة
حول الحرب والسلام

تحتوي على المقالات التالية:

خواطر في الحرب، (سبعة مقالات بالعنوان نفسه).

ضرورة التعاون بين الإسلام والغرب.

الإسلام والسلام.

الشرق والغرب هل يجتمعان.

خواطر في الحرب[1]

لم يبق ريب في أن من أعظم الأسباب في سقوط الدولة الفرنسية الترف.

اعترف بذلك الباحثون والكُتَّابُ ورجالُ السِّيَاسَة، قال بيتان رئيس الوزارة الفرنسية[2]:

(لقد دَمَّرَتْ روحُ الانغماس في الملذات ما شيَّدته روحُ التضحية، أَصْلِحوا من أخلاقكم ودعوا الترف والملذات، وأقبلوا على العمل بصبر وتضحية)

ليس في ذلك كله شك، إنما الشك فيما أعرضه على نظر القراء: أيمكن للأمة تجنب الترف، أم أن الترف أمر لازم يَتْبَعُ الغِنَى والثَّرْوَة، والزُّهْد والحرمان يتبع الفقر والإملاق، فالأمم الغنية حتما تنغمس في الترف والنعيم، والأمم الفقيرة تكون بمنجاة منهما، ولذلك لا يُفَلُّ حَدُّهَا، وتبقى لها قوة الصبر والمجالدة؟

حوادث التاريخ تنبئنا أن المذهب الثاني هو الحق فإذا صح هذا كان الوجود مقسماً قسمة عادلة؛ فما خسره الفرد من ذات يده ربحه من ذات نفسه، وما ربحه من نفسه خسره من ذات يده، أي أن الفقير المعدم وإن خسر المال يربح قوة العزم والقدرة على المقاومة، فهو يخسر الكنوز في المال، ويربح الكنوز في الأخلاق

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٧١، ص ١٢٩٤، الاثنين ٨ رجب ١٣٥٩ه / ١٢ أغسطس ١٩٤٠م.

(٢) المارشال هنري بيتان، (١٨٥٦-١٩٥١م)، تقلد منصب رئيس فرنسا الفيشية من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤م.



والقُوَى، والغني القادر – وإن كسب المال – يخسر القوة والقدرة على المقاومة فهو يكسب كنوز المال ويخسر كنوز الخُلُق والقوة والنفس [١].

عدل في القسمة، وكنوز بدل كنوز، بل ربما كان حظُّ الفقراء أوفرَ من هذه القسمة، فإن الكنوز النفسية أثمن من كنوز الذهب والفضة بما لا يُقدَّر.

وإذا صح ذلك أيضًا كان التاريخ متشابهًا، وهو يتكون من دورات رَحَوِيَّة، لا تبدأ حتى تنتهي، ولا تنتهي حتى تبدأ.

فأمة تتغلب على أمة، فتغصبها خيراتها، وتتمتع بهذه الخيرات دونها، فإذا فتحت عليها كنوز الأرض، وانغمست في النعيم، ضعفت شوكتها، ولانت قناتها، وتغلب عليها من هم أقوى منها، ممن لم يفسدهم الغنى والترف والنعيم، وممن ازدادوا حصانة بالفقر والإقلال.

(١) هذه ليست قاعدة مطردة، وإن كان ذلك واقعًا بنسبة كبيرة.

خواطر في الحرب[١]

يعجب قوم أشد العجب من هذه الأمم المتحاربة[٢]، ويرون أنهم أصيبوا بنوبة جنونية، أو بخذلان لم يكونوا ليصلوا إليه إلا بغضب من الله وخزي من الشيطان؛ وإلا فبأي حجة يسفك بعضهم دماء بعض، ويحشدون قُوى الطبيعة للقتل والتدمير؟ ألم يكونوا في حياة كلها لين وكلها رفاهية؟ ألم يكونوا سعداء في ظلال الأمن؟ ألم تفتح عليهم بركات السماء، وتُدرّ لهم خيرات الأرض؟

لم تكن لذة من اللذائذ إلا وهي في متناول أيديهم؛ ولم تكن سعادة إلا وهي طوع بنانهم، فتكوا الجنة مريدين، ودخلوا النار عامدين، وهاهم أولاء يَصْلَوْن بحرِّها، ويلفح وجوهَهم لهبُ سعيرِها.

وفي الحق أن الحجة قائمة والبرهان قوي، لو أن الناس جميعًا يفكرون هذا التفكير ويصدرون عن مبدأ واحد، ويَؤُمُّون غاية واحدة.

لكن الواقع أن الناس يصدرون في هذه المشكلة عن مبدأين متناقضين؛ فنظر كل فريق إلى الحياة نظرًا يخالف نظر الآخر، وخُيِّلَ إلى كل واحد أن الآخر مجنون لا يعرف صالحه، ولا يدرك حظه.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٧٢، ص ١٣١٤، الاثنين ١٥ رجب ١٣٥٩هـ / ١٩ أغسطس ١٩٤٠م.

(٢) يقصد فريقي الحرب في الحرب العالمية الثانية.

هذان المبدآن هما: إرادة الحياة، وإرادة القوة: فمن الناس ومن الأمم من يريد من دنياه هذه الحياة، يبغيها ويتوخاها ويحافظ عليها كيفما كانت وكيفما وقعت.

ومن الناس ومن الأمم من يريد من دنياه القوة، فهو يؤثر أن يكون قويًا في الحياة، ولا يعبأ بالحياة إن فقد القوة، وبطن الأرض خير له من ظهرها إذا لم يكن قويًا؛ فإذا رأى مريدو الحياة مريدي القوة يأكلون ويشربون وينعمون، ثم هم يتركون هذا النعيم، ويحلّون أبدانهم لتمزيق القنابل، وإحراق النيران، عابوهم وزروا على أفكارهم ورموهم بالعته والجنون.

وإذا رأى مريدو القوة مريدي الحياة راضين بالحياة غير عابئين بالقوة، خالوهم كلابًا طوقت أعناقهم بالذهب، أو موتى في أكفان من حرير.

فليكف مريدو الحياة عن تفنيد مريدي القوة، وليكفكفوا عبراتهم على من مات منهم، فلعلهم أولى ممن مات بهذه العبرات، وإذا فكروا في لومهم وتفنيدهم فليذكروا قول المتنبي:

لا يُعجِبن مَضيماً حسنُ بَزَّتِهِ   وهل يروق دفينًا جودةُ الكفنِ [١]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، المَضيم المظلوم والبزة اللباس يقول لا ينبغي للمظلوم أن يعجب بحسن لباسه فإن الميت لا يعجب بحسن كفنه شبه المظلوم الذي لا يدفع الظلم عن نفسه بالميت وجعل ثوبه كالكفن.

خواطر في الحرب عبرة الزمن[١]

انجحْ في الحياة ولا تفشل، وتوخَّ أسباب النجاح، وتوقَّ أسباب الفشل، فإنك إن تنجح عدَّ الناس ذنوبك حسنات، وإن تفشل عدَّ الناس محاسنك مساوي.

هذه فرنسا كانت في رأي كثير من الناس أمَّ المدنيات، وما من حضارة إلا وهي مقتبِسة منها، وما من خير إلا إليها مرجعه؛ فلما اجتاحها الألمان، وسقطت تحت كَلْكَلِ [٢] القوة، انقلب مدح الناس ذمًّا؛ والفضائل التي كانوا يعدونها لها صارت رذائل.

كانت ترى أن يربي الفرد لنفسه، ولا يرون أن يربي الفرد ولا يعطي للدولة إلا ما فضل عنه، فكانوا يرون ذلك معها، ولا يرون أن يُرَبي الفرد للأمة كما يرى الألمان.

وكانت ترى الحرية في أوج مداها، فكانوا يرون ذلك معها ولا يرون أن أناسًا قد تفسدهم الحرية كما تصلح قومًا آخرين.

وكانت ترى إشباع الشهوات، والأخذ بأكبر قسط من ملذات الحياة، فكانوا يرددون هذا، ويرون أن الأخذ بضد ذلك سجن للحرية، وشقاء للنفس والمجتمع

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٧٣، ص ١٣٤٦، الاثنين ٢٢ رجب ١٣٥٩هـ / ٢٦ أغسطس ١٩٤٠م.

(٢) الكَلْكَل من كُلِّ شيءٍ: الصَّدْر، المُنَجَّد في اللغة، علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، تحقيق: أحمد مختار عمر، ضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م ص ٣١٩.

وكانت ترى تضييق حدود النسل، فكانوا يرون أن الحق معها وأن المرء لم يخلق ليكون عاملًا غير مأجور لأولاده وأسرته.

وكانت وكانوا إلى ما شاء الله من هذه الآراء. فلما هزمت في الحياة صار هذا الجلال صَغَارًا، وذلك النور ظلامًا، وانقلبت كل هذه المحاسن والمحامد آثامًا وعيوبًا في أقل من طرفة عين.

ما هذا الذي بدَّل الحُسْن، وشوّه ذاك الجمال، وأحال الأمور إلى أضدادها؟ إنه الفشل، وقاتل الله الفشل.

والناس من يلق خيرًا قائلون له ... ما يشتهي ولأمّ المخطئ الهبل [(١)]

---

(١) البيت من أشعار القطامي، واسمه عُمير بن شييم. الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، (٣ / ٧٤).

خواطر في الحرب(١)

حدثتني من لا أتهمها في الحديث أن زوجها بَنَى بها قبل الثورة العُرابية بقليل، وكان صغيرًا وقد ترك له والده ضيعة واسعة، فلما كانت الثورة العُرابية وهاجر الإسكندريون إلى البلاد التي يظنون فيها الأمن نزح كثير منهم إلى بلده وكان منهم فقراء ومُعْوَزون فرأى حاجاتهم، فَفَرَّقَ فيهم البُرَّ الذي أغلته ضَيْعَتُه حَبًا ودقيقًا وخبزًا، فدخَلَتْ عليَّ جاراتي وذكرن صِغَرَ زَوْجِي وما يستلزمه الصِّغَرُ من السَّفَهِ، وأنه فرَّق غَلَّة العام على المهاجرين فاعذليه(٢) في ذلك، فإن لم يُصغ فاشكيه إلى أبيك. قالت: فعذلته، فقال: ويحك لا أسمع قول العاذلين.

فشكوته إلى أبي فقال: يا بنيتي قدري أنك المهاجرة فهل كنت تودين أن يمنع ذوو المعروف عنك معروفهم. أو كنت تودين أن يعطوك الفضل من ما لهم وتحقدين على من لم يعط. يا بنيتي إن هؤلاء المهاجرين من كان آمنًا في سربه، معافى في بدنه، واجدًا قوت عامه، فكُفِّي عن عذله، فلم يفعل إلا الصواب. هذا رأي أبي فما رأيك أنت؟، فقلت هبي رفقة قد ضلوا في صحراء موحشة وقد فقدوا ماءهم إلا واحدًا قد بقي معه فضل من مائه، أيجوز له أن يمنعه رفقته حتى يهلكوا عطشًا، أم يلزمه أن يعطيهم من فضل مائه ليستعينوا به على قطع الطريق حتى يصلوا إلى العمران؟ قالت: يلزمه ألا يمنعهم ماءه لئلا يهلكوا عطشًا، قلت وهذا ما فعله زوجك. وقد

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٧٤، ص ١٣٧٨، الاثنين ٢٩ رجب ١٣٥٩هـ / ٢ سبتمبر ١٩٤٠م.

(٢) فاعذليه: قدمي له اللوم والعتاب.



دار الدهر دورته وجاءت هذه الحرب واضطر بعض أهل المدن إلى الهجرة إلى الريف، وإن منهم صُنَّاعًا تركوا صناعتهم، وعُمَّالًا تركوا عملهم؛ فهل من أغنياء الأمة من يكونون لهم كما كان ذلك المحسن العظيم؟ قد كان في الإمكان أن نقول للحكومة افعلي، ولكننا اغتنمناها فرصة ليُربى فينا خلق المحبة والإيثار، والكرم والإعطاء وروح التناصر والتعاون.

إذا كنت رَبًا للقَلُوصِ [1] فلا تدع   صديقك يمشي خلفها غير راكـــبِ
أنخْــها فأردفْــــه فإن حملتكـما   فذاك وإن كـان العقـاب فعـاقب [2]

---

(١) القَلُوص: الفَتِيَّة الشَابَّة من الإبل.

(٢) البيتان لحاتم الطائي. ديوان حاتم الطائي، دار الصادر-بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٩ - ٣٠ .

خواطر في الحرب[١]

ذكرنا في كلمة سالفة أن الترف مفسد للأمم وأن التقشف مقوٍّ لها، وأن الترف نتيجة طبيعية للغنى، وأن التقشف نتيجة طبيعية للفقر، ونريد الآن أن نعلم لماذا كان الترف مضعفًا للأمة كاسرًا لحدها، ولماذا كان التقشف مقويًا لها؟

لعل ذلك يرجع إلى ما يأتي:

١ -إن المترفين لا يباشرون حاجاتهم بأنفسهم بل يتولاها لهم غيرهم، والعضو الذي لا يعمل يفقد قوته، وربما مات؛ لذلك تضعف أعضاؤهم وتَفْتُرُ قوتُهُم؛ وقد قال بعض العرب [٢]: ما وددت أني مكفي المؤونة. قيل له: ولم ذاك؟ قال: أخاف عادة العجز. أما الفقراء فهم لحاجتهم يتولون الأعمال الجالبة للرزق فتقوى بذلك أجسامهم وعقولهم، فحيث ترى قومًا يعملون رأيت السواعد القوية، والصحة والعافية والعقول الخصبة والأفكار المنتجة. وحيث رأيت قومًا مكفيي المؤونة رأيت الأجسام الضعيفة والفتور العقلي.

٢ - إن المترفين ينغمسون في الشهوات، ويكرهون المشقة، ويخافون الخروج من عيشة الدَّعَةِ؛ فهم دائمًا مُخلِدون إلى الأرض، لا يرفعون رأسًا، ولا يَسْمون إلى مكرمة؛ فإذا رأوا طريقين: أحدهما شاق وعلى رأسه العزة، والثاني سهل وعلى رأسه

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٧٥، ص ١٤٢١، الاثنين ٧ شعبان ١٣٥٩هـ / ٩ سبتمبر ١٩٤٠م.

(٢) هو أكثم بن صيفي، انظر: بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، تحقيق: محمد مرسي الخولي، باب العادة وما لا ينسى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (٢/ ١١٣).

الذلة، اختاروا أسهل الطريقين ونفوسهم دائمًا تكذبهم وتختار الأسهل، وتزعم أنها اختارت ما فيه الخير؛ فإذا توقفت حياتهم وعزتهم على حرب يخوضونها عللوا نفوسهم بالأماني وسوفوا، فإذا اضطروا إلى خوضها ورأوا طريقًا للنجاة منها ولو بوعود كاذبة يبذلها العدو، صدقوا هذه الوعود وخدعوا أنفسهم. أما غير المترفين فهم لا يبالون الشدائد لأنهم أبناؤها، فإذا رأوا طريقًا للمعالي سلكوه ولو كان فيه الموت جاثمًا، وإذا رأوا طريقًا للمخازي نبذوه ولو غرست فيه الورود والرياحين. من أجل ذلك ترى الذين يخافون عاقبة الترف يكلفون أنفسهم أعمالًا جسدية شاقة لتقوي أبدانهم.

روي أن عمر بن الخطاب قُدِّمَ إليه فرسه وعليه الركاب فنحَّاه عن فرسه وكان يقفز من الأرض، فإذا هو على ظهر فرسه، فكأنما خلق عليه.

خواطر في الحرب(١)

لقد لعب قانونا الترف والخشونة أعظم دور في هذه الحرب. فمن عرف فَتْكَ التَّرَفِ بالشُّعُوب، وتقويم الخشونة للأخلاق، وساعدته ظروفه على التخلص من الترف، والأخذ بالخشونة، كان له النصر على من لم يُوفَّق لذلك.

هذه ألمانيا ألقت سلاحها في سنة ١٩١٩، فشُرطت عليها شروط، وفُرضت عليها مغارم، ظنت في هذه وتلك أنها مجحفة بها، فأرادت أن تدفع هذا الإجحاف، فلم يكن ما يسعفها إلا قانون الخشونة فلجأت إليه وفرضته على الناس فرضًا.

كان كل كسبها موجهًا إلى تعزيز قوتها، لا إلى رفاهية أبنائها، حتى شاعت فيهم هذه الكلمة: المدفع قبل الزبدة، وكان المرء فيهم يعمل ولا يمل العمل. وكان عليه أن يكسب ما يسد منه بعض الغرامة، وما يعول أسرته، وما يكون منه شراء السلاح وإنماء قوة ألمانيا.

ما كان يستطيع أن يأتي بهذه المعجزات إلا قانون التقشف، فبه وفرت المال الذي أوجد هذه الأسلحة التي لا تنفد، ولو سلط على هذا المال الترف لابتلعه. وبه استطاعت أن تصبر في ميادين الحرب المختلفة حتى كان الجندي يمكث أيامًا محاربا لا يذوق فيها النوم ولا الراحة.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٧٦، ص ١٤٥٥، الاثنين ١٤ شعبان ١٣٥٩هـ / ١٦ سبتمبر ١٩٤٠م.

وهذه فرنسا لم توفق إلى ما وفقت إليه ألمانيا في الاستعداد لهذه الحرب والأخذ بالخشونة فسلمت في أول مراحلها.

وهذه إنجلترا وإن كانت قد تمتعت بثمر انتصارها في الحرب الماضية، وتباطأت لذلك في الاستعداد عن ألمانيا، ولكنها قد بدأت، ودعت أخلاقها الموروثة التي ولدتها فيها الروح الرياضية المبنية على التقشف، فاستجابت إليها، فلما وقع حِمْل الحرب على كاهل بريطانيا وحدها لم تنؤ به، ووجدت فيها ألمانيا خصمًا يساجلها ثباتًا بثبات، ومقاومة بمقاومة.

ولم أسرد ما تقدم للمتعة، ولذة القصص، فما بي لذلك، وإنما بي أن أضع يد قومي على موضع العظة، وأدلهم على موضع العبرة، وأبين لهم الترف، وهدمه للأمم، والخشونة وبناءها للشعوب، فلعلهم تجديهم الموعظة، ويكون منهم الاعتبار.

خواطر في الحرب [١]

أَخَيْرٌ هذه الحرب[٢] القائمة أم شر؟ إن هذا السؤال يبدو غريبًا، إذ كيف يمتري أحد في أن هذه الحرب جمعت الرزايا والنكبات ما تقشعر من هَوْله الأبدان؟ هذه دماء سفكت، وبيوت دمرت، ومئات الآلاف من السكان أصبحوا لا يجدون مأوى يأوون إليه، وهذه أقوات وأرزاق قد سلطت عليها النيران فالتهمتها، وأصبح فريق عظيم لا يجد الطعام. هذه شعوب كانت حرة فاستعبدت، ومن هذه الشعوب شعوب كان في إطلاقها وحريتها مجال فسيح لابتكار ما يفيد المدنية، وفي استعبادها وقيودها الفكرية ما يعطل هذا الإنتاج.

هذه أمور ظاهرة لا تجعل مجالًا للشك في أن الحرب نكبة عالمية، ولكن على الرغم من ذلك أتساءل أخير هي أم شر؟ وأزيد فأقول إنها ربما تكون خيرًا، وربما تكون شرًا: تكون خيرًا إذا رأى المتحاربون ويلات ما صنعت الحرب، وأنه يمكن التخلص منها، إذا علم أسبابها واجتنبت، وأن سببها هو إحلال قانون القوة في الأمم محل قانون العدل.

إذا علم المتحاربون ما في قانون القوة من قدرة على إضرام الحرب وسعوا للتخلص منه، كانت هذه الحرب التي أثمرت هذه الثمرة بركة على الناس. إن من الشعوب التي غلبت على أمرها في هذه الحرب شعوبًا كانت تعامل شعوبًا أخرى بهذا

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٧٧، ص ١٤٨٢، الاثنين ٢١ شعبان ١٣٥٩هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠م.

(٢) يقصد الحرب العالمية الثانية والتي نشبت في سبتمبر سنة ١٩٣٩ وانتهت ١٩٤٥م.

القانون، فكانت تغزوها، فإذا تغلبت عليها فرضت عليها إرادتها، ثم تمنعها أسباب الرقي العقلي والخلقي، لأنها تخاف إذا هي ترقت في هاتين استنارت وطلبت الخلاص، وربما نالته، وكانت لا تشعر بجرم ما تعمل، لأنها تعمل ذلك في غيرها. وقد دار دولاب الأيام، ووقعت هذه الأمم في قبضة غيرها، وعوملت بقانون القوة، وسقيت بالكأس التي كانت تسقي بها، فوجدت لذلك ألمه، وعندها ربما تدرك سوء ما كانت تفعل مع الأمم الأخرى وتستنكره، فتنكر قانون القوة، وتعرف قانون العدل فيخسر قانون القوة بعض الأنصار، ويكسب قانون العدل ناصرًا جديدًا. وفي هذا الاحتمال أيضًا خير عظيم، لأنه خطوة واسعة في سبيل السلام.

ضرورة التعاون بين الإسلام والغرب [١]

التعاون بين سكان الأرض من قديم كان أملًا يأمله الحكماء، ورجاء يرجوه العلماء، وكانوا يرون أن لا سعادة لسكان هذا الكوكب الأرضي إلا بالتعاون والمحبة، وأن التعادي موجب الشقاء، بل لا بقاء للإنسان إلا بهما، وإذا بقي بينهم التعادي أهلك بعضهم بعضًا ونزل بهم الفناء.

والآن بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، كان إدراك الساسة ورجال الإصلاح لوجوب التعاون أكثر، وعملهم لهذه الغاية أعظم، ذاك لأن المتحاربين ذاقوا من هذه الحرب الويلات، وفتكت بهم الأسلحة المخترعة أعظم فتك، وقد انتهت هذه الحرب باختراع القنبلة الذرية، وأن العالم كلَّه مهدد بالفناء إذا قامت حرب ثالثة واستعمل المتحاربون هذه المخترعات الفتاكة.

يجب عمل كل ما يمكن للتقريب بين الشعوب وإزالة أسباب الخلاف والبغضاء.

يجب أن تكون الأرض جميعها كمدينة واحدة، وأن يكون حكامها جميعًا كأهل المدينة الواحدة.

يجب أن يعلم كل أحد أن قد قربت المسافات والأبعاد، وأصبح أهل الأقطار النائية في القارات المترامية يتواصلون أقرب مما كانوا يتواصلون في المملكة الواحدة فيما سلف من الزمان، فقد أصبحت الطائرات في الهواء، والسابحات في الماء،

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثامن عشر، الجزء الأول، ص ١٤٧-١٤٩.

وقاطرات البر والبحر مُعِينَة على اتصال العالم بعضه ببعض في أقرب ما يمكن من الزمان، فيُفْطِرُ المرء في قارة، ويتغدى في قارة أخرى، ويصبح بأرض ويمسى بأرض أخرى، ما كان يصل إليها من قبل إلا في شهور وأعوام.

ولقد سهل البرق واللاسلكي معرفة أخبار العالم، فلا يحدث حدث في مكان إلا ويعرفه الشرق والغرب وقت حدوثه، وإن المرء ليسمع في أوربا من يخطب في أمريكا كما يسمعه الأمريكيون.

يجب أن يعلم كل أحد أن التعاون بين الشعوب أصبح أمرًا واقعًا، وأنه لم يبق إلا علمه والتفطن له، فالمرء في آسيا وأفريقيا ينتفع بمبتكرات العلماء في أوروبا وأمريكا، ويتداوى بأدويتهم، ويأخذ بطبهم ويترف بما اخترعوه من أسباب الترف في الحياة، والمرء في أوربا ينتفع بما زرعه له الزارع في آسيا وأفريقيا وما أخرجوه له من خضر وفواكه، فكيف ينتفع بعضهم من بعض ثم من بعد ذلك يتعادون ويتباغضون، ويتقاتلون ويتناحرون؟

الضرورة مُلْجِئة إلى السلام والتعاون.

والضرورة ملجئة إلى التفكير في أسباب السلام والتعاون، وأسباب الحرب والتخاصم، ليؤخذ بالأولى وتنبذ الثانية، لعلَّ الله يقي البشر ويلات حرب أخرى.

وليس من شك في أن العقائد والأديان والمبادئ التي يعتنقها البشر لها دخل عظيم في تعاون البشر أو تخاذلهم، وفى سلامهم أو حربهم، فكلما كان الدين أو المبدأ أكثر

مبادئ إنسانية كان أعون على التعاون البشري، وكان أدعى إلى نبذ الحرب وأقرب إلى نشر المحبة والسلام.

وكلما كان الدين أو المبدأ أقل مبادئ إنسانية كان معوقًا عن السلام، وأدعى إلى التنابذ بين البشر، والتخاصم بين الأجناس.

وإذا كان الدين مما يدعو إلى التعاون الإنساني نزل التعاون من معتنقيه منزلة العقيدة، وكانت له قوتها وحرارتها ونشاطها، فيصبح حريًا بأن يعلو ويسود.

وكذلك التعادي بين البشر إذا كان له سند من العقيدة أمضاه معتنقوه بالقوة التي يمضون بها في عقائدهم.

فأثر الدين في خدمة السلام العالمي أو عرقلته واضحٌ بَيِّن، وإنه أثر ليس بالضعيف، لذلك لم يكن بُدٌّ من اعتبار الدين في قضية التعاون والسلام.

ومن غير شك في أن الدين الإسلامي في مقدمة الأديان الأكثر مبادئ إنسانية، فهو يُعِين على التعاون البشرى ونشر السلام، ولكنه لا يزال مجهولًا لكثير من الباحثين، وأن مبادئه الإنسانية العادلة قد غمت عليهم ولم تتضح لهم الوضوح الواجب الذي يجلوها ويبينها، بل إنهم نحلوه مبادئ قاسية ليست له، وأنكروا عليه مبادئ الإنسانية العالية.

وهذا الجهل بالإسلام والمسلمين مما يدعو إلى التنكر لهم وعدم الوثوق بهم، وربما كان عند المسلمين شيء من الجهل بالغرب يدعو إلى التنكر له.

لا شيء أدعى إلى التباعد والتباغض من سوء الظن الناشئ عن الجهل وعدم الفهم لروح الإسلام ولمدنية الغرب.

يجب أن يفهم الغرب الإسلام، وأن يفهم الإسلام مدنية الغرب، إنهما إذا تفاهما زال ما بينهما من سوء ظن، وأمكن أن يعيشا معًا متعاونين يؤدي كل منهما نصيبه من خدمة الإنسانية.

لذلك يجب على علماء الإسلام أن يبينوا ما في الدين الإسلامي من المبادئ السامية والإخاء البشري والتعاون الإنساني، وأن يجتهدوا في تعريف الغرب الإسلامَ على حقيقته.

كما يجب أن يُبَيِّن العلماء مدنية الغرب على حقيقتها، ليحل التعارف محل التناكر، ويحل السلام محل الخصام.

ويجب أن يتتبع علماء الإسلام ما يأخذه علماء الغرب على الإسلام والمسلمين، وأن يفندوها وأن يوازنوا بين مبادئ الإسلام ومبادئ الأديان الشائعة، ليخرجوا من هذه الموازنة بالحقيقة الناصعة وهي أن الإسلام أصلح للحياة والتعاون في هذه الأرض من كل نحلة ودين وعقيدة ومبدأ.

وسبيلنا أن نعالج ذلك كله، إذا أقدرنا الله عليه ووفقنا لخدمة دينه من هذا الباب.

الإسلام والسلام (١)

إن من الأديان ما يدعو أتباعه إلى المحبة العامة للبشر، ولا يحول بين تعاون أتباعه وأتباع الديانات الأخرى، سواء كانوا يسكنون معهم في وطن واحد أم كانوا يسكنون أوطانًا أخرى من هذا العالم.

وإن منها ما ليس كذلك، فلا يدعو إلى محبة ولا تعاون، بل ربما وقف في سبيل التعاون البشري والإخاء الإنساني، وهذا يكون إما من تحريفه أو بطلانه، وإن مثل هذا الدين يكون شرًا تنوء به الحياة لأن الاختلاف بين البشر في العقائد والأديان واقع ماله من دافع، وليست هناك قوة يمكنها رفعه، فإذا جهل الدين هذه الحقيقة، وأراد محو الأديان الأخرى ما عداه، فلم يكن فيه عنصر التعاون مع أتباعها، كان محاولًا مالا يكون، إنما الذي يكون هو الشقاق والتنابذ والحرب المتأججة التي لا تخمد، والحكم الحق على هذا الدين أنه لا يصح أن يُكَوِّنَ أتباعُه مع أتباع دين آخر وطنًا واحدًا، ولا يصلحون أن يتعاونوا وسكان هذا العالم، وهل أسوأ من وطن يتعادى أبناؤه ولا يقدرون على التعاون على جلب مصلحة له أو دفع مفسدة عنه؟ وهل أسوأ من أمة تكون نشازًا في هذه الدنيا؟ تعادي الأمم الأخرى وتذكي نار الحرب، وتكدر السلم وتقف في طريق الغاية العظمى للإنسانية، وهي السلام الدائم على هذه الأرض.

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الرابع والعشرون، الجزء الرابع، ص ٣٩٣-٣٩٦، القاهرة: في غرة ربيع الثاني ١٣٧٢هـ/١٩ ديسمبر ١٩٥٢م.

أما الدين الأول فهو نعمة وبركة على معتنقيه وعلى من لا يعتنقونه، فهو لا يدعو معتنقيه إلى التورط في حروب تلو حروب ولا يكدر سلام العالم بشن الغارات وحمل السلاح.

والدين الإسلامي أين مكانه؟ أفيه عنصر تعاون أتباعه مع من يخالفونهم؟ أم هو من الشق الثاني؟ فهو حرب على الأديان الأخرى يشن عليها الحروب ويُغِيرُ عليها كلما واتته فرصة؟

إن الباحث المدقق يجد الدين الإسلامي من الأديان التي تدعو إلى السلم، والذي يمكن أن يتعاون أتباعه مع المخالفين في دولته أو في دول أخرى، وذلك يتضح من أمور:

أنه بَيَّن في غير ما آية أن الاختلاف في العقائد والأديان من ضرورات البشر، والله حكم بذلك فهو واقع لابد منه، ومحاولة تغيير سنن الكون عناء في عناء، لا تجدي إلا الكد والنَّصَب، فيما لا يكون: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[(١)]، وإذا علم المسلم أن طبيعة البشر تقتضي ذلك وأن هذه مشيئته، لم يكن ثمت داع للحقد ولا للبغض.

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.

أنه وضع هذه القاعدة الفاصلة التي لا هوادة فيها: " لا إكراه في الدين "، فكل امرئ يختار عقيدته، لا سلطان لكائن ما عليه، فله أن يتخير عقيدته كما يتخير ثوبه، وهذه توجب على المسلمين ألا يحاولوا إكراه أحد على الإسلام، وألا يقاتلوا أمة ليخرجوها من دينها.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[1]، أجاز في الأسرى أن يَمُنَّ المسلمون عليهم فيطلقوهم ويهبوهم حياتهم بدون عِوَض، أو يأخذوا منهم عوضًا فيطلقوهم بفداء، وفى هذا تعليم عملي للمسلمين أن يعطوا مخالفيهم حق الوجود، وأن يمنحوهم إياه حتى بعد اعتدائهم وحربهم والقدرة عليهم.

أنه أجاز أن يعقد المسلمون مع من يخالفونهم في الدين ذمة، وأن يسكنوا في وطن واحد.

أن الرسول بيَّن حقوق أهل الذمة والعهد، فإذا هي مثل حقوق المسلمين، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أي لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات.

صرح تصريحًا قاطعًا لا يقبل الشك ولا التأويل، أن الاختلاف في الدين لا يؤدي إلى عدم البِرِّ بالمخالفين وتَولِّيهم والعدل فيهم، إنما الذي يؤدي إلى ذلك هو عدوانهم: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

---

(١) محمد: ٤.

وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١].

أن القرآن دعا إلى الرفق والصبر والدعوة إلى الحق بالتي هي أحسن، وحصر مهمة الرسول في البلاغ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[٢]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[٣]، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٤]، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٥]، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٦].

هذه القواطع والأصول التي ينبغي أن تكون مُحْكَمَةً فتجعل أُمَّ الكتاب وكل من خالفها من المتشابه يرد إليها.

ولعل قائلًا يقول: إن ما ذكرته من دعوة الإسلام إلى السلم يعارضه ما ورد فيه من الدعوة إلى الحرب وقتال المشركين كافة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى

---

(١) الممتحنة: ٨، ٩.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) الغاشية: ٢١-٢٦.

(٤) فصلت: ٣٤.

(٥) الأعراف: ١٩٩.

(٦) النحل: ٨٣.

ٱلْقِتَالِ﴾(١)، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٢)، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾(٣)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(٤)، ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾(٥)، ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾(٦).

أليست هذه الآيات تدل على أن الإسلام دين حرب، وأنه يدعو إلى القتال، ويطلب أن نقاتل الكافرين لكفرهم والمشركين لشركهم، ويرى أن الكفر والشرك جريمة عقابها الحرب، حتى يُقلعوا عنها كما ورد.

قلنا إن من المخالفين من ناصبوا المسلمين العداء وحاربوهم ووقفوا في سبيل الدعوة، وهؤلاء هم الذين أباح الإسلام قتالهم، بل حضَّ عليه، وما كان يطلب أحد من الإسلام أن يغضي عمن ناصبوه العداء، وأن يطلب من معتنقيه أن يقفوا مكتوفي الأيدي، وأن يمدوا أعناقهم للذبح، لا يكلف أحدٌ الإسلامَ بذلك، لأنه

---

(١) الأنفال: ٦٥.

(٢) الأنفال: ١٣.

(٣) محمد: ٤.

(٤) التوبة: ٧٣.

(٥) النساء: ٧٤.

(٦) التوبة: ٣٦.

يخالف طبيعة الوجود والمبدأ القائل: لكل أحد حق الدفاع عن نفسه، ويكفى الإسلام حبًا للسلام أنه يبغيه ويطلبه، مع من لم يعتدوا عليه، ولا يقدح في حبه للسلام، ودعوته إليه أنه يأمر أهله بقتال من يعتدون عليهم، وهذا هو محمل الآيات والأحاديث التي تدعو إلى الجهاد والقتال، وهى تارة تأتي مقيدة بالعدوان، وتارة تأتي مطلقة عن التقييد لعلمه من الحال، كأن يكون الكلام في قوم مقاتلين بالفعل، أو لعلمه من النصوص التي تجرم قتال من لم يعتد، وما كان الله يترك هذه المسألة وهي تتعلق بمستقبل البشرية وسلام العالم، دون نص قاطع وبيان واضح وقد جاء هذا البيان في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[1]، ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾[3]، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[4].

أعلم أن من أعداء الإسلام من يتهمون الإسلام بهذه التُّهم ويلصقونها به، وهم قوم يكرهونه ويكيدون له ويريدون محوه من الوجود، ويرون أن السبيل المعبدة لذلك، هي تأليب دول العالم عليه وإفهامهم أنه حرب للسلام وللتعاون البشري، والإخاء الإنساني، ليقفوا منه موقف العداء ويحاربوه بكل سلاح.

---

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) الأنفال: ٦١.

(٣) الممتحنة: ٨.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

إنهم يجهدون في أن يُفهموا الدول القوية أنه غير صالح للبقاء، وأنه لا يجاري روح العصر في الغاية العظمى من نشر السلام، وأنه شر على أتباعه وعلى الإنسانية، لأنه لو ترك وشأنه لورَّطها في حرب تلو حرب وفى نزاع دائم وخلاف مستمر، لذلك يجب أن تُقَلَّم أظفاره ويُحارب كما تُحارب الجراثيم الضارة والأوبئة المهلكة، وهذا هو الذي يجعل البحث أعظم جدوى وأجل فائدة وأيمن على المسلمين وعلى أهل الأرض من كل بحث سواه، إنه يدفع هذه التهم الباطلة عن الإسلام، ويرد هذا السلاح الخطر الذي يكيد به أعداء الإسلام للإسلام، إنه يعلم المسلمين موقف الإسلام من السلام، فيعملوا عليه فلا يضيعوا جهودهم في جهاد غير عدو، ويعلم أهل الأرض ذلك فلا ينظروا إلى أهل الإسلام نظرهم إلى العدو المتربص الذي يريد أن ينقض، ونتيجة ذلك التعاون والسلام.

الشرق والغرب هل يجتمعان(1)

"الشرق شرق، والغرب غرب، ولا يلتقيان أبدًا"

هذه الكلمة قالها كلينج(2) الشاعر الإنجليزي وشاعت في البيئات العلمية، وأخذها كثير من الناس بالقبول، وأدخلت في قلوبهم يأسًا من الوصول إلى عالم أفضل يتفاهم فيه الشرق والغرب، ويتعاونان لا على التغلب على مشاكل الإنسانية الحاضرة فقط، بل على التغلب عليها في المستقبل أيضًا، فإنَّ تَعَاوُن البشر جميعًا يجب ألا يكون تبعًا لمصلحة وقتية، يبرمه قوم متى شاءوا ويحلونه متى شاءوا، بل يجب أن يكون تبعًا لمصلحة الإنسانية الخالدة في جميع عصورها، ويجب أن يكون تعاونًا في العلم والأخلاق والسلوك، وفى غزو الأحقاد والضغائن والأطماع والاستعلاء والاستبداد، وفى غزو الشقاء والحرمان، وفى غزو هذا النقص الذي في الإنسانية والعروج بها نحو الكمال الممكن.

إننا نؤمن بأن هذا التعاون ممكن، وأنه لا يقف في سبيله اختلاف بين الشرق والغرب، وأن الشرق والغرب يمكن أن يجتمعا وأن يلتقيا لخير الإنسانية الحاضرة والمستقبلة، وسبيلنا هنا أن نساير هؤلاء القوم الذين يرون أن الشرق والغرب لا يجتمعان، ونعمل حججهم ونرى أهي تبرر لهم ما يعتقدون؟

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الثامن، ص ٩١٢-٩١٧، غرة شعبان ١٣٧٢هـ / ١٥ أبريل ١٩٥٣م.

(٢) هو روديارد كبلينغ كاتب وشاعر وقاص بريطاني ولد في الهند ١٨٦٥م، ومات ١٩٣٦م.

يرى القوم أن بين الشرق والغرب فوارق في العقلية والمعتقد والقيم الأخلاقية، والنظر إلى الحياة، وهذا الاختلاف مما يبعد بينهما ويجعل الالتئام والتفاهم عسيرين، فالغرب مادى موغل في المادية، والشرق روحي موغل في الروحية، والغرب تعنيه الحياة الدنيا والعمل لها أكثر مما تعنيه الحياة الأخرى، والشرق بالعكس، لذلك ترى الأول معنيًا بإصلاح دنياه في حين أن الثاني مُهْمِل لها، والأول يحكم المصلحة حتى في عالم الأخلاق فلا يفي بالتزاماته وعهوده ومواثيقه إذا رأى مصلحة في ذلك، والثاني بالعكس، فهو يفي بعهوده ولو أدت إلى ضرره أو قتله أو قتل من يحب، والأول يعتقد الحرية والاختيار في تكوين نفسه وصوغ مستقبله، والثاني يرى أنه محكوم بقوة غيبية هي التي تُصَرِّفُه وهى التي تُحَرِّكُه وقد كتبت مستقبله، وهو ينشر ما كتبته ويصرف في الحياة ما رسمته، وهذان الاعتقادان لهما تأثير عظيم في عمل كل منهما وفى تصرفاتهم في الحياة، والأول ينسب الحوادث إلى أسبابها الظاهرة، والثاني ينكر الأسباب وينسبها إلى الله مباشرة فعلًا وتقديرًا لأنه لا فاعل إلا الله.

وهذه الخلافات العقلية والنفسية بين الشرق والغرب كوَّنتها البيئة الطبيعية في كل منهما من الحر والبرد، والرطوبة واليبوسة، وسهولة الأرض وحزونتها، وخصبها وجدبها، وكرمها وبخلها... إلخ، فإذا كانت الأرض على حالة كُوِّن أهلوها على وفق هذه الحالة، فالأرض الخصبة الكريمة التي تعطي أهلها خيراتها عفوا تُوَلِّد في أذهان أهلها سطحية لأنها لا تحوجهم إلى كد الذهن واستنباط الفكر ليأخذوا ما

يحتاجون إليه منها، والأرض البخيلة بالعكس تكسب أهلها عمقًا في التفكير لأنهم يعملون عقولهم في استنباط ما يحتاجون إليه منها، وكما تؤثر في العقول تؤثر في الأخلاق، فالأرض التي تعود أهلوها أن يأخذوا خيراتها في مواعيد محددة لا تكاد تتخلف وبكثرة وسخاء لا تشح ولا تقل، تعود أهلها الكرم والبذل والتهاون وعدم التفكير في العواقب، والعكس صحيح، فالأرض الشحيحة البخيلة بخيراتها تعود أهلها البخل والاحتفاظ بما في أيديهم والتفكير الطويل في المستقبل والاستعداد وأخذ الأهبة، وهكذا، وما بُني على أسباب طبيعية لا تتغير فسيبقى ما بقيت هذه الأسباب، وكما كان الحر في المناطق الحارة يُسَوِّدُ لون البشرة، والبرد في المناطق الباردة يبيضها، ولا تغير النتيجة ولو حاول المرء التغيير، كذلك الحال في تأثير البيئة الطبيعية في الأخلاق والعقول.

إنني أعلم هذا جميعه، وأعلم أن منه ما هو قابل للمناقشة، وأنا أحاول التوفيق وإزالة أسباب الخلاف والعمل على تكوين مجتمع إنساني أفضل، وأريد أن أقتصد في بحثي وأتناول جزءًا من ذلك الموضوع العام وهو الإسلام والغرب، وأرى أن الفجوة التي بين الإسلام والغرب ليست فيما ذكرنا بعضه من أخلاق وعادات وبيئات طبيعية وجغرافية، ولكن الفجوة قد عمقها ووسعها حوادث تاريخية خلقت كثيرًا من سوء الظن وعدم الثقة وقواعد السلوك والمعاملة، ونحن سنجمل بعض ذلك فيما يلي:

كانت المسيحية تبسط نفوذها على كثير من البلدان التي فتحها الإسلام كسورية ومصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس، فكان كلما فتح بلدًا آلم معتنقي المسيحية، وتناقلت أخباره إلى البلاد القريبة والبعيدة وكان له رَنَّة أسى وحزن وعَدُّوه خُذْلانًا واندحارًا للمسيحية أمام الدين الجديد: الإسلام، وكانوا يرونه رِقًّا واستعبادًا للمسيحين ويتناقلون الأخبار الكاذبة عن سوء المعاملة، وقد أراد المسيحيون أن ينصروا هذه الأكاذيب ويغرقوا في المبالغة ليبغضوا الشعوب المسيحية في الإسلام والمسلمين ليستثيروا عزائمهم وأقصى ما عندهم لدفع الإسلام وردِّه عن بلادهم.

وقد كان فتح بيت المقدس وسورية نصرًا مؤزرًا ذا نتائج باهرة وخيرات عظيمة للإسلام والمسلمين، ولكنه كان من جهة ثانية أكبر العوامل في تعميق الهوة بين الإسلام والمسيحية، فقد رأى المسيحيون أن الإسلام استولى على الأرض المقدسة التي هي مكان يحجون إليه من جميع بلاد الدنيا، ويقدسونه لأنه ولد فيه المسيح وفيه تربى وفيه عَلَّم تعاليمه وفيه صلب ودفن – على ما يعتقدون – فهو محل الذكريات الدينية المقدسة وهو مكان الوحي والإلهام وموطن النفحات القدسية والبركات الإلهية والحج والمزار والتقديس والاعتبار، فكان ذلك حادثًا بَغَّضَ إليهم الإسلام والمسلمين، وأحدث فجوة عظيمة الاتساع عميقة الغور بين المسيحية والإسلام.

وعلى الرغم من أن الإسلام كان يُعَظِّم موسى وعيسى وآثارهما وكان يعظم داود وسليمان وأنبياء بني إسرائيل ويعظم بيت المقدس وجعله من المساجد الثلاثة التي لا تُشَدُّ الرحال إلا إليها، وعلى الرغم من أنه احتفظ بالكنائس والبِيَعِ لأربابها، حتى إن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لما زار بيت المقدس بعد أن فتحه المسلمون وحضرته الصلاة أبى أن يصلى في كنيسة للنصارى مخافة أن يتخذها المسلمون مصلى ومسجدًا، فتخرج من بين أيدي أصحابها، وبالرغم من أنه لم يَحُلْ بين المسيحية والحج إلى بيت المقدس، بالرغم من ذلك كله ظلت المسيحية ترى قلبها النابض الذي يرسل إليه الحياة في أيدي المسلمين فاستعمل رجالها الدعايات وصَوَّروا الإسلام دينًا وثنيًا يهيم بالشهوات الجسدية، وليس فيه معان إنسانية مقدسة، وصوروا رسوله بصورة الكاذب المشعوذ الهائم باللذة الجسدية، والذي يدعو معتنقيه إلى عبادتها والهيام بها.

أفسحت الدعايات الباطلة في خلق روح معادية للإسلام والمسلمين مملوءة بالأحقاد والأضغان والإحن.

وكان هذا الرصيد من البغض والكراهية وحب الانتقام من الإسلام والمسلمين قد حمل أوربة، ملوكها وقوادها وشعوبها على أن تقطع الفيافي والقفار والوديان والبحار لغزو المسلمين في عقر دارهم وتخليص الأرض المقدسة من أيديهم وإعادة بلاد النصرانية إلى النصرانية، وكانوا يرون من المسلمين معاملة إنسانية سامية،



وكانوا يعاملون المسلمين معاملة وحشية قاسية ولم يَخِف حقدهم وموجدتهم مع هذا كله وتكررت الغزوات والحملات ومكثت ما شاء الله من الزمن الطويل.

وللأمم رأي في دراسة التاريخ فهي تسخره لخدمة شعوبها وأغراضها، فهي ترفع أوطانها وأبطالها إلى الذروة وتتنقص الآخرين ولا يعنيها أن يطابق التاريخُ الواقعَ، إنما يعنيها أن يخدم وطنها وأن تغرس الكرامة والمحبة لأحبابها وتغرس الحقد والبغض والهوان لأعدائها أو لمن تراهم أعدائها، وعلى ذلك جرى التعليم والتربية في مدن أوربة ولقي الإسلام والمسلمون جورًا وظلمًا واتهامًا كانا بريئين منها، ولكنها عمقت الهوة بين المسيحية والإسلام.

وهذا هو السر الدفين في كثير من الحركات والحوادث في التاريخ، فالحروب المتوالية التي استمرت قرونًا بين الإسبانيين والمسلمين في الأندلس، والتي انتهت بإجلاء المسلمين عنها وخروج هذه الدُّرَّة اللامعة من التاج الإسلامي، وما كان في خلال ذلك وبَعْدَه من اضطهاد ديني يقشعر المرء منه عند سماعه، مرجعها هذه الروح التي ربَّتْهَا الأجيال والقرون والدعايات المغرضة، وهذا هو السر أيضًا في أخطاء الباحثين في الدين الإسلامي من المستشرقين، فكثير منهم كان يعالجه بهذه الروح، ولقد خرج بعض منهم من قيود هذه الروح فأنصفوا الإسلام ونبي الإسلام كالكونت دي كاسترى وكارليل، ورأو فيه دينًا أدى للإنسانية خدمات، وعرج بها درجات.

وهذه هو السر أيضًا في أن أوربة تنكر على الإسلام والمسلمين أنهم ساهموا في رقيها، وقاموا بقسط وافر في نقلها إلى هذه الحضارة التي تنعم بها اليوم، والمسلمون في الأندلس الذين جُوزُوا كما جُوزِيَ سنمار، هم الذين دَوَّنُوا الفلسفة وشرحوها ولخصوها وأزالوا عنها أغلاط القرون وفساد الدهور، فأخذتها عنهم وشغلت بها نقدًا وتمحيصًا وبناء على ما عرفوا منها حتى كانت هذه المدنية التي يتمتع بها العالم اليوم.

هذه هي الحوادث التاريخية والدعايات الباطلة التي أَثَّرت في نفوس الغربيين وباعدت بينهم وبين الإسلام وخلقت روحًا عامة في أوربة معادية للإسلام والمسلمين.

أما الحوادث التاريخية التي أَثَّرت في نفوس المسلمين وحملتهم على فقد الثقة بالغرب فهي ما لا يزالون يذكرونه من الحروب الصليبية ومن تجمع أوربة عليهم وعلى غزوهم في عقر دارهم، ثم إخراج المسلمين من الأندلس، وإزالة ملكهم منها ومحاكم التفتيش، ثم حرب البلقان ومعاونة أجزائه على الانفصال من حكم الإسلام، ثم تقسيم تركة الرجل المريض، ثم بعد ذلك الاستعمار الذي جثم على ممالك الإسلام وتوزيع ممالكه بين المستعمرين، ثم حوادث فلسطين الدامية وتشريد سكانها في الفيافي والقفار، ومنح اليهود إياها تحت سمع العالم المتمدن وبصره، فهي مثل الحوادث التي أثرت في نفوس أوربة، والفارق أنه لم تصحبها دعايات باطلة، فما زال عيسى بن مريم في الإسلام روح الله وكلمته، وما زال يُقِرُّ

له بالكرامة والمعجزات وما زال يُنَزِّه أُمَّه عما قرفهما به اليهود وما زال يتلى في كتابه الخالد: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[١].

وقد أصبح الدواء معروفًا بما تقدم وهو ينحصر فيما يأتي:

أن ينصف الفريقان بعضهما بعضًا في التاريخ فيعلم كلاهما أن الأرض التي هم عليها قد أخذوها ممن كان يملكها قبلهم، وأن من كان يملكها قبلهم قد أخذها ممن كان يملكها قبله، وهكذا دواليك، وأن هذه سنة الله في الوجود، وأنه لو صحَّ لأحد أن يطالب بها بحجة أنه كان يملكها قبل ذلك بقرون، لصحَّ لسكان أرض فرنسا وانجلترا الغابرين أن يطالبوا بإخراج الفرنسين والإنجليز الآن من أراضيهم بحجة أنهم كانوا يملكونها قبل ذلك اليوم:

ولو دامت الدُّولات كانوا كغيرهم … رعايا ولكن ما لهن دَوَامُ[٢]

وبذلك تسقط حجة اليهود في أن فلسطين لهم لأنهم كانوا يملكونها من قديم، وقد كان بعض هذا التعاقب فيه صلاح البشرية وتقدم الإنسانية، إذا علمت هذه الحقائق خفت الموجدات والأحقاد وبطلت هذه السياسات التي تعمل على رد ما كان إلى ما كان.

(١) سورة التحريم الآية ١٢.

(٢) البيت منسوب لأبي العلاء المعري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العُمري دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠١٠م (١٥/ ٣٠٧)

أنْ تُغَيَّرَ دراسة التاريخ في أوربة لا سيما ما يتعلق بتاريخ الإسلام والمسلمين فلا يدرسوه على وجه يحيي العصبيات على الإسلام والمسلمين ويدعو إلى احتقاره واحتقارهم، بل يدرسوه دراسة منصفة تبين حقيقة ما قاموا به من جهد في تقدم الإنسانية وخدمة البشرية، وأن تنصف المسلمين كذلك، ومن حسن الحظ أن بعض علماء أوربة قد درس الإسلام وعلم حقيقته وأنصفه وأنصف المسلمين، وبين ما لهم من قسط وافر في نقل الحضارة والعلوم إلى أوربة، ومن حسن الحظ أيضًا أن هيئة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة قد علمت ضرورة دراسة التاريخ على وجه يثير العصبيات والأحقاد فأوصت أن يدرس على غير هذا الوجه في الشرق والغرب والعبرة بالتنفيذ، ونرجو أن يصاحبه التوفيق.

يجب أن يزول نظام الاستعمار وتَسَلُّطَ أمة على أمة وأن يكون لكل أمة الحق في تقرير مصيرها، وإذا كان الضمير الإنساني قد أنكر أن يَسْتَعْبِدَ فردٌ فردًا، فأعظم منه أن تستعبد أمةٌ أمةً، يجب أن تزول علاقة السيد بالمسود والحر بالعبد، وتحل محلها علاقة الشريك بالشريك والمعاون والحر بالحر، وتجربة بريطانيا في الهند والباكستان تشجع على ذلك.

وكما أن نظام الرِّقِّ يجعل الأرقاء لا يصلحون لشيء إلا لخدمة من استعبدوهم، كذلك نظام الاستعمار يعطل المواهب والعقول ويسخر الأمم لخدمة المستعمرين.

وهذا مخالف لسُنَّة الوجود لأن البشرية تريد أن تنتفع من جهود جميع أبنائها وأن يعمل الجميع لتقدمها ولا تحتمل فساد طائفة لأن الفساد يُعْدِي والدَّاءَ يَسْرِي.

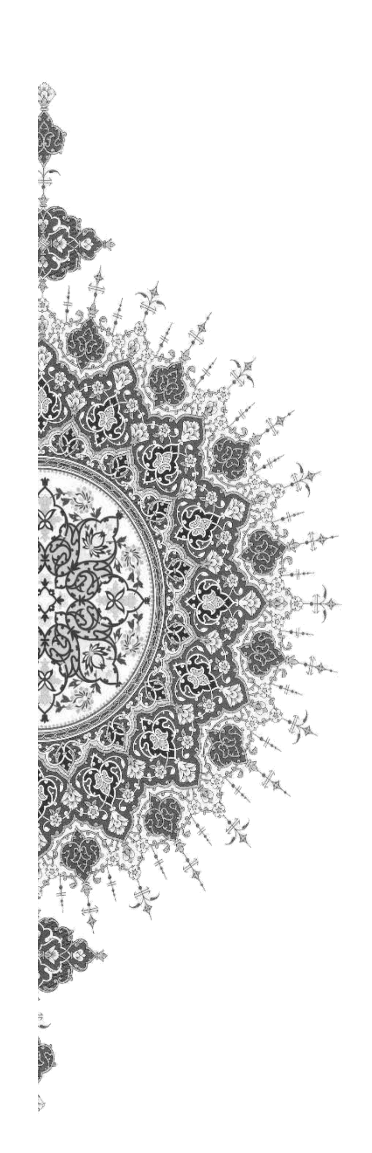
إن الاستعمار يُوَلِّدُ بغضًا وحقدًا في الأمم المستعمَرة على من استعمرهم، وكذلك يولد الحقد والبغض بين الأمم الراقية، لأن الأمة المحرومة تجد على الأمة التي ملأت يديها من خيرات الأرض وفازت بقسط أكبر من المستعمرات، فتريد أن يكون لها هذا النصيب فتشعل نار الحرب، وإذا دققت النظر في الحربين العالميتين الأخيرتين وجدت أسبابهما ما ذكرناه، فإنك تلمح المجال الحيوي الذي كانت تتشبث به ألمانيا، وتدعو إليه، وتلمح موازنة بين ما يملكه الفرد الألماني من الأرض، وما يملكه الفرد الهولندي أو الإنجليزي أو الفرنساوي والفرق الشاسع بينهما بسبب الاستعمار.

ومهما قيل من أسباب أخرى، فذلك إبعاد في الخطأ وإيغال في البعد عن الحقيقة، ولفت للأنظار عن السبب الحقيقي وذلك ليس في مصلحة الإنسانية.

ومن حسن الحظ أيضًا أن هيئة الأمم المتحدة أدركت ذلك أيضًا وأعلنت حقوق الإنسان وحق كل أمة في تقرير مصيرها، ونقولها ثانية: إن العبرة بالتنفيذ، وقد سمعنا هذا في شروط الرئيس ولسون عقب الحرب الأولى، كما سمعنا الميثاق عقب الحرب الثانية من الرئيس روزفلت.

من مصلحة الإنسانية أن يكون ذلك صدقًا وحقًا، وأن تعمل على تحقيقه.

المجموعة السادسة
أخلاقيات وتوجيهات تربوية



المجموعة السادسة

أخلاقيات وتوجيهات تربوية

تحتوي على المقالات الآتية:

إلى الأمة الإسلامية في عامها الجديد [(١)]

للشعوب أخطاء كما للأفراد أخطاء، وشَرُّ هذه الأخطاء ما يقع في القواعد الاجتماعية، إذ الخطأ تكون له نتائج سيئة الأثر تتجرع الأمم غُصصها ما دامت فيها هذه الأخطاء وخير ما يُسديه إلى أممهم رجالُ الاجتماع والعلماء بروح الجماعات وطبائع الشعوب أن يُصلحوا لهم هذه الأخطاء ليجنبوهم شرورها، ويصلحوهم بإصلاحها.

إن لكل خطأ مهما كان أضراره، فالرِّجْل إذا أخطأت الجادة تَردَّى صاحبها في الحفرة أو تعثر بحجَر، والمرء إذا أخطأ في تجارته مُنيت بالبوار، وصاحبها بالخسارة؛ وإذا أخطأ في طعامه وشرابه ولباسه فَقَد الصحة وعاودته الأوجاع والأسقام.

هذه أضرار تنشأ عن الأخطاء، وهي وإن كانت شديدة ولكنها لا تبلغ ضرر خطأ الجماعة في قاعدة اجتماعية، لأن الضرر يكون عامًا بقدر ما في هذه الجماعة من عموم دائم، وبقدر ما في الخطأ من مكث بالغ في الشدة بقدر ما في الخطأ من انحراف عن الصواب. وإن الأمة الإسلامية لها أخطاء في القواعد الاجتماعية تجني منها الألم والحسرة. وقد رأيت أن أصلح لها خطأ من هذه الأخطاء وأجعل ذلك هدية مني إليها في مستهل هذا العام الجديد. وسأذكر هذا الخطأ وإصلاحَه بعد أن أذكر بين يديه مقدمة.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة السادسة، عدد ٢٤٧، ص ٥٣٣-٥٣٤، الاثنين ٢٦ محرم سنة ١٣٥٧هـ / ٢٨ مارس ١٩٣٨م.

إن كل شيء في الكون يتنازع الوجود، والبقاء في هذا التنازع للأقوى، وقد كان الفرد قبل تَكوُّنِ الجماعات ينازع الفرد، ثم التمسَ أسباب القوة بالاجتماع، وقد أخذ الاجتماع أشكالًا عدة من الأسرة والعشيرة والبطن والقبيلة، وقد كان النزاع بين الأسرة والأسرة والقبيلة والقبيلة نتيجة غلبة الأقوى تبعًا لقانون إنما العزة للكاثر؛ ثم أخذ الاجتماع شكلًا أوسع بالمدينة والمملكة فكان أهل كل مملكة يُكَوِّنون وحدة مستقلة تجلب لنفسها الخير وتدفع عنها الضَّيْر، ثم جاء الدين الإسلامي فكوَّن وحدةً إسلاميةً لم تبلغ وحدة من العِظَمِ والتجانس ما بلغته هذه الوحدة.

عمل الإسلام على غرس المحبة والتضامن بين أجزاء هذه الوحدة فقال: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "[١].

وقال: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً "[٢].

وقال: ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٣].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (١٢)، والإمام مسلم في صحيحه، كِتَاب الإِيمَانِ، بَاب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مِنْ خِصَالِ الإِيمَانِ، حديث رقم (٦٨).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، حديث رقم (١٨٤٧)، والإمام النسائي في السنن الصغرى، كتاب الزكاة، باب: أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه، حديث رقم (٢٥٢٥).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم

أَحَبَّ المسلم أخاه المسلم وساد على المملكة الإسلامية المحبة والسلام فتعاونوا على جلب المنافع ودفع المضار.

لقد أتت هذه الوحدة بالمعجزة الاجتماعية العظمى فقد كان العرب قبل الإسلام يُنتَقَصُون من أطرافهم، وكان مَنْ بجوار الشام عُمَّالًا للروم، ومَنْ بجوار الفرس عُمَّالًا للفرس. فلما جاء الإسلام أعزَّ الله به العرب والمسلمين، فلم تمض عشرون سنة من عمره حتى هدَّد هؤلاء الأقلون المملكتين المتاخمتين الفُرْسَ والرُّومَ وانتقصوهما من أطرافهما، ثم عقب ذلك أن ورث مُلْكَ الأكاسرة ومعظم مُلْكِ القياصرة.

هذه المعجزة الاجتماعية إذا بحث المرء عن سببها وجدها الوحدة الإسلامية، فقد بدَّل الإسلامُ تفرُّقَهُم اجتماعًا، وبغضهم حبًا، وحربهم سلمًا، وبعد أن كان بأسهم بينهم شديدًا حُوِّل هذا البأسُ إلى الآخرين، لذلك منَّ الله على المسلمين بهذه الألفة ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

وتعاضدهم، حديث رقم (٤٦٩٢).

(١) آل عمران: ١٠٣.

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

للغرب طمع في الشرق من قديم، وقد غالبه مرات وهو يخفق. قامت الحروب الصليبية، ونزح الغرب على الشرق وهاجمه في عدة من ثغوره وبلدانه ولكنه لم تُجْدِه هذه المحاولة وهذه المهاجمة، فعاد إلى الحيلة ورأى أنه يستطيع أن يدرك بالحيلة ما عجزت عنه القوة.

الغرب عالمٌ واسع العلم لا يسير إلا ومصباح العلم أمامه يهديه السبيل، ويبصره مواقع أقدامه، نظر إلى الجسم الإسلامي فرأى أنه ليس يضيره أن يبتر منه عضو من أعضائه. إنما الذي يضير ويُقْدِرُهُ عليه هو إضعاف روحه؛ وقد رأى روحه الوحدة الإسلامية فعمد إليها وسماها تعصبًا دينيًا ممقوتًا، وسمى التعاون الديني تعصبًا إسلاميًا همجيًا، وأسبغ عليه ما شاء من نعوت الذم والوحشية، فدخل ذلك على الشرق - وهنا وصلنا إلى ما نريده من الخطأ الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية - فآمنت بنظرية الغرب، وسمتها تعصبًا دينيًا، وخجلت من أن توصم بالتعصب الديني، فتركت هذه الوحدة المقدسة، ونفرت من هذا التعاون الإسلامي، فلما ضعفت الروح سهل التغلب على الجسم.

---

(١) الأنفال: ٦٣.

كان على المسلمين أن يعلموا أنه لا مقاومة في الوجود إلا بوحدة. وقد ظهرت هذه الوحدة بمظاهر مختلفة منها الوحدة الجنسية، ومنها الوحدة الوطنية، ومنها الوحدة الدينية، وإذا استمسك الغرب بالوحدة الجنسية أو الوطنية لما فيها من الإقدار على الكفاح في هذه الحياة، فعلى المسلمين أن يستمسكوا بما صُبُّوا فيه من وحدة إسلامية ليقدروا أيضًا على الكفاح في هذه الحياة.

كان على المسلمين أن يعلموا أن التعصب الديني موجود في أمم الغرب التي تعيب المسلمين بالتعصب الديني، يظهر ذلك في أعمالهم وكثير من نواحي حياتهم، وأقرب ذلك تطوع بعض الأوربيين والأمريكيين في جيوش الأسبانيين، والفرنسيين ضد الريفيين المسلمين الذين كانوا يدافعون عن وجودهم (١)، فلو أن التعاون الديني كان نقيصة كما يزعمون لما نَهوا عنه غيرَهم وأَتَوْه هم.

كان على المسلمين أن يعلموا أن الوحدة الجنسية والوطنية في أوربا قد أتت من الفظائع ما لم تأت بمثله ولا بأقل منه الوحدة الإسلامية في الإسلام، وآية ذلك معاملة الألمان لليهود، وتلك الحروب الطاحنة تؤجج نارها العصبياتُ القومية أو الجنسية. ليس في الوحدة الدينية ما يمكن أن تؤخذ به إلا أنه قد يكون في الوطن الواحد أديان مختلفة؛ والوحدة الدينية ربما عادت بين هذه الوحدات، ولكن

(١) يشير إلى ما حدث من النصارى الأسبان من إبادة للمسلمين في بلاد الأندلس.

الإسلام قد احتاط لذلك، وأوصى المسلمين بهم وأوجب أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

حافظ الإسلام على أهل الذمة وذوي العهود والمواثيق من ذوي الأديان المخالفة ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (١)

على الأمم الإسلامية أن تقلع بعد اليوم عن هذا الخطأ وأن تعلم أنها وقعت فيه بعض تلك الموجات التي تغمر الأمم فتلهيها عن مصالحها، ولا يخافن أهل الذمة في بلاد المسلمين وذوو العهود مع المسلمين من إحياء الوحدة الإسلامية فإنها تقوي جيرانهم وأهل عهدهم ولا تصيبهم بأذى لأن الإسلام كما قدَّمتُ يُوصي بأهل الذمة وبالوفاء بالعهود.

---

(١) الممتحنة: ٨.

بين الذكرى والعبرة معجزة الإسلام الخالدة [(١)]

(شعب يظهر على شعوب، ودين يعلو على أديان، وحضارة تغزو حضارات، وقوة معنوية تزلزل الأرض وتَهُدُّ الجبال).

يعجب كثير من الناس كيف استطاع محمد ﷺ أن يفتح بفئة قليلة من المهاجرين والأنصار الحصون التي كانت حول المدينة ومكة ؛ وأن يظهر بهم على قبائل الجزيرة العربية ورجالاتها، وعلى عقائدها وعاداتها، وأن يرفع بهم في غيابة الجهل، وضلال العقل وحيرة الإنسانية، لواء الحق والفضيلة، والخير والرَّشَاد، فينشر في أرجاء الجزيرة، بهذه الفئة الصغيرة، هَدْيَ السماء، وشريعةَ التوحيد، ويأتيه أهلها طائعين، يدخلون في دين الله أفواجا؛ ثم كيف استطاع أصحابه بعد أن فتحوا بهؤلاء دول العالم القديم: فارس والروم وبلاد السند ومصر وإفريقية والأندلس. وقد كانوا أقلَّ عُدَّة، وأضعفَ جندا، وأقلَّ دراية بفنون الحرب، ودُرْبَة على أساليب القتال من أمَّة كفارس والروم.

يعجبون من شأن هؤلاء المسلمين الأولين، لقد كانوا بين تلك الدول والشعوب، وهذه الحضارات والمدنيات، كالشعرة البيضاء في فرس بهيم [(٢)]، وكالطفل الصغير يصارع شجاعًا جبارًا.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، عدد ٣٤٨، ص ٤٢٧-٤٢٩، الاثنين ٢٥ محرم ١٣٥٩هـ / ٤ مارس ١٩٤٠م.

(٢) البَهِيمُ: الأَسْوَد شديد السَّوَادِ.

ولكني لا أعجب عجبهم؛ بل أعجب كيف لم يفتحوا الأرض جمعاء، ثم يحاولوا بعد ذلك فتح السماء؟

كيف أعجب من ذلك؟

لعلي أغفل قانون الكثرة، والقوة المادية، والفنون الحربية.

لعلي أغفل البروج المُشَيَّدة، والحصونَ الشامخة، والعساكر والدَّسَاكر (١)، والمدن والذخائر، والقوة والمنعة، والعزة والشَّوْكة، والعلم والرأي، والفنَّ والتدبير.

لا، لست أغفل شيئا من هذا كلِّه، فقد جعلت لكل أمر قدرًا؛ بَيْدَ أني لم أغفل القوة المعنوية، فقَدَرْتُها حَقَّ قَدْرِها، ووازنت بينها وبين كل ذلك؛ فرأيتها ترجح بها كافة.

كانت القوة المعنوية في جانب، وكانت القوة المادية في آخر وكان من الحتم أن تتغلب القوة المعنوية على كل شيء عداها.

كان في هذه الفئة القليلة من المسلمين قوةٌ معنوية، بعثها فيهم دينُهم، وأججها في صدورهم نبيُّهم، فآتت أكلها كل حين بإذن ربهم، وظهرت بها معجزات الإسلام الخالدة على يدِّ هؤلاء البواسل الأرواع حتى فتحت أرضًا، ونشرت دينًا، وفَرَضَتْ لغةً على هؤلاء الأقوياء الظاهرين في الأرض، ثم بعثت الحضارة والمدنية والثقافة والعرفان في الشعوب جميعًا.

---

(١) الدساكر: جمع دَسْكَرة، وهي الأرض المستوية، وهي بناء كالقصر حوله بيوت الأعاجم فيها الشراب والملاهي، ويكون للملوك الدَّسْكَرَة القرية العظيمة.

إنه لخليق بالباحث أن يتبين هذه القوى المعنوية التي كانت تخفق بها قلوب المسلمين، والتي أتت بهذه المعجزات الباهرة الخالدة بعد قليل من السنين.

لقد فتشت عنها، وبحثت عن مصادرها ومظاهرها، فرأيتها تتجلى فيما يأتي:

١ –الإيمان:

آمن المسلمون بشريعة الإسلام؛ وآمنوا بأنهم على حق في عقائدهم وآرائهم وأعمالهم، والناس جميعًا على باطل، ومن حق هذه العقائد الحقة، والآراء الحقة، والأعمال الحقة، أن تعم للبشر وأن يؤمن بها الناس جميعًا؛ وآمنوا بأنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الإنسانية السعيدة على أسس العدالة والحق والسلام. لقد آمنوا بأنهم مصلحو البشر، وهداة الكون، وأنهم إن مُكِّن لهم في الأرض بعثوا فيها هدى ونورًا وعدلًا، وأنقذوها من يد الظلم والوحشية، وحرروها من استبداد الطغاة وقسوة القساة، وغطرسة المتزعمين والمتكبرين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١١٠.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[١]، وآمن المسلمون مع ذلك بأنهم منتصرون فائزون، لأنهم على حق، والحق لابد ظافر منصور، يستوي في درك ثمرة النصر الأموات والأحياء، فكل موقعة تقع، وكل حرب تشب نارها، هم فيها الرابحون، وأعداؤهم هم الخاسرون، فالمجاهدون من المسلمين إما أن يَقتلوا أو يُقتلوا، فمن قُتِلوا فلهم الفوز بالسعادة الآخرة الباقية، يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، ومن قتلوا فلهم النصر والبقاء في الأرض، والعزة والدولة.

لقد غرس هذا الإيمان المتشعِّبُ النواحي في نفوس المسلمين كتابهم الحكيم، ورسولهم الكريم. بعث فيهم الله روح القوة والرجولة، والإباء والبطولة، ووعدهم بالنصر المؤزَّر والفوز المبين ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢]، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣]، وزاد الرسول ﷺ هذه الروح فيهم اشتعالًا بقوله وفعله.

---

(١) الحج: ٤١.

(٢) آل عمران: ١٣٩.

(٣) المجادلة: ٢٢.

أفلم تسع قريش إلى عمه برجالاتها ووجوهها يناشدونه البُقْيَا على الرَّحِم، والحفظ للجوار، وكفَّ محمد عن تسفيه أحلامهم والسخريةِ بأصنامهم، فطلب أبو طالب من ابن أخيه أن يُبْقِي عليه وعلى نفسه وألَّا يُحَمِّلَه ما لا يطيق من عداوة قومه، وخصومة أَرُومَتِه(١)، فثار هذا الداعي الكريم، ونطق هذا الروحُ العظيمُ: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه). وكان هذا القول الفصل بين قريش وبين محمد الرسول الكريم. وضرب بهذا أروع مثل للأجيال السابقة واللاحقة.

وقبس المسلمون هذه الروح، فتجلت في أسارير وجوههم، ورسمت على صفحات قلوبهم، وبدت في كلامهم، وفي أفعالهم، كأنها الشهاب الثاقب، أو الصبح المبين.

فهذا رسول الله يستشير المسلمين في محاربة قريش وقد خرج للقائهم في غزوة بدر الكبرى، فيقول: (أشيروا عليّ أيها الناس). فينطق سعد بن معاذ: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله). فقال: (أجل). فقال: (يا رسول الله، لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو

---

(١) الأَرُومَة: أصل الشجرة، واستعملت للحسب، يقال: هو طيب الأَرُومَة: كريم الأصل، انظر: المعجم الوجيز، مادة: أَرَمَ، ص ١٤.



استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبر في الحرب، صُدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله)

وهذا زيد بن الدِّثِنَّةِ يرسله النبي ﷺ في رهط من الصحابة مع وفد من العرب ليقرئوهم القرآن ويعلموهم شرائع الإسلام، فيغدر هؤلاء الأعراب في الطريق بزيد وأصحابه، يقتلون بعضًا ويأسرون آخرين؛ ثم يبيعون زيدًا لقريش لتقتله بدل مَن قُتِل مِن رجالها بيد المسلمين؛ ويقول له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك تُضرب عنقُه وأنك في أهلك؟ فيجيبه زيد: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي.

هؤلاء هم المسلمون، آمنوا فلم يقف في طريقهم شيء في الأرض، وساروا كالسيل العرِم لا ترده سدود ولا عقبات، فتنوا في دينهم وعذبوا ونكل بهم وشردوا في الأرض وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، فما وهنوا ولا استكانوا ولا ذلوا ولا أخلدوا إلى الأرض، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا.

٢ -الاتحاد والألفة:

وترى القوة المعنوية في اتحاد المسلمين الأولين وتوادهم، كما رأيتها في إيمانهم ويقينهم، فقد اتحدت قلوبهم، وتحابت نفوسهم، وصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وأصبح المسلمون جميعا جسما واحدا، سرت فيه روح واحدة قوية، فكان يشعر بشعور واحد، ويفكر بفكر واحد، إذا اشتكى عضو منه تألم له سائر الأعضاء.

وقد بلغ من ذلك الاتحاد المتين والمحبة الصادقة أن آخي رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار حين نزل المدينة ليُذْهِبَ عن المهاجرين وحشةَ الغربة، ويؤنسَهم من مفارقة الأهل والوطن، ويشدَّ أزر بعضهم ببعض، فكان الأنصاري يقسم ماله بينهم وبين المهاجر، ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة.

وقد ضرب المسلمون في هذا السبيل أبلغ الأمثال للأمم التي تصبو إلى المجد والسؤدد، فكان عطف بعضهم على بعض، ومواساة الغني للفقير، والبريء للمريض، وتوقير الصغير للكبير، وحنان الكبير على الصغير، كان كل ذلك مضرب الأمثال في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يزال ذكرًا جميلاً لهؤلاء الأمجاد الأبطال، والأجواد السَّرَوات[1] الغطاريف[2].

---

(١) السَّرَوات: المروءة في شرف، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، باب الواو، فصل السين، ص ١٢٩٥.

(٢) الغِطْريف: السّيد الشّريف، انظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، حرف الغين، باب الرباعي من الغين (الغين والطاء)، (٤/ ٤٦٥).

أين نحن من هؤلاء؟ وأين الأرض من السماء؟ لقد خَلَف من بعدهم خلف أضاعوا إيمانهم، وبددوا اتحادهم وأُلفتهم، فتفرقوا شيعا، وتمزقوا بددا، فضعفوا عن كثرة، وذلوا بعد هذه العزة الرفيعة المنيعة.

فإذا شاء المسلمون أن يعود لهم مجدهم الباذخ وعزهم التليد، فليبحثوا عن إيمانهم الذي فقدوه، وعن اتحادهم الذي بددوه، وعن ألفتهم التي أضلوها، وليكملوا أنفسهم، بهذا تَعُد الذلةُ عزةً، ويصير الضعف قوة، وترجع إليهم العظمة الدائرة، والسؤدد الدارس.

ليؤمن رجال الدين أنفسهم كإيمان السالفين، إيمان قوة وعزم، لا إيمان ضعف وذلة؛ فمجرد التصديق لا ينقل قدما ولا يحرك ساكنا. إنما الإيمان هذه الحركة المتقدة، والنار الملتهبة، والحمية للحق، والمحبة للبشر، والإخلاص لله، والغيرة أن تنتهك حرماته، وتستباح محارمه، وتعصى أوامره؛ إنما هو العمل على أن يأخذوا بأيدي الناس من الظلام الدامس إلى النور المبين، ومتى عاد هذا الإيمان إلى أهل الدين أنفسهم أعادوه إلى الناس جميعًا.

وإذا أردنا الألفة والمحبة - لنستعيد الماضي المجيد، ونؤسس المستقبل الجديد، على عِبَرِ اليوم وعِظات الأمس - فلننظر بماذا ألف الإسلام بين قلوب أصحابه، وبماذا غرس فيها المحبة والإخاء ؟ لقد جمع الإسلام بين قلوب المسلمين بنزع أسباب الفرقة منهم. كان العرب قبائل متعددة كل قبيلة وحدة يرأسها، يتعصب المرء

لقبيلته، وتعادي كل قبيلة الأخرى، فكان بأسهم بينهم شديدا، وحطموا أنفسهم بأيديهم، ووأدوا سؤددهم بلجاجهم في الخصومة والفرقة، وأضعف بعضهم بعضا فضعف الجميع. ثم جاء الإسلام فوسع أفقهم الضيِّق، وبعد أن كان المرء يرى نفسه فردًا من قبيلة، أصبح يرى أنه فرد من أمة، ورأى الجميع أنهم أعضاء أسرة أوسع، هي أسرة الإسلام؛ وخاف الإسلام أن يعودوا إلى ما كانوا عليه أشلاء ممزقة وقبائل متفرقة، فقسا أعظم القسوة على من يعيد روح التعصب إلى القبيلة جذعة، وعَدَّ هذا ذنبًا خطيرًا وإثمًا كبيرًا.

فلنتبع المنهج الذي ألف به الإسلام بين المسلمين، ولنطبق سياسته الحكيمة الرشيدة من جديد، فسترون المعجزة تتجدد، والرجاء يتحقق، والحياة تبتسم لنا، والمجد يصافحنا بعد عبوسه وجفائه.

لست خياليًا أسعى إلى توحيد المسلمين جميعا قبل اتحاد الأمة الواحدة منهم، فأطلب الكثير وقد عجزت عن القليل، وأطلب للفرع مُضيعًا الأصل.

كل أمة من الأمم الإسلامية قد قطعت أحزابًا، وفرقت شيعًا، ففي مصر لا يتحد المصري، كل يرى نفسه فردًا من حزبه، قبل أن يرى أنه فرد من أمته، وفي الأمم الشرقية الشقيقة كما في مصر من الفرقة والانقسام.

علينا أن نداوي هذا الانقسام الداخلي أولًا، فإذا أحرزناه سعينا إلى الاتحاد الخارجي.



لقد كان من شرور الحزبية ما سمعتم أولاها وشاهدتم أخراها، حرب وانتقام، وكراهية وانقسام، وإغداق على الشيع والأنصار بالمناصب والألقاب ولو كانوا غير أهل، وحرمان للآخرين ونقمة عليهم ولو كانوا من ذوي الكفايات.

من طاوع العصبية الحزبية فانظروا إليه شذرًا واعلموا إنه داعي فرقة وانقسام؛ انظروا إلى الحزبية كما تنظرون إلى الداء المهلك المبيد، والشر الماحق المبير، إنها قطعت أوصالا ومزقت شملا، وزرعت أحقادا ورفعت جهلا، وأقصت علماء وقربت جهلة، إنها أبعدت المصلحة العامة وأدنت المصلحة الفردية الحقيرة الزائلة.

حَرِّموا يا قوم النظر الحزبي، كما حرم الإسلام النظر القبلي، وكونوا أفرادا من أمة لا شيعة من أحزاب.

الإيمان والاتحاد خُطُّوا عليهما يا قوم مجدكم، وارفعوا بهما مستقبلكم تتجدد المعجزة مرة أخرى ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾(١).

---

(١) التوبة: ١٠٥.

الشجاعة وأثرها في الإسلام[(١)]

لو قيل لي أي الأخلاق الفاضلة كان له الفضل في ظهور الإسلام وانتشاره لما ترددت في أن أقول الشجاعة. فالشجاعة الأدبية والشجاعة الجسدية هما الدعامتان اللتان قام عليها الإسلام، وبفضلهما انبثق نوره في سائر الأرجاء؛ أو قُلْ إنَّ الشَّجَاعَةَ الأَدَبِيَّة والشَّجَاعة الجَسَدِيَّة نوع واحد مرجعه إلى جرأة القلب، والاعتماد على النفس، وعدم الخوف من أحد؛ فإذا وجد صاحبها حقًا مهيضًا نصره، وإذا وجد باطلاً عرمًا خذله بحد اللسان أو بشبا السنان.

ولقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أشجع الناس في قول الحق والجهر بما يعتقد، وبحسبك أن قومه كانوا يقدسون الأصنام ويرونها الحق الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا تحوم حوله شبهة؛ وكان يعلم أنهم يتعرضون لشبا السيوف وملاقاة الحتوف محاماة عن أصنامهم وذبًا عنهم، فلم يمنعه ذلك من أن يجهر بالحق ويعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويصيح في وجوههم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ

---

(١) مجلة الرسالة، السنة العاشرة، عدد ٤٤٩، ص ١٧٠-١٧٢، الاثنين ٢٣ محرم ١٣٦١هـ / ٩ فبراير ١٩٤٢م.



مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[1].

﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا ﴾ [2]، ربَّاه الله على الشجاعة الأدبية والجهر بما يعتقد، له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾[3]، وقال: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾[4]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[5]، وأبان له أن كتمان الحق موجب للعنة الله والناس ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[6]؛ فعُلم أن في العالم حقًا وباطلاً، وخيرًا وشرًا، وأنه يجب على الأنبياء والمصلحين أن يكونوا نصراء الحق والخير وأعداء الباطل والشر، وأن عليه أن يزكي هذه العداوة ويؤجج نارها حتى يُدِيل الله الحق والخير من

(١) الحج: ٧٣.

(٢) الأعراف: ١٩٥.

(٣) المدثر: ١ -٣.

(٤) الحجر: ٩٤ -٩٥.

(٥) المائدة: ٦٧.

(٦) البقرة: ١٥٩.

الباطل والشر. وكما كان صاحب الدعوة صلوات الله عليه المثَل الأعلى في الشجاعة الأدبية، فقد كان كذلك في شجاعته الحربية أعظم مثل وأروعه، يدل على ذلك قول علي: (إنا كنا إذا حمي البأس وأحمرت الحِلَق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا)؛ ووقفته الخالدة يوم أحد ويوم حنين فرَّ الشجاع وارتعد الصنديد، أكبر مثل وأعظم برهان.

ولقد ربى الإسلام المسلمين على الشجاعة وحببها إليهم وزينها في قلوبهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1] حتى جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وما زال يربيهم على الشجاعة والقوة والمنعة إلى أن صاروا فيها مُثلاً عُلْيا وأمثالًا مرددة؛ ففرض الله عليهم أن يثبت الواحد لعشرة ولا يفر منهم، ثم خفف عنهم وأوجب أن يثبت الواحد لاثنين ولا يفر الجيش من ضعفه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ

---

(١) الصف: ٤.

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[١] وكان من أثر الشجاعة في النبي وأصحابه أن عز الإسلام والمسلمون وصاروا أمنع من عقاب الجو وجبهة الأسد، لا تلين قناتهم ولا يُسلِّمون لمن أرادهم، فلم يضعفهم قلتهم وكثرة أعدائهم وكان للإسلام العزة وللمسلمين التمكين في الأرض.

وكان أولوا الأمر من المسلمين الأولين يحافظون على قوة نفوس المسلمين كمنبع لعز الدولة الإسلامية، ويعلمون أنهم إذا عاملوا الرعية بالقهر ذلوا لهم لغيرهم ولم يكن فيهم غناء، فبالغوا في المحافظة على روح المسلم أن تذل وكرامته أن تمتهن، بل جاوز ذلك غير المسلمين ممن تظلهم الدولة الإسلامية برعايتها. ضرب ولد لعمرو بن العاص قبطيًا فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب فأرسل إلى عمرو وابنه وقال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ لا. بل لقد كانوا يفرحون إذا وجدوا في الأمة ما ينبئ عن قوة نفس وشجاعة قلب وجرأة على قول الحق. خطب عمر بن الخطاب في خلافته فقال: أيها المسلمون إذا وجدتم فيَّ اعوجاجًا فقوموني. فقام رجل من المسلمين وقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد الله الذي جعل في هذه الأمة من إذا وجد فيَّ اعوجاجًا قومني بسيفه. وذلكم مدى عناية الإسلام بالشجاعة ومدى ما كان لها من أثر في ظهوره

(١) الأنفال: ٦٦.

وانتشاره بل إن الحضارة لم تتقدم وإن المدينة لم تنهض وإن العلوم والمعارف لم تعلُ إلا بفضل الشجاعة.

يرى المصلح نظامًا فاسدًا في المجتمع أو رأيًا في السياسة فيشن عليه حربًا شعواء، يظهر عيوبه ومساوئه غير مبال بسخط الساخطين وغضب الناقمين، ويستمر في حربه وجهاده حتى تصبح آماله في الإصلاح حقائق واقعة، فينقذ الأمة من شَرٍّ وَبِيل. ويرى العالم جهلاً قد جُعل علمًا، وعلمًا قد جُعل جهلاً فيجهر بما يعتقد. يحارب الجهل ويشايع العلم، فإن لم يُكتب له الظفر في حياته كان لفكرته النصر في مستقبل الأجيال.

وبهذا تقدمت العلوم، ونهضت الأمم، وارتقت البشرية، وذهبت أوضاع اجتماعية كانت داء وبيلاً، وحل محلها نظم هي خير وأبقى.

فإذا رأيتم أممًا ترزح تحت أنظمة فاسدة وعادات بالية فاعلموا أنها لم تُعْطَ الشجاعة الأدبية لنقد الفاسد من أنظمتها والباطل من تقاليدها فتتخلف حين جد الراكب وسارت القافلة.

على أن قوة نفوس الشعب وغلبة الشجاعة على أبناء الأمة أمر لا يأتي عفوًا، إنما هو نتيجة علم وافر وسياسة عادلة ونظام دقيق وإصلاح عام يتمشى في جميع مرافقها؛ وأول شيء في سبيل ذلك أن يعلم أن النفس الإنسانية إذا استبدلها وأسيء الاحتكام فيها ذلت وضعفت وذهبت منها معاني الرجولة من النشاط والقوة والحزم والعزم

والاستقلال الذاتي؛ وإذا رفق بها وعوملت باللين وأحسنت رعايتها عزت وعظمت وكان لها من القوة والعزة والشمم القدر الذي تصلح به وتقدر على إصلاح من معها؛ فإذا علمت الأمة ذلك وراعته وكانت سياستها في الحكم والاجتماع والتربية سياسة رفق ولين في غير ضعف ولا خور اطرد تقدمها ورقيها.

أيها المسلمون:

إذا رأيتم أنفسكم متخلفين عن ركب المدنية فاعلموا أن ذلك منكم وما كان يقدر أن يفعل ذلك بكم أحد سواكم. ملك بعضكم بعضًا ملكة قهر وغلب، واستبد بعضكم ببعض فأفسدتم نفوسكم وجردتموها من معاني العزة والقوة مقومات الحياة الذاتية المثابرة، فضعفت الشجاعة فيكم وضاعت من بين جوانحكم، وإذا فقدت الشجاعة فقد فُقد كل شيء؛ ولو كشف لكم عن حقائق الأمور لرأيتم كل واحد منكم قد أخذ معوله بيده وأخذ يهدم جاهدًا في نفوس الآخرين، فالأب يقتل نفوس أبنائه، والزوج نفس زوجه، والمعلم نفوس المتعلمين، والرئيس نفوس المرؤوسين، وهكذا أصبح كل من له رعاية يستبد فيها بالآخرين ويسيء حكمهم ويقتل فيهم روح القوة والرجولة.

أيها المسلمون:

إذا أردتم أن تساهموا في بناء المدنية الحاضرة فإني أوصيكم بواحدة: أن تبقوا على رجولتكم وشجاعتكم وذلك بأن تعدلوا في سياستكم وتحسنوا في رعايتكم، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع على أولاده، والرئيس راع على مرؤوسيه، والحاكم على محكوميه، والمعلم على تلامذته. عليكم بالرفق في معاملتكم، والإحسان في سياسة من تلون أمورهم، والمحافظة على كرامتهم كما تحافظون على كرامة أنفسكم. ولتكن آثر الحكومات لديكم أرفقها بكم، وآثر الرؤساء عندكم أعدلهم فيكم، وأحبَّ الناس إليكم من يحافظ على كرامتكم ومن يعمل على أن تكون نفوسكم قوية وأخلاقكم فتية. وليكن أبغض الناس لديكم من يعمل على أن تكون نفوسكم مهينة وأخلاقهم خائرة ضعيفة، واجعلوا صديقكم من الكتاب من ينصحكم ويسمو بكم إلى آفاق الفضيلة والكمال، واجعلوا عدوكم منهم من يغشكم ويستغل غرائزكم الحيوانية، ومن يقول لكم ويقول ثم لا تأخذون مما يقول روحًا سامية، ولا تستفيدون منه سموًا خلقيًا

ويومئذ تجرءون على كلمة الحق فتنقدون الأنظمة الفاسدة، والتقاليد البالية والأوضاع الضارة. ويومئذ تنتقلون من فساد إلى صلاح، ومن ضعف إلى قوة، في جميع شؤونكم وفي جميع مرافق الحياة فيكم

ويومئذ تسيرون مع ركب الإنسانية للعمل لخير الإنسانية، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

عقيدة البعث[1]

لا أعلم شيئًا أعظم بركة على البشر من عقيدة البعث، وقيام الأموات من القبور، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

ولا أعلم شيئًا أعظم شؤمًا على البشر من تحطم هذه العقيدة، واعتقاد الناس أنهم لا يجزون بخير يعلمونه، ولا بشر يقترفونه.

ولا أعلم زماناً كان الناس فيه أحوج إلى اعتقاد البعث من هذا الزمان.

إن روح الشر التي تسيطر على البشر الآن، ويشكو منها القادة والمصلحون هي من ضياع هذه العقيدة.

خوت القلوب من عقيدة البعث والجزاء، فقادت الناس شهواتهم، وضاعت الشكائم التي كانت تكفهم، وأصبح المرء يرى أن لا حياة له إلا هذه الحياة، وأنه إن لم يمتع نفسه بكل الشهوات خسر خسرانًا مبينًا، فاندفع يحصل هذه الشهوات من كل سبيل. فَقَدَ الإيمانَ بجزاء الأعمال فاستوت عنده الحسنة والسيئة، فاندفع إلى السيئات يقترفها، وكأنما يأتي حسنات.

تنبهت غرائزه الدنيئة، وفتحت فاها فلم يكفها شيء تلقمه؛ واختفت غرائزه العلوية، وأصبحت الحدود التي تفصل بينه وبين الحيوان الأعجم دقيقة وتكاد تُمحى.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة العاشرة، عدد ٤٨٨، ص ١٠٤٠، الاثنين ٣٠ شوال ١٣٦١هـ / ٩ نوفمبر ١٩٤٢م.

أقفر المستقبل من الجنات التي أعدت له جزاء فعل الخير فلم تتحرك فيه إرادة الخير، وأقفر أيضًا من الجحيم الذي كان ينتظره جزاء فعل الشر فلم ينزجر عن شر، فهتك الحرمات، واستباح المعاصي، وسار في هذه الحياة لا دين يردعه، ولا فضيلة تزجره.

كانت مقاييس الخير والشر عنده رضا الله وغضبه، ونفع الناس وضرهم، فأصبحت مقاييس الخير والشر اتباع شهواته وإجاعتها، ورضا ميوله وغضبها.

كان الفقير والمريض والمبتلى يجد كل منهم في هذه الدنيا سلواه لأنه يعلم أن وراء هذا الفقر في الدنيا غنى الآخرة، ووراء هذا المرض صحة، ووراء هذه البلوى عافية، فكان في وسط هذه الشدائد والآلام راضي النفس، باسم الأمل، راجي الرحمة، فأوصدوا هذه الأبواب في وجهه، فلا أمل، ولا رحمة، ولا رضى، ولا رجاء

كان الغني يحسن إلى البائس الفقير لأنه يعلم أن ما يدفعه الآن سيأخذه أضعافًا مضاعفة، وسيجزى بذلك النعيم المقيم، فأوصدوا باب الجزاء في وجهه، وأوصدوا بإيصاده باب الإحسان.

كان يعمر قلبه الله والخير والفضيلة والعدل، ويخيفه الشيطان والشر والرذيلة والظلم، فشك في ذلك وأصبح يتساءل ما الله؟ وما الشيطان؟ ما الخير؟ وما الشر؟ وما الفضيلة والرذيلة؟ وما العدل وما الظلم؟ هذه كلها من أوهام الماضي، وخرافات الأجيال.

اعلم أن الذي حوَّل العالم إلى هذه الحال القلقة، وورَّطه في هذا الجحيم هو اندفاع فلاسفة القرن التاسع عشر والقرن العشرين في مقاومة الدين ونقصه - كان هؤلاء الفلاسفة يجهلون قيمة الدين في حياة الشعوب والأفراد، وكانوا يرونه يعيش على هامش الحياة، بل ربما رأوه كلا عليها، فاندفعوا يقاومونه وينقضونه حجرًا بعد حجر، ويشككون في مبادئه السامية، فضعفت قيمة الدين في النفوس بما ألقوا من شبهات وما أثاروا حوله من استهزاء، ولم يعلموا أنهم بذلك يفتحون باب المقبرة للعالم، وينقضون أخلاقه العلوية السامية.

أرجعوا إلى الناس إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجزاء بالأعمال ترجع إليهم عفتهم وطهارتهم وصيانتهم.

أرجعوا إلى الناس إيمانهم ترجع إليهم أمانتهم ووفاؤهم وعدالتهم.

أرجعوا إلى الناس إيمانهم يرجع إليهم أملهم الضائع، وأمانيهم المنشودة، ومستقبلهم الزاهر، وعزاؤهم على ما يلاقون من آلام الحياة.

أرجعوا إلى الناس إيمانهم ترجع إلى الأرض الرحمة، وإلى البشر العدل، ويهبط على الكون السلام.

العيد - ١ -[(١)]

لست مسرفًا إذا قلت إن كثيرًا من الناس يُعيِّدون ولا يدركون معنى العيد، ولا الغرض المقصود منه. لا يدركون من العيد إلا أنه يوم عطلة، يفرغ الناس فيه من أعمالهم، ويتفرغون إلى طعامهم وشرابهم ولعبهم ولهوهم

فعلينا أن نعمل لنفهم معنى العيد لنودعه على الوجه الأكمل. إن الناظر إلى أعيادنا الإسلامية التي شرعها الإسلام يرى أنها تكون عقب عبادة طويلة شاقة مضنية، فيها جهاد للنفس والشهوات. فعيد الفطر يأتي في أعقاب الصيام، والصيام عبادة شاقة، فيه منع النفس من شهواتها، وفيه الصبر عن الطعام والشراب، فإذا انتهى شهر الصوم حل عيد الفطر، فيفرح فيه المسلمون ويوسعون على أنفسهم وعيالهم وعلى فقرائهم. وعيد الأضحى يقبل بعد أن كادت تتم أعمال الحج، وفي الحج سفر طويل، ونفقة كثيرة، ومنع النفس من بعض الطيبات، فإذا جاء عيد الأضحى ذبح المسلمون ذبائحهم ووسعوا على أنفسهم وعيالهم وفقرائهم.

ولعلكم بعد هذا قد أدركتم معنى العيد، وفهمتم سر فرح المسلمين فيه. لعلكم أدركتم أنهم يفرحون في عيد الفطر بشيء سام، هو النصر: النصر على الشهوات، لأنهم مكثوا شهرًا يمنعون أنفسهم في نهاره عن الطعام والشراب وبقية الشهوات الشهية إلى النفس والمحببة إليها فانتصروا؛ والنصر على الشيطان، فقد أراد

---

(١) مجلة الرسالة، السنة العاشرة، عدد ٤٩٤، ص ١١٥٧ –١١٥٨، الاثنين ١٣ ذو الحجة ١٣٦١هـ / ٢١ ديسمبر ١٩٤٢م.

إغواءهم وإضلالهم، واستعان على ذلك بالشهوات الممنوعة، والنوازع القوية، فانتصروا، لم تتغلب عليهم الشهوة، ولم يتغلب عليهم الشيطان، في هذا الكفاح.
وما قلناه في عيد الفطر يقال في عيد الأضحى، فهو عيد النصر: النصر على النفس، والنصر على الشيطان؛ وسواء فيه الحاج وغير الحاج، فالحاج جاهد وصابر واحتمل الآلام واجتاز الأهوال وخرج من المعركة مظفرًا منصورًا. وكذلك من لم يحج، العيد عيده، وهو به جد فرح مستبشر، وبشره بشر المسلم بالنعمة تتم على أخيه المسلم، ونصره وظفره لأن الله نصر إخوانه الحجاج، فوفقهم جميعًا لأداء الحج وإتمام عبادة من أسمى العبادات، ومسرته لأن الله أقدر المسلمين على إتمام موسم الحج، فلم يمنعهم قاهر ولا متسلط عن إقامته، فهو مزهو فخور وفرح مستبشر بعزة الإسلام وتمكين الله له في الأرض.

وفي العيد - فوق هذا النصر وذلكم التوفيق - تقوية للروابط الوثيقة بين المسلمين، لأنهم يشتركون جميعًا في استقباله والترحيب والسرور به؛ والاشتراك في العاطفة داع إلى المحبة، واشتراك الجماعة في أمر يعمهم ويشملهم مُشعرٌ لهم بأنهم وحدة، عواطفهم واحدة، وآمالهم واحدة، وآلامهم واحدة. ولست تجد أدعى إلى المحبة من الاشتراك، ولا أدعى إلى التنافر من الاختلاف. ثم هم يشتركون قبل ذلك كله في أيام أعيادهم في شؤون الحياة وأمور القوت اشتراكًا يظهرهم في أروع مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي الوثيق، ففي عيد الفطر يخرج المسلم صدقة الفطر قبل

صلاة العيد، وفي عيد الأضحى يذبح أضحيته ضحى يوم العيد، ويأخذ الفقراء حقوقهم من الصدقة والأضحية، فيفرغون إلى العيد واستقباله والفرح به والشعور بجماله، لا يشغلهم عن ذلك طلب القوت ومشكلات المعيشة؛ ويعم البشر والسعادة الناس جميعًا، فالأغنياء يفيضون من سعادتهم وبشرهم على إخوانهم من الفقراء.

وفي العيد معان كثيرة أروعها أنه عيد النصر وعيد الظفر على النفس والشيطان؛ والمسلمون يفرحون بالعيد، لأن الله امتحن عزائمهم فوجدها قوية، وصبرهم فألفاه ثابتًا، وإيمانهم فألفاه راسخًا، وخرجوا من الامتحان مؤمنين، أقوياء، راسخين، بل خرجوا منه أشد وأعظم شعورًا بمعاني القوة والإيمان.

وهذا المعنى في العيد يجعل الفرح فيه عبادة، لأن الفرح بإتمام العبادة عبادة، والفرح بقهر الشهوات عبادة، والفرح بالتغلب على الشيطان وجنده عبادة.

هذا المعنى في العيد يسمو بالعيد عن العبث، ويجعله معنى ساميًا يوحي إلى النفس معنى العزة بالنفس، ومعنى القوة والغلبة، ومعنى العظمة والانتصار، يوحي إلى النفس معنى قوة الإرادة، ويوحي إلى الناس معنى تثبيت إنسانيتهم، وأنهم خرجوا عن الأفق الذي تملكهم فيه شهواتهم إلى الأفق الذي يملكون فيه شهواتهم. والنفوس إذا أوحي إليها بما فيها من معان سامية ازدادت فيها رسوخًا، وحفزها هذا إلى تحصيل غيرها من الخلق الفاضل الكريم

أرايتم كيف كان العيد معنى إنسانيًا ساميًا بعد أن كان أمرًا حيوانيًا ضئيلاً جافًا لا حياة فيه ولا روح؟ أرايتم كيف صار شيئًا نافعًا مفيدًا يوحي إلى النفوس معانيها من القوة والنصر على الأعداء، والارتفاع عن أفق الحيوانية المحدود، بعد أن كان شيئًا مغسولًا من النفع والسمو والخير والإفادة؟

إنما العيد عيد المجاهدين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، فانتصروا على النفس والشيطان؛ أما هؤلاء الذين غلبتهم أنفسهم وشهواتهم، وأخلدوا إلى الأرض، فليس لهم منه إلا الهم والحسرة، لأن الناس خرجوا منه أقوياء منتصرين، من حيث مُنوا هم فيه بالضعف والهزيمة وبالارتكاس والخذلان.

العيد - ٢ -[(١)]

ماذا جرى للعيد، أو ماذا جرى لنا في العيد!

أتغير العيد، فلم يعد هذا الذي كان يبعث فينا السعادة: أم تغيرنا نحن، فلم نعد نصلح مهبطًا للسعادة؟

لقد كنا نحيا في العيد حياة أهل الجنة في الجنة؛ وكنا نفرح بالثوب الجديد فرح الفاتح المنتصر، ونرى في الدريهمات التي يمنحنا إياها أهلونا ثروة وأي ثروة؛ وكنا بامتلاكها كأنما نملك الدنيا، وكنا نرى في العيد كل شيء ضاحكًا زاهيًا، وكنا نشعر أن الأنهار والوديان والنبات والحيوان والأرض والسماء تشاركنا كلها في سعادتنا وفرحنا؛ ثم أصبح العيد يقبل كما تقبل سائر الأيام، ويذهب كما تذهب، لا يهزمنا عاطفة ولا نرى فيه معنى جهيدًا

لقد صرنا نملك الضِّيَاع والدور فلا تستخرج منا من السرور ما كان يستخرجه ثوب جديد، وصرنا نملك المال فلا يسعدنا إسعاد هذه الدريهمات التي كنا نأخذها يوم العيد؛ ولقد كان هذا الفرح بما نملك من ثوب ودريهمات فيه معنى الرضا والقناعة، فصار هذا الوجوم وهدم الشعور بما نملك فيه عدم الرضا وعدم القناعة.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة العاشرة، عدد ٤٩٥، ص ١١٥٧ – ١١٥٨، الاثنين ٢٠ ذو الحجة ١٣٦١هـ / ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢م.

الحق أننا كنا نفرح بالعيد صغارًا، لأننا كنا على الفطرة الطيبة التي خلق الله الناس عليها، فلما انحرفنا عن هذه الفطرة أخطأنا الفرح بالعيد بقدر هذا الانحراف، وكان علينا أن نحافظ على روح الطفولة البريئة فينا، لنسعد بالأيام، ولا نشقى بالعيش والحياة. كان علينا أن نحتفظ بسرورنا، لنحتفظ بنشاطنا، ونقوى على ملاقاة أحداث الحياة. فالسرور استجمام واستعداد، والقلب المسرور المغتبط المستبشر أقوى على تحمل الحوادث من القلب الحزين المنقبض المكتئب. وإن الأمم التي تفرح كثيرًا أقوى على تحمل الشدائد وعلى النجاح في الحياة من الأمم التي يقل نصيبها من الفرح والبشر والمسرة.

وإنكم لتجدون في هذه الأيام أممًا تحمل من الشدائد ما تنوء به الجبال، ولا تتململ ولا تضجر، ولا تهن ولا تستكين، لأنها قوت أعصابها بالسرور، فجعلها أقوى على الاحتمال.

وما أظن هذا الإخفاق الذي يصيب بعض أمم الشرق في عصرنا الحديث إلا من هذه الكآبة المستولية على نفوس الشرقيين، والتي تعم وديانه الضاحكة، وربوعه الجميلة.

نعم، إنك تجد القوة حيث تجد الفرح والسرور، والأمم العظيمة تشعر بالقوة لأنها أشعرت قلبها المرح والسرور.

أيها الناس، افرحوا بالعيد، واعتدوه عيد النصر على النفس وشهواتها، وأعظم بذلك من نصر في ميدان الجهاد

روى أن رسول الله ﷺ قال وقد رجع من غزوة: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[١]؛ يعني جهاد النفس، فإذا كان جهاد النفس أكبر الجهادين كان النصر عليها أكبر النصرين.

ألا إن الإسلام يدعوكم إلى الفرح والسرور، ولذلك سن لكم الأعياد. إلا إن الإسلام يدعوكم إلى الفرح والسرور في يوم العيد بما يهديكم إليه نبي الإسلام من قول وعمل.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله: " يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا "[٢]

نعم، فلتلتهموا السعادة التهامًا، ولتغتنموا المسرة البريئة اغتنامًا، فلقد بيَّنا لكم من معنى العيد ما يعينكم على جلب المسرة، وبيَّنا لكم من تعاليم الإسلام ما ينفي عنكم الحرج في المسرة؛ ولتبتعدوا عن السرور بالإثم والباطل، فإنه مسرة تعقبها ندامة، وفرح تتلوه الكآبة، وبشر مصيره إلى يأس وقنوط وخذلان.

---

(١) في العدد (٤٩٨)، ص ٣٨، عقب الأستاذ محمود أبو ريه في قسم البريد الأدبي على هذا الحديث بقوله، وهذا الحديث قال عنه الحافظ ابن حجر: (إنه مشهور على الألسنة ولكنه من كلام إبراهيم بن عيلة) اهـ وقد رواه الغزالي في كتاب الأحياء ولكن كم في هذا الكتاب من ضعيف وموضوع.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، حديث رقم (١٤٨٥).

إنما الفرح عنوان الأمل والرجاء، ومظهر الحياة والإقدام، ودليل الرجولة العاملة الفائزة.

ومـا خلـق الله النجـوم المتلألئـة بأنوارهـا لنشـقى بـل لنسـعد.

ومـا خلـق الله الريـاض الضـاحكة بأزهارهـا لنشـقى بـل لنسـعد.

ومـا خلـق الله الطيـور المغـردة بألحانهـا لنشـقى بـل لنسـعد.

ومـا خلـق الله الأشـجار الراقصـة بأغصـانها لنشـقى بـل لنسـعد.

ومـا خلـق الله الأنهـار المصـفقة بأمواجهـا لنشـقى بـل لنسـعد.

ومـا خلـق الله هـذا الكـون البـديع الجميـل لنشـقى بـل لنسـعد.

كـل مـا في الكـون يـوحي بالمسرـة والسـعادة فلـماذا الكآبـة والشـقاء؟

خصب العقول وجدبها [١]

لا أعرف شيئًا في الوجود أسنى قيمة، وأعظم مقدارًا من العقل فهو الذي ميَّز الإنسان عن سائر الحيوان، ولولاه لكان من الحيوان ما هو خير منه.

لم يتميز عنه بالقوة البدنية فإن من الحيوان ما هو أقوى بدنًا منه كالثور والجمل، ولم يتميز عنه بِحِدَّةِ الأنْياب والأظفار فإن من الحيوان ما هو أحد منه أنيابًا وأظافر، وإنما تميز عنه بهذه اللطيفة الربانية وهي العقل.

به استحق خلافة الله في الأرض ودانت له أحجارها ونباتها وحيوانها، ولو أعطى النمل العقل وزاد على الإنسان بمقدار خردلة لكانت له الخلافة في الأرض ولاستعبد الإنسان واستخدمه في مصالحه كما يستخدم الإنسان سائر الحيوان، والأمة التي تسمو عقول أبنائها على عقول أمة أخرى تسخرها في مصالحها كما تسخر هي الحيوانات التي هي أقل منها عقلًا وأنقص إدراكًا، لقد خلق الله الإنسان ولا صوف له ولا شعر ولا وَبَرَ يَتَّقِى بها الحر والبرد ولا أنياب له ولا أظافر تحميه من افتراس جوارح الطير وسباع الحيوان، وليس له من قوة الجسم ما للجمل والحصان والثور، ولكن وهبه الله العقل فكان سدادًا من عوز وعوضًا عن الجميع.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الخامس، ص ٥٢٦-٥٣٢ . غرة جمادى الأولى ١٣٧٢هـ / يناير ١٩٥٣م.

ولو سئلت بماذا تشير على أمتك بعد طول ما جربت وكثرة ما قرأت من كتب الحكمة والفلسفة والاجتماع لقلت إن أول ما أشير به أن تُعْنَى بعقولها وأن تنميها وتزكيها وتبلغ بها أقصى ما قدر لها من قوة ونماء.

وإني لأعجب للأمم التي تُعنى بقوة أجسامها ولا تُعنى بتقوية عقولها، لو خيرت بين أن تخصب الصحاري المحيطة بمصر حتى تصير جنات وارفة الظلال وتجدب عقول أبنائها أو تخصب العقول وتجدب الصحاري لاخترت خصب العقول ولو أجدبت الأرض والبلاد.

إن خصب العقول يخصب الجدب من الأرض، وإن جدب العقول يجدب الخصب منها، وإذا بقيت على خصبها لم يحتفظ بها وغلبه عليه المخصبون عقولًا والأقوياء بعقولهم، قال الأصمعي لصبي من الأعراب: أيسرك أن يكون لك مائة ألف وأنك أحمق؟ فقال: لا، إني أخاف أن يجني على حمقى جناية تذهب بمالى ويبقى عليَّ حمقي، وقال النبي ﷺ: «ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويَرُدُّه عن ردًى»[1]، وقال الحسن البصري: «ما استودع الله أحدًا عقلًا إلا استنقذه به يومًا ما»، واعترف أهل جهنم بأنه ما جنى عليهم إلا ضعف عقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا

(١) أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان، فصل في فضل العقل الذي هو من النعم العظام التي كرَّم الله بها عباده، رقم (٤٣٣٨)، وإسناده ضعيف .

نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[١]، وقالوا: العقل أفضل مرجو، والجهل أنكى عدو، وإن الجاهل ليبلغ من نفسه ما لا يبلغه أعداؤه منه:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه[٢]

ولكل قوة في الجسد طريق لتربيتها، فإذا مُرِّنَت بلغت كمالها، وإذا أُهْمِلَت بقيت كامنة مستورة ناقصة.

والعقل من قوى النفس له طرق لتنميته وإكماله قد عرفها اليونان في القديم، فأنتجوا العلوم والمعارف، وهذه ثروتهم باقية على الدهر، وقد عرفها علماء الإسلام في قرونه الزاهية فشغفوا بالعلم والفلسفة وأنتجوا فيهما، وقد هُدِيَ إليها علماء أوربة في عصر النهضة فأنتجوا هذه المخترعات وغيَّروا وجه الأرض بمبتكراتهم.

ومن الطرق لتنمية العقل تكليفه بأعمال عقلية يستخرج بها المجهولات من المعلومات كمسائل الحساب والهندسة ومسائل العلوم الصعبة كمسائل التوحيد والأصول ودراسة المنطق الذي يبحث في قوانين الفكر التي تُوَصِّلُ إلى المجهول وكيف يحترز عن الخطأ فيها، ومما لا شك فيه أن علماء المسلمين كانوا يعرفون هذه السبل لتنمية العقل ويستعملونها، قال ابن خلدون: وكان شيوخنا يقولون: إن الهندسة للذهن كالصابون للثوب تغسل وسخه وتزيل أدرانه.

---

(١) سورة الملك الآية ١٠.

(٢) البيت منسوب لصالح بن عبد القدوس الأزدي من شعراء الدولة العباسية، نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، (٣/ ٨٢).

وقد بدأت النهضة في أوروبا عندما بدأوا يبحثون عن المنطق وطرق ابتكار المجهول من المعلوم ويناقشون المنطق القديم ويريدون أن ينقدوه ويزيدوا عليه، وإني أريد من الأمم الإسلامية أن يجعلوا العقل قوة من قواهم يعملون على تربيته وإنمائه كما يتمرنون على المصارعة وحمل الأثقال والرياضة البدنية، فليست حاجتهم إلى تنمية عقولهم بأقل من حاجتهم إلى المصارعة وحمل الأثقال، بل يجب أن يعلموا أن حاجتهم إلى عقولهم أشد حاجة.

وليست مصائبنا الاقتصادية والسياسية والأخلاقية إلا من عدم نمو ملكة الابتكار والاستنتاج فيها بالقدر اللازم لهذه الحياة المشتبكة.

إنَّ مِنَّا من يدرسون علم الاقتصاد والاجتماع والتربية ولكن ليس منا من يتنبأ بالأزمات قبل وقوعها ويهدى أمته إلى طريق الخلاص منها، بل إننا نخلق الأزمات بأيدينا ونضرُّ بأنفسنا بأكثر مما يضرُّنا به أعداؤنا.

ولعل القارئ يعجب من ذلك وسأضرب لذلك أمثالًا له:

نحن الآن في أزمة اقتصادية شديدة يتخوف منها ولاة الأمور وقد غلت الأسعار وبلغت خمسة أمثال أو عشرة أمثال ما كانت عليه قبل الحرب الأخيرة، وهذا من صنع أيدينا، ومن أنه ليس عندنا ملكة الابتكار بالقدر الذي ينجينا في هذه الحياة المشتبكة المرتبكة.

كنا نعيش بميزانية قدرها أربعون مليونًا قبل الحرب الأخيرة وكانت تكفينا ونسد حاجة الدولة فزادت بعدها إلى مائتي مليون بالتدريج، وهذه الزيادة أكثرها من دخل غير ثابت كرسوم الجمارك، وكان ينبغي ألا نرتب عليها نفقات ثابتة خوف أن ترجع الأمور إلى حالها ويذهب الإيراد غير الثابت ويبقى المصروف الثابت لا نَجِدُ له إلا الاحتياطي أو الاستدانة.

كان ينبغي أن نعلم أن هذه الحالة شاذة وطارئة والشاذ لا يجعل مقياسًا، وإنما تبنى الأمور على الأصول المطردة وعلى الأعم الأغلب.

ولكن وقعنا في الخطأ وذهبنا نستكثر من الموظفين والمصلحة الواحدة اشتقت منها مصالح وجعل لكل منها إدارة وكتاب ومستشارون إلخ، وزيدت رواتب الموظفين وبذلك ألقي هذه الزيادة في المرتبات في السوق وهي أموال استهلاكية وقلت السلع المطلوبة عنها فغلت الأسعار وتضخم النقد، ولو أننا عشنا بميزانيتنا القديمة، وزدنا زيادة يسيرة في مصاريف الاستهلاك وضمنا الزيادة الكثيرة في الميزانية إلى مُدَّخَر الحكومة أي الاحتياطي وأنفقنا منه في مشاريع منتجة لكانت فرصة انتهزناها وكنا الآن من أغنى الأمم، وكنا بذلك نجنب الأمة غلاء الأسعار وتضخم النقد الناتج من طرح مال في الاستهلاك لا يجد السلع التي يريدها ولا اتَّقَينا تلك الأزمة المقبلة الناشئة من انخفاض في الدخل غير الثابت الذي وظف عليه نفقات ثابتة.

كنا نزيد في الموظفين وفى مرتباتهم وكلما زدنا كلما اندفعوا إلى السوق يستهلكونها فيها، وكلما فعلوا ذلك زاد التجار أثمان سِلَعهم وكلما زادها شكا الموظفون وكلما شكا الموظفون زِدنا في المرتبات، وهكذا وقعنا في هذه الحلقة المفرغة أو في هذا الدور الذي يزيد الأول في الثاني ويزيد الثاني في الأول حتى يصل إلى أن يرهقنا.

وقد وقعنا في دور آخر وهو أن الدولة تزيد في رسوم الجمارك لتدبر المال لزيادات الموظفين وكلما زادتها زادت السلع، وكلما زادت السلع شكا الموظفون فتعمد الدولة إلى زيادة رسوم الجمارك وهكذا.

أرأيتم كيف نصنع قيودنا بأيدينا أرأيتم كيف تخلق الأزمات وها نحن أولاء، ندعو الأمة إلى التقشف، وكيف تستجيب لصوت العقل وفيها هذا المال الكثير المطروح للاستهلاك، إنه لا مُنقذ لنا إلا أن نعود بميزانيتنا إلى مثل ما قبل الحرب أو قريب منها في المصروفات ونحذف كل زيادة جدت عليها، إني أعلم أن هذا فطام والفطام شديد، ولكنه هو الدواء الوحيد.

أتدرون ماذا فعلت أمم أخرى أكثر منا تجربة وأوسع عقلًا وأبعد نظرًا، خرجت إنجلترا من الحرب الثانية مدينة للدول الأخرى بالبلايين من الجنيهات، لأنها كانت تنفق في كل شروق شمس من أيام الحرب اثنى عشر مليونًا من الجنيهات، وكان يظن الناس أنها لن تجد وفاء، وأنها عاجزة عن السداد فماذا فعلت حتى خرجت من هذه الضائقة، لقد فرضت على نفسها التقشف وأبقت القيود على الاستهلاك التي

كانت في زمن الحرب كما هي ولم ترحم نفسها بعد أن كابدت سنين شدادًا ذاقت فيها الحرمان بل مدت هذا الحرمان طواعية إلى أيام السِّلم وانتهزت غلاء منتجاتها في البلاد الأخرى وأرسلت بها إليها وحرمتها على نفسها، وهل تجد فرصة ذهبية كهذه وتضيعها، إن متر الصوف الذي كان يباع بنصف جنيه أصبح يباع بأربعة جنيهات، فلم لا تُحَرِّمه على نفسها وتبيعه في أسواق العالم، إنها أبقت نظام البطاقات فلا تأكل ولا تلبس إلا بقدر معلوم ونظام محدود.

وكانت العاقبة أن وَفَّتْ كثيرًا من ديونها وتخلصت من عون أمريكا واجتازت هذه الأزمة بسلام.

هاتان أمتان إحداهما خرجت من الحرب دائنة للأخرى بأربعمائة مليون جنيه، والثانية خرجت مدينة لها ولأمم أخرى بآلاف الملايين ولكن العقل بدَّل الحال وغيَّر المآل.

وقبل ذلك ارتكبت غلطة كبيرة في أيام الحرب وذلك أن عند البنك الأهلي تصريحًا من الحكومة المصرية بأن يصدر أوراقًا نقدية بضمان الخزانة البريطانية، فلما كثرت جيوش الحلفاء بمصر في أيام الحرب واحتاجت إلى المؤنة والكسوة، كلفت البنك الأهلي بإصدار أوراق مصرية نقدية، وأخذت هذه الأوراق ونزلت بها الأسواق مشترية: إلى سوق اللحم والخضر والفاكهة، وكان همُّها أن تحصل على حاجتها ولا تبُالي بما تدفع من ثمن فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعًا فاحشًا، ولقي

المصريون من جرائه عسرًا وعنتًا، كان يجب على الحكومة المصرية أن تدرك هذه النتيجة فتطلب من القيادة أن يكون تموين الجيوش عن طريقها، فتشتري هي بما لا يؤدي إلى رفع الأثمان وتوزع توزيعًا عادلًا بين الأمة والجيوش.

وهناك مثل آخر:

ارتفع ثمن القطن عقب الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٩م حتى بلغ خمسين جنيهًا للقنطار الواحد، وقد حسد مصر بعض النواب البريطانيين في مجلس العموم ورأى أنها قد جنت من قطنها ما يسدد ديونها ولم يدر أن هذه الثورة الضخمة لم تلبث حتى تسربت إلى أيد أخرى كانت أحزم وأعقل بالعواقب، لأن المصريين جعلوا الأثمان في هذا العام الشاذ قاعدة وقاسوا عليها ولم يعلموا أنها نتيجة إقفار المغازل طول الحرب، فقاسوا عليها ما يأتي من أعوام، واندفعوا في شراء الأرض التي تنتج لهم القطن الذي يبيعون قنطاره بخمسين جنيهًا فغلت أثمانها لكثرة الطلب، ورأت شركات الأراضي في ذلك فرصة فباعت ما تحت أيديها من الأرض وقبضت بعض الثمن وأَجَّلَت باقيه، فلما جاءت السنة التالية هبطت أثمانه إلى خمسة جنيهات فأصبحوا مدينين بدَيْن لا يجدون له وفاء، فرجعت إلى الشركات أراضيها وفازت بما عُجِّل من ثمنه، وربما نزعت ما لهم من عقار تليد، ثروة لم تمسك بأيدي المصريين إلا ريثما دخلت خزائنهم ثم خرجت كأنما عنوا بقول الشاعر:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   لكن يمر عليها وهو منطلق (١)

لهذا كله أهيب بأمتي أن تعرف للعقل قيمته التي لا تعلوها قيمة لشيء آخر فتسعى لاستكماله فيها سَعْى من يعلم أنه إن حرمه هلك، ولا تطمئن إلى شيء حتى تبلغ بعقولها مبلغ أرقى أمة في العالم.

لم يحرص الإسلام على شيء كما حرص على أن يستعمل المسلمون عقولهم وينموها ويعيشوا بضياء عقولهم في ظلمات هذا الوجود.

وماذا كان يفعل في التغيير من الجهل والحمق أكثر من قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾(٢).

وماذا كان يفعل في بيان شرف العقل والعلم أكثر من قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٣).

وهل هناك ما يحض على استعمال العقل وتحريكه للفكر أكثر من قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾(٤).

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾(١).

---

(١) البيت منسوب لجؤبة بن النضر، إيضاح البلاغة، القزويني، (٢/ ١١٣)

(٢) الأنفال: ٢٢.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) محمد: ٢٤.



﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢).

وما أكثر ما نقرأ في ختام الآيات «أفلا يعقلون»، «بل أكثرهم لا يعقلون»، ولقد ارتضى الله أن يحكم العقل بينه وبين خلقه، فكثيرًا ما تحاكم القرآن إليه ورضي حكمه.

ولقد بغض في إهمال العقل وعدم استعماله وكره أن يكون أداة مهملة يطفئه صاحبه ويمشي في الظلمات وقد جعله الله له نبراسًا يضيء له أينما سار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٣)، ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾(٤).

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾(٥).

---

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الأنعام: ١١.

(٣) المائدة: ١٠٤.

(٤) الأحزاب: ٦٧.

(٥) البقرة: ١٦٦، ١٦٧.

والظاهر أن الإسلام أراد من المسلم أن يُعْمِل عقله ولا يهمله ولو أدى إلى خطأ، ويدل على ذلك أنه جعل للباحث الذي بحث واستقصى أجرين إن أصاب وأجرًا إن أخطأ، ويدل على خطئه ولم يجعل للكسلان الذي أراد السلامة شيئًا من الأجر.

هذا الهدي الإلهي حبَّبَ السلف الأولين من المسلمين في عقولهم فحرصوا عليها واستعملوها وكانوا يبغضون التقليد في الدين، فقد قال ابن مسعود: اغد عالمًا أ ومتعلمًا، ولا تغد إمعة فيما بين ذلك، والإمعة هو المحقب دينه الرجال، وقال عبدالله بن المعتز: لا فرق بين بهيمة تُقَاد، وإنسان يُقَلِّد، ولكن خلفت خلوف أهملوا عقولهم ورضوا بالتقليد في أمر دينهم ودنياهم واستناموا إلى الكسل العقلي فلا يقرءون إلا السَّهْل، ولا يقفون أمام مشاكل الحياة يبغون حَلَّها، بل يهربون منها ما دامت تُكَلِّفُهم تفكيرًا وعملًا عقليًا، ولو مَرَّنوا عقولهم على العمل والابتكار لوجدوا لذتهم في العمل العقلي ولبحثوا عن المشكلات لحلها جريًا وراء اللذة العقلية.

إن العقل الذي كان يعيش به أسلافنا في حياتهم السهلة البسيطة لا يكفينا اليوم لنعيش به في حياتنا الصعبة المعقدة فلا بد من تربيته وإنمائه وتعويده حل مشكلاتنا لنعيش سعداء.

لا أدري لِمَ لمْ يفهم علماء المسلمين من هذه النصوص الكثيرة أن العناية بالعقل وتربيته وإنمائه حتى يبلغ مرتبة النظر الصحيح وحتى يمرن على العمل الفكري

ويأنف من التقليد فرضٌ من فرائض الإسلام كالصلاة والصيام والحج، أكانوا يريدون نصوصًا أصرح من هذه وأوكد، إن الأوامر الدالة على وجوب ما ذكرنا لم تبلغ مبلغ الأوامر الدَّالَّة على وجوب النظر وعلى تحريم التقليد وعلى المحافظة على إعمال العقل وإنماء الفكر.

إنهم لو هُدُوا إلى ذلك لكان هناك علم واسع يشبه عمل المنطق ويزيد عليه في معرفة ما يؤدي إلى الكسل العقلي والركون إلى التقليد لتجتنب، ومعرفة ما يؤدي إلى النشاط الذهني والأنفة من التقليد لتتبع، لكان من وراء ذلك كله إنماء العقول في البلاد الإسلامية حيث جعل فرضًا متعبدًا له يأثم تاركه ويثاب فاعله.

أريد أن ألفت المسلمين إلى عقولهم ليعلموا أن فيها كنوزًا خيرًا من كنوز الدنيا جميعًا.

وما بالك بكنز إذا ملكه صاحبه جعل كنوز الدنيا كلها وكنوز الآخرة كلها تحت قدميه.

أريد أن يتدارك المسلمون ما فاتهم من العناية بقولهم، وأن يعلموا أنه واجب تحتمه عليهم ظروف الحياة القاسية ليتخلصوا من شرورها وآثامها كما يوجبه عليهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

إننا في هذا العصر الجديد نريد أن نرقى في كل شيء، نريد أن نرقى في الزراعة، والصناعة، والتجارة، وفى مستوى المعيشة، ولن نرقى في شيء من ذلك إلا إذا رقيت عقولنا وارتفعت إلى مستوى أعلى من المستوى الذي هي عليه الآن.

إن كل رقي يأتي من الخارج يدوم ما دام ذلك الخارج، فإذا زال زال.

أما الرقي الذي يبقى فهو ذلك الرقي الذي يأتي من داخلنا ومن عقولنا، فتستنير العقول وتنير لنا طريقنا وتوحي لكل فكر منا بما يجب عليه في هذه الحياة فإذا كل شيء في حركة وكل شيء في تقدم، وكل شيء في نظام، هذا هو الطريق لا طريق سواه.

الإشاعات والأراجيف [1]

الإشاعات سلاح خطير يفتك بجسم الأمة ويُفَرِّقُ بين أهلها ويسيء ظن بعضهم ببعض، ويؤدي إلى بغض المحكومين للحاكمين وعدم الثقة بهم، فقد تَنْشُر الإشاعة وتُلْصق بالحاكمين تُهْمة، فيسمعها المرء من مصادر متعددة، وتتكرر على ذمته فيصدقها للتوكيد والتكرار.

وأسرع الأمم تصديقًا للإشاعات هي الأمم الجاهلة، فهي بسذاجتها تصدق ما يقال لها وليست فيها قدرة النقد والتمحيص، وقد تحمل الإشاعة تكذيبها ولكنهم لا يفطنون إلى هذا التكذيب.

أما الأمم العالمة، فهي أبعد الناس عن تصديق الإشاعات وعن أن تروج فيهم، فالمتعلمون فيها إذا ألقيت إليهم إشاعة كاذبة مَحَّصُوها وعرضوها على النقد فيبين لهم كذبها وزيفها، ولكن العلماء المُمَحِّصِين قليل، والكثرة الكاثرة أجهل من أن تُمَحِّصَ وأضعفُ من أن تنقد، ولذلك كانت الإشاعات سلاحًا حادًا شديد الفتك، وقد أدركت فتك هذا السلاح فحاربت أعداءها به، وافْتَنَّت فيه وجهدت في أن تقي أمتها شره.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الخامس، ص ٥٨٨-٥٩١.

ومن قبل ذلك أدرك المسلمون الأولون خطورة هذا السلاح ومضاءه، وقد حاربوا وحوربوا به، وكانوا إذا حاربوا به أحكموه، وإذا حوربوا به فلُّوه، لعلمهم بقوته وفتكه وإدخاله الرعب والفزع والشك والشبهة في نفوس الأمة التي تُبلى به.

يحدث التاريخ أن المنافقين أشاعوا الشائعات حول امرأة طاهرة الذَّيْلِ عفيفة الإزار، وهي السيدة عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، اتهموها في عفتها وهي حصان رزان، ما تُزَنُّ بريبة في بيت كريم، بيت أبي بكر الصديق، وخرجت منه إلى بيت كريم، مهبط الوحي ومنزل النبوة، ومثوى الأبرار الصالحين وهو بيت محمد ﷺ، وكانوا يريدون بهذه الإشاعة إثارة الشكوك في نبوته ﷺ، فيقول القائل: إنه كسائر الناس تُتَّهَمُ نساؤه، ويطعن من خلفه، ولو كان نبيًا لكان أكرم على الله من ذلك، ولأعلمه بما يدور في بيته، ولكن ما لبثت هذه الإشاعة أن قضى الله عليها، فقد نزل القرآن ببراءتها مما رُمِيَت به، وتَوَعَّد الذين جاءوا بالإفك بأشد أنواع العذاب، ورَسَمَ للمسلمين سياسة حكيمة في إشاعات السوء وموقف المؤمنين منها ومن مروجيها، فما نزل في براءة السيدة عائشة: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1]، ومما توعد به الذين أشاعوا الفاحشة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ

(١) سورة النور الآية ٢٦.

مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾[(١)].

فقد عَلَّم الله المؤمنين كيف يحاربون الإشاعات والأكاذيب، وكيف يتقونها فطلب أن يرجع المسلمون إلى ما علموه من سيرة مَنْ قيلت فيه الإشاعة، وألا يتركوا ما علموه من نزاهته وصلاحه، إلى ما لم يعلموه من هذه الأكاذيب، وأن يُغَلِّبَ المؤمنون حسن الظن، ويظنوا بأنفسهم خيرًا فيكذبوا ما قيل وأن يقفوا من هذه الأكاذيب موقف الناقد الفاحص والقاضي العادل، فلا يصدق إلا بيقين ولا يحكم إلا ببينة.

وأخطر شيء في الإشاعات هو التحدث وترديدها والإفاضة فيها إذ بذلك يمكن للإشاعة من أن تفسد العدد الكثير، وتُعِينُ الأُمَّة بذلك عَدُوَّهَا عليها، وتتولى إفساد ذات بينها بيدها، ويكون نصيبها في ضررها أكثر من نصيب عدوها إذ هو يخلق

---

(١) النور: ١١-١٦.

الإشاعة ويرمي بها وهنا ينتهي عمله، والأمة تتولي الباقي فتضر نفسها أكثر مما يضرها عدوها.

لذلك جعل الله من أعظم ما تتقى به الإشاعة عدم تلقيها بالألسنة، وعدم الإفاضة فيها، وقتلها في مهدها: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فليت أمتنا الكريمة تعمل بهذه السياسة الرشيدة لِفَلِّ سلاح الإشاعات، فترجع إلى ما علمته من نزاهة القائمين بالحركة، ومن تعريضهم أرواحهم حيث قاموا بثورتهم، ثم قيامهم بالإصلاح في الأداة الحكومية، ثم ما عملوه من تحديد الملكية، وكل ذلك يكسبهم أعداء حانقين، ولم يبالوا بذلك في سبيل الخير والإصلاح، فهم لا يعملون لأشخاصهم، وإنما يعملون للخير والمصلحة العامة، ويجب ألا يكونوا سريعي التصديق، وأن يطالبوا مروجي الإشاعات بالحجة والدليل، ويجب أخيرًا ألا يُعِينُوا عدوهم بترديد الأراجيف والإفاضة في الإثم والبهتان.

وقد لقي النبي ﷺ وأصحابه، من حرب الإشاعات عنتًا كثيرًا، كانوا إذا خرجت سرايا النبي ﷺ أرجف مُرَوِّجُو الأراجيف، فيقولون هُزِمَتْ وَقُتِلَتْ، ليكسروا بذلك قلوب المؤمنين.

(١) النور: ١٦.

فتوعدهم الله أعظم وعيد، وأنزل فيهم عقوبات هي أشد ما أنزل في مواطن وهي قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾[1]، فهل سمع سامع بعقوبات أشد وأنكى من هذه العقوبات، وإنها لا تزال قائمة يَصُبُّهَا القانون الإلهي على ناشري إشاعات السوء ومُرَوِّجي الفتن والمرجفين في الأمة.

وقد اضطر المسلمون في عصر النبي ﷺ أن يحاربوا بالإشاعات، وكان ذلك في واقعة الخندق، وهي واقعة تَأَلَّب فيها الشِّرْكُ على الإسلام، فقد تألبت اليهود وقريش وغطفان وجاءوا في العدد والعدة، وحاصروا المدينة، وإذ أردت أن تعلم ما كان المسلمون فيه من هَوْلٍ فاقرأ قوله تعالى في وصفه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[2].

في هذه العُسْرَة وهذا الضيق، جاء نُعَيم بن مسعود الغطفاني إلى النبي ﷺ وقال: إني أسلمت وإن قومي لا يعلمون بإسلامي فَمُرْنِي بما شئت، فقال له رسول الله

(١) الأحزاب: ٦٠، ٦١.

(٢) الأحزاب: ١٠-١٢.

ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا، فإن الحرب خُدْعَة»، فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة من اليهود وكان لهم نديمًا في الجاهلية فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودّي لكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، قال: فإن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم فإن رأوة نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه.

فقالوا: قد أشرت بالرأي. ثم خرج حتى أتى قريشًا، وقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم وُدِّي لكم، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت على حقًا عليّ أن أبلغكموه نصحًا فاكتموه عنّي، قالوا: نعمل، قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك منا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فتضربَ أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم، فأرسل إليهم أنْ نَعَمْ، فإن بعث إليكم اليهود يلتمسون رهنا فلا تدفعوا إليهم.

ثم قال مثل ذلك لغطفان، ثم أرسل أبو سفيان يستنهض اليهود للقتال، فقالوا: لسنا نقاتل حتى تعطونا رهنًا من رجالكم، فقالت قريش وغطفان إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فخذل الله بينهم واختلف أمرهم، وكان أن أرسل الله عليهم ريحًا شديدة في ليلة شاتية شديدة البرد، فأصبحوا مرتحلين ونجي الله المسلمين.

لقد كان نعيم بن مسعود أرد على المسلمين من مائة ألف سيف تنافح عن المسلمين، فإذا كان المثل يقول: إن من الرجال من هو بألف، فإني أقول: إن نعيم بن مسعود بأمة أو بجيل من الناس.

وقد فعل السير ستافورد كريبس سفير إنجلترا في روسيا ما فعله نعيم بن مسعود فما زال يُخَوِّفُ روسيا من ألمانيا ويذكر لها ما طلبته من الصلح معهم على حرب روسيا، حتى أوجسوا شرًا من ألمانيا، وظهر ذلك منهم فخافتهم ألمانيا، ووقعت معهم في حرب أعجزتهم قتلًا وأفنت رجالهم عُدَّتَهُم وسِلَاحَهُم، وخفَّ بذلك الضغط على بريطانيا وكسب الحلفاء النصر.

وإذا ما تأمل المرء يجد أن المصريين قد أتوا في كثير من حروبهم من الإرجاف وقالة السوء، فقد كان يرجف في واقعة عُرَابي، بأن جيشكم قد هُزم وعُرابي قد سَلَّم فتفعل فيهم ما يفعل الداء بالجسم المريض، ويقع الرعب ثم يقع التسليم.

الآن قد علمتم قوة الإشاعات والأراجيف فما أحراكم بالحذر منها وعدم تمكين عدوكم منكم بتصديقها والإفاضة فيها.

بماذا نبدأ (١)

قد تغير العهد القديم، وجاء على أنقاضه عهد جديد، يريد الإصلاح فيلتفت حوله فإذا كل شيء بحاجة إلى الإصلاح، نحتاج إلى الإصلاح في المال والاقتصاد وفى الزراعة والصناعة وفى رفع مستوى المعيشة وفى التربية والتعليم، فيسائل المصلحون أنفسهم بماذا نبدأ؟ فالعقل يقضي بأن نقدم الأهم على المهم، وبأن يقدم ما لا نجد منه بُدًا على ما نحن واجدون منه بدًا، ويقضي بأن نُقَدِّمَ في الإصلاح ما لو إذا أصلحناه أصلحت المرافق الأخرى، وما لو أهملناه لم يستقم لنا إصلاح في جميع المرافق.

فبماذا نبدأ؟

الحقَّ أقول إنه يجب البدء بإصلاح نفوسنا قبل كل شيء والعناية بذلك عناية مَنْ يَعْلَمْ أنه إن حرمه هلك، إنه يجب أن نُصلح أول ما نصلح المصريين أنفسهم.

إنَّ مِصْرَ عبارةٌ عن شيئين في المكان والسكان، والسكان مُقَدَّمُون في العناية على المكان، وَأَوْلَى السُّكَّان بالإصلاح الإنسان، وذلك لأنه إذا أُصْلِحَ أَصْلَحَ ما معه من السكان، وأَصْلَحَ المكان، وليس إذا أُصْلِحَ غَيْرُه صَلَحَ هو.

وأَوَّلُ ما يجب إصلاحه في الناس أنفسهم، وهذا يشمل إصلاح العقول وإصلاح الأخلاق، فإذا صلح هذان في الإنسان أصلحا البدن كله، وإذا صلح الإنسان

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء السادس، ص ٦٥٥-٦٦١، غرة جمادى الآخرة ١٣٧٢هـ / ١٥ فبراير ١٩٥٣م.

أصلح كل ما يحيط به، وإذا أهمل إصلاح الإنسان لم ينفع إصلاح ما عداه، وسأبين ذلك بأمثلة:

أراد مُحَمَّد عَلِي أنْ يُصْلِح الصناعة في مصر فأدخل كثيرًا من الصنائع وجلب لها العُمَّال ليتعلموها ويصنعوا، فحييت الصناعة ما حي محمد علي، فلما مات ماتت الصناعة بعده، ولو بدأ محمد على فحبَّب الصناعة إلى السكان وعرفوا ما فيها من مزايا مالية تعين على المعيشة فاندفعوا إليها بشوق من نفوسهم وأعانتهم الدولة بما تريد المعونة به، لبقيت الصناعة ما بقي الشوق في نفوسهم وما بقي متوارثًا يرثه الخلف عن السلف.

أرادت الدولة أن تُصْلِحَ مياه الشرب في القرى فتنقيَها وتُقَطِّرَها لتَقِي السكان من البلهارسيا والإنكلستوما والأمراض التي تسببها المياه الملَوَّثة، فكان السكان يعافونها ويشربون من مياه الترع والقنوات ويرونها أصح لأجسادهم ويقيسون قياسًا مشاهدًا لديهم فيقولون إنها تفيد الزَّرْعَ من القمح والذرة، فكيف لا تَفِيد الإنسان؟ ولو بدأت الدولة فعرفتهم ما تَحْمِلُ هذه المياه الملوثة من جراثيم تضر بالأجساد وأنَّ المياه المُطَهَّرة خير منها وأصح، لبحثوا عنها بأنفسهم، ولعرفوا بِرَّ الحُكُومة بهم إذ سهلتها لهم وقربتها إليهم.

بَنَتِ الدولة مراحيض في بعض القرى وطلبت من السكان أن يقضوا حاجتهم فيها، ولا يقضوها في المياه والموارد ليتَّقوا أضرار ذلك، فكانوا يبغضونها ويذهبون إلى ما ألفوا.

ظفرت الأمة بالدستور سنة ١٩٢٣ وقد اعترف فيها لها بأنها مصدر السلطات، وبأن الحكومة مسئولة أمام مجلس النوَّاب، واعترف لها فيها بالحريات، ولكن هل انتقلت السلطات من المَلِكِ إلى الأمة حقًا؟ أكانت الحكومة مسئولة أمام مجلس النواب حقًا أم كان النواب مسئولين أمام الحكومة؟ هل احترمت الحريات والكرامات؟ هل عاشت الأمة في ظله خيرًا مما كانت؟ لا، لم يكن شيء من ذلك، ذلك أننا عنينا بكتابة دستورنا في السطور، ولم نُعْن بكتابته في الصدور، ولو كتبناه في صدورنا، ونقشناه على قلوبنا وآمنا به وبأنه لا حياة كريمة ولا تقدم لنا إذا خولفت نصوصه وانتهكت حرماته، لما رضينا بأن يخالف وأن تنتهك حرماته، قال قائل: إن بريطانيا ليس لها دستور مكتوب، فقلت: كيف وهو مكتوب في أربعين مليون نسخة؟ فعجب، فقلت: إنه مكتوب في صدر كل بريطاني، ونفعه إنما هو في هذه الكتابة لا في كتابته في الأوراق والصكوك.

كل هذه المشروعات أخفقت لأنه بدئ بالنتيجة قبل المقدمات، وكان الأولى أن يبدأ بالمقدمات قبل النتيجة.

وهذا كله قد عرفه النبي ﷺ حين قال: " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" [(١)].

أصلحوا القلوب بإصلاح العقول وإصلاح الأخلاق وتهذيبها يصلح لكم كل شيء، إن العقل جعله الله مصباحًا يستضيء به الإنسان في هذه الحياة، فدعوا لكل إنسان مصباحه، وأمدوه بالزيت النقي حتى يضيء له طريقه ويبصره ما ينفعه في هذه الحياة.

وأول ما يجب أن يُرَبَّى عليه المرء خلقيًا هو الكرامة الإنسانية، ومن اعتقاد المرء بهذه الكرامة تنبعث كل الفضائل والخيرات، وتحارب كل الشرور والآثام، فإذا ما آمن المرء بكرامة نفسه وكرامة الناس حوله، طلب الحرية لنفسه وطلب المساواة بين الناس جميعًا وأبى أن يسيطر عليه أحد من الطغاة والمستبدين، وطلب مثل ذلك للناس، يجب أن يؤمن الناس بذلك ويحبوه كما يحبون الحياة أو أكثر من الحياة، وأن يُفَضِّلُوا الموت مع الكرامة على الحياة مع الذِّلَّة، وما استعبد قوم ورضوا بالذلة والعبودية إلا بعد أن فقدوا إيمانهم بالكرامة الإنسانية، هذا الإيمان بالكرامة هو الدرع الواقي للأمة من استعباد الظالمين واستبداد الجبارين، ولن تنفع القوانين والدساتير في وقاية الأمة من التحكم والاستبداد إذا فقدت هذه الكرامة.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: فضل الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم (١٥٩٩)

وإن الأمة التي تؤمن بكرامة نفسها تُحَوِّلُ كلَّ حاكم مُسْتَبِدٍّ إلى حاكم عادل، لأنها تؤمن بكرامتها وتعرف حقوقها، وتأبى أن يعتدي عليها معتد وأن يستذلها مستذل، وكلما حاول ذلك أحد ردته بسيوفها، وبكل ما تملك من قوة، والأمة التي لا تؤمن بهذه الكرامة تُحَوِّلُ كل حاكم صالح إلى حاكم مستبد، لأن الظلم من شيم النفوس، وليس يردها عنه إلا المقاومة، فإذا فقدت رَتَع الحاكم لأنه أصبح مُخَلًّى بينه وبين هواه، وهذا معنى ما ورد: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم»[(١)].

هذه هي الروح السائدة في العالم، وهذه هي التربية الحديثة التي تأخذ بها الأمم لأنه يؤيدها العلم والاختبار.

وسيأخذ الناس العجب حينما أُبَيِّن لهم أن هذا هو الإسلام وأن هذه هي التربية الإسلامية، وأن الله بعث محمد بن عبد الله ليربي الأمة الإسلامية على ما ذكرنا من الكرامة وما يتبعها من الحرية والمساواة.

إنَّ أَوَّلَ مَا يُمَيِّزُ المسلم من غيره الشهادة – لا إله إلا الله محمد رسول الله – ومعنى هذه الشهادة التي جعلت فرق ما بين المسلم والكافر هو الكرامة الإنسانية، فإنَّ المرء إذا اعتقد أن لا إله إلا الله، فلا معبود له يستحق العبادة والخضوع والرجاء

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي بكرة، رقم (٤٩١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٣٩١) من طريق يحيى بن هاشم، عن يونس أبي إسحاق السبيعي عن أبيه مرفوعًا، وقال البيهقي عقبه: " هذا منقطع وراويه يحيى بن هاشم وهو ضعيف. وذكر الشوكاني الحديث في الفوائد المجموعة (ص ٢١٠) وقال: " في إسناده وُضَّاع وفيه انقطاع ".

والسؤال إلا الله، لأنه ليس من ينفع أو يضرُّ، أو يُعِزُّ أو يُذِلُّ، أو يُحْيي أو يُمِيت، أو يَرْزُق أو يَمْنَع إلا الله، نقول إذا اعتقد فقد آمن بكرامته ومساواته للبشر، فلا يخضع ولا يذل، ولا تعنو جبهته، ولا يخشع صوته إلا الله، ومن أراد ذلك ممن يساوونه من الناس أبى ذلك عليهم ووقف دونه، ولم يكتف الإسلام بذلك بل ذكر أخبار الملوك والظلمة، والطغاة المستبدين، واستعبادهم أممهم وإرسال الرسل إليهم ليخلصوهم من الهوان، ويعيدوا إليهم كرامتهم الإنسانية، فذكر بني إسرائيل واستعباد فرعون إياهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1]، وذكر محاورة موسى لفرعون في دعوى الألوهية والتسخير، وهي محاورة يجب أن تكتب على كل قلب لتكون وقاية له من فَقْدِ الكرامة والارتكاس في مهاوي الذلة والاستعباد: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا

(١) البقرة: ٤٩.

تَسۡتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ * قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ * قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[1].

وقد ذكر الله هذا الحوار البديع ليوحي إلى الناس ضَعْفَ الإنسان ومساواته لغيره من الناس، فإذا تمرَّد وبغى وخرج عن طوره وجب إقناعه بالحجة، فإذا لم يقتنع وجبت مقاومته ومحاولة الخلاص منه، وقد ذكر الله هذه المقاومة في كثير من سور القرآن وبَيَّن أن العاقبة للشعب المقاوم والدمار والهلاك للطاغية المستبد، بشرط واحد: وهو أن يصبر الشعب على المقاومة: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ * وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾[2].

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٦-٣٣.

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٣٦، ١٣٧.



وبين في القرآن أن إرادة الله وعونه وحمايته للمغلوب المستضعف ليغرس الأمل في النفوس والإيمان بالغلب في القلوب: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[1]، ولم يكتف القرآن بما ذكرنا، بل ذكرها كلمة خالدة ناطقة بكرامة الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2].

أرأيتم التربية الإسلامية كيف كانت مبناها على الكرامة الإنسانية، وكيف كانت تربي الأمة على التخلص من المستبدين الظالمين، وكيف كانت كلمة التوحيد مُخَلِّصَةً للأمم من الداء الوبيل المبيد للأمم وهو الذل والاستعباد، كما هي مُخَلِّصة من سوء الآخرة، وعذابها بشرط أن يفهم معناها على وجهه، وأن يُرَبَّى المرء عليها حتى تختلط بلحمه ودمه.

ولا يظن ظان أني أُحَمِّل كلمة التوحيد فوق ما تحتمل وأُفَسِّرُ الربوبية والعبودية بأكثر من معناها ليتسنى الوصول إلى ما أريد، فإن ذلك كان يعنيه النبي ويعني أكثر منه،

---

(١) سورة القصص الآيات ٤-٦.

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠.

فقد ورد عن عدي بن حاتم أنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١)، حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ».

ولو شئت أن أقول إن جُلَّ ما في الإسلام يدور على تثبيت هذه الكرامة الإنسانية لقلت: فإن الإسلام كلَّه يؤيدني في ذلك.

استكبر سادة قريش أن يجلسوا مع النبي ومعه ضعفاء المسلمين أمثال صهيب وعمار وبلال، وقالوا للرسول اطرد هؤلاء الأعبُد ونحن نستمع إليك، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ * وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾[(١)].

فكان النبي إذا رأى هؤلاء الضعفاء مُقْبِلين بدأهم بالسلام تطييبًا لنفوسهم وغرسًا للكرامة في قلوبهم، وهل كان عتاب النبي ﷺ في أمر الأعمى الذي جاء وهو مشغول بكفار قريش، ويرجو أن يهديهم الله فخاف أن يشغل به عنهم فيفوت ما

(١) الأنعام: ٥٢-٥٤.



يرجوه، فأنزل الله هذا العتاب وسجله على وجه الدهر في هذه الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ * وَهُوَ يَخۡشَىٰ * فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾[1].

نقول هل كان هذا العتاب القاسي إلا ليُذَكِّرَ دائمًا بالكرامة الإنسانية وبكرامة هؤلاء الفقراء خاصة كلما قرأه قارئ أو تدارسه دارس.

وهل أمر الإسلام بالرفق في الأمور كلها وبغض في الفظاظة والغلظة، فقال الله في كتابه الكريم: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[2]، وقال النبي ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه»[3]، حتى إنه أمر بالرفق بالعبيد والإماء وقال لأبي ذر وقد قال لآخر: يا ابن السوداء: «يا أبا ذر أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية»[4]!

---

(١) عبس: ١-١١.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عائشة بنت الصديق رضي الله عنها رقم (٢٥٧٠٩). والحديث صحيح.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها إلا بالشرك، رقم (٣٠)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل، رقم (١٦٦١).

نقول هل فعل الإسلام ذلك إلا ليحفظ على الأمة عزتها ويبقى لها الكرامة الإنسانية؟ وقد خطب عمر بن الخطاب لما تولى الخلافة فقال: إذا رأيتم فيَّ اعوجاجًا فقوِّمُوني، فقام إليه رجل وقال: لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوَّمْنَاه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة منْ لَوْ رأي فيَّ اعوجاجًا لقومه بسيفه»، فهل كان فرحُ عمرَ بذلك وحمدُه اللهَ عليه إلا لأنه استوثق من أن الأمة فيها خُلُقُ العِزَّة والكرامة الإنسانية، وأنه يُحَفِّزُهَا هذا الخلق على أَلَّا تُقِرَّ لِظَالم، ولا تعنو لمستبد.

ولمَّا كان مما يهدر الكرامة الإنسانية استعلاء قوم على الآخرين بالجنس والدم أو باللون أو بأعراض خارجة من المال والجاه والسلطان أبطل الإسلام ذلك كله وأهدر تلك المقاييس الفاسدة التي درج الناس على أن يُقَيِّمُوا بها الناس، ويُمَيِّزُوا بها الرجال، وأنزل الله في كتابه العزيز تلك الآية الذهبية التي هي أصل عظيم من أصول الاجتماع الإنسان والإصلاح البشري، والتي أهدر فيها تفاضل الناس بالأحساب والأنساب والمال والجاه والسلطان، ووضع مقياسًا خيرًا من ذلك كله وهو التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1]، وجاءت السنة الكريمة بشرح هذا الأصل فقال النبي ﷺ: «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[2]، «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطيء به

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديثُ رجل من أصحاب النبي ×، رقم (٢٣٤٨٩)

نسبه»[(١)]، «يا معشر قريش لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»، «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا».

ولم تكن هذه التعاليم كلمات مَتْلُوَّة على اللسان، لا تتأثر بها القلوب كما هي عند المسلمين اليوم، بل تأثرت بها قلوبهم، وانطوت عليها صدورهم.

يحكي التاريخ أن سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب ورهطًا من سادة قريش طلبوا الإذن على عمر بن الخطاب وطلبه معهم صهيب وبلال من ضعفاء المسلمين، فأذن لهما أولًا، فغضب أبو سفيان وأخذته العزة، وقال لأصحابه: لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه!، فقال سهيل: إني أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم، دُعِيَ القومُ إلى الإسلام ودُعِيتُم فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُرِكتم!

وهذا هو السر في أن الإسلام ديننا جميعًا ولكنه نفعهم ولم ينفعنا، إننا أخذناه على طرف اللسان، ولم يتجاوز الآذان، أما هم فقد تغلغل في الضمائر وأُشْرِبته نفوسهم واختلط بلحمهم ودمهم بمبادئه السامية فكانت لهم العزة في هذه الأرض.

أيها المسلمون: غَيِّرُوا نظركم إلى الدِّين وغَيِّروا فهمكم إياه، لا تفهموه تعاليم جافة، ولا تفهموه جزئيات مبعثرة لا رابطة تربطها، ولا تفهموه معنيًا بإزالة الحدث والخبث دون أن يكون معنيًا بهذه الحقائق العالية، بل افهموه على حقيقته: تعاليم مثمرة، وقواعد باقية يراد بها تغيير النفوس وقلب الأوضاع الباطلة،

---

(١) أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه، باب قراءة القرآن، ذكر حفوف الملائكة بالقوم الذين يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، رقم (٧٦٨).

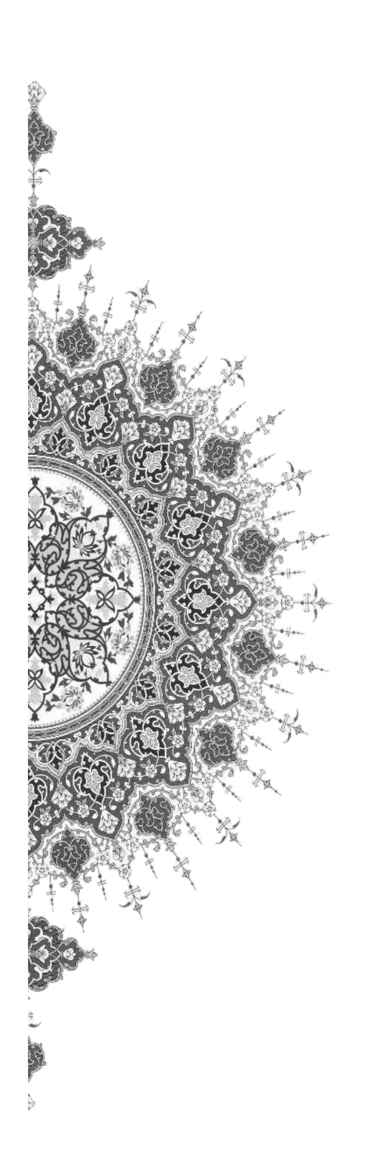
والاصطلاحات الظالمة التي تؤدي إلى استعلاء طبقة على طبقة، واستغلال طبقة لغيرها من الطبقات، جاءت لرفع ذلك ليعيش الناس سعداء، وقد فطن لذلك أمم الغرب فطبقوها في حياتهم، فضمنوا السعادة لأكبر عدد من أممهم، وكانوا أحظى بها من المسلمين الذين تنزلت عليهم ولا يفطنوا لها ولم يأخذوها مأخذ الجد والحزم، وهذا هو تغيير الدين وتبديله وتحريف الكتاب وتأويله والمروق منه كما يمرق السهم من الرمية.

رَبُّوا عليها الرَّضِيع ونَشِّئُوا عليها الصغير، وأرضعوها لأطفالكم مع اللبن أُباة حماة كرامًا لا يطغي عليكم طاغ، ولا يستبد بكم مستبد، وكلما أراده منكم ذو سلطان وجد من يقول له: قف مكانك إني هنا أحمي حقيقتي، وأذود عن كرامتي:

إذا المَلِكُ الجبَّار صَعَّرَ خَدَّه ... مَشَيْنَا إِلَيه بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُه (١)

---

(١) البيت منسوب لبشار بن برد العقيلي، الحماسة المغربية، (١/٦٤٩).



المجموعة السابعة
مناقشات وردود

المجموعة السابعة
مناقشات وردود

تحتوي على المقالات الآتية:

منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث.

دائرة المعارف الإسلامية والخلط في التاريخ والحقائق العلمية.

دائرة المعارف الإسلامية رأيها في أبي هريرة.

الكتب الفلسفية وما اعتراها من تحريف الوراقين وسبيل إصلاحها.

نقد كتاب: خرافة الميتافيزيقا -١-.

خرافة الميتافيزيقا -٢-.

دفاع عن الأزهر.

منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث[1]

أظن أن الصحف لا تأبى على نَشْرِ هذا النقد للشعر الجاهلي للدكتور طه حسين وأن ليس لأحد سبيلٌ عليها إذا نشرته لأنه لا يتعلق ... بما كتبه في الشعر الجاهلي ... وإنما هو مناقشة هادئة علمية محضة في المنهج الذي اصطنعه الدكتور في البحث في الشعر الجاهلي يتبيَّن منها: أهذا النهج الذي سلكه في البحث علمي منطقي يرضى عنه العلم؟ أم هو منهج خاطئ لا يحترمه العلم، ويحتقره المنطق ويرى أنه من المغالطات[2]؟

إننا سنحاول ذلك وستكون النتيجة كما سيراها القارئ أن منهج الدكتور في البحث من ضلالات العقول ومغالطات الوهم، وأنه ليس يسلك هذا المنهج إلا الذين لم يمارسوا صناعة المنطق ولم يمرنوا على صناعة البرهان، وكانوا سطحيين في بحوثهم لم يتعمقوا إلى الغور ولم يبعدوا المرمى، وغرضنا من ذلك أمور ثلاثة:

---

(١) مجلة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا، المجلد السابع والعشرون، ص ٧٦٢، جمادى الآخرة، ١٣٤٥هـ / يناير ١٩٢٧م.

(٢) أصدر د. طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦م، وقد ضمَّنه آراء، مما دفع عددًا من العلماء لمناقشته ونقد ما ورد في الكتاب، لكنه عاد وتراجع عن هذه الآراء وقد اتضح ذلك في كتابه (مرآة الإسلام) الذي نشره سنة ١٩٥٩م، ص ٢٠١-٢٠٣، وقد عرض الأستاذ الدكتور محمد عمارة في كتابه (طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام) هدية مجلة الأزهر، ذو القعدة ١٤٣٥هـ. المراحل الفكرية التي مرَّ بها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين

(أولها) أن تسقط دعوى الدكتور طه حسين بأن ما سلكه في البحث منهج علمي حديث، وأنه بذلك يحشر نفسه في زمرة العلماء حشرًا في عداد المخترعين والمبتكرين والمستكشفين، وليس يعلم إلا الله ما ينال هؤلاء العلماء من الأذى في مضاجعهم بانتساب الدكتور إليهم وحَشْرِه نفسه قسرًا في زمرتهم.

(ثانيًا) أن أحمي شباب مصر من عدوى ذلك المنهج ومن أن يتأثروا بالدكتور في طرائقه الفكرية؛ فإن مستوى البحث في مصر لمَّا يَنْضُج بعد وذُيُوع أمثال طرائق الدكتور مما يكُون ضِغْثًا على إبَّالَة (١).

(ثالثها) أن يعلم الذين يدينون بالإسلام في مصر أن دينهم لم يصادمه علم ولا عقل كما يُدَّعى ويُفتَرى، وحاشا الإسلام أن يصادمه علم أو عقل، وأنه إذا كان ثَمَّ ما يصادمه فليس العلم والعقل؛ وإنما هو الجهل المخزي والباطل الشائن، والعقل الفجّ الذي لم يستكمل بعض شرائط الإنتاج، سيسوء ذلك الدكتور طه حسين، ولا يرضيه ولكنني لست أتوخى رضاه ولا أتحرز من مساءته وإنما أتوخى رضى الحق وأتجنب مساءة الصواب، فأما من عداهما فلا عليَّ أن يكونوا غاضبين وليس يدخل في غرضي أن يقتنع الدكتور طه حسين، فإنه ليس ممن يُرجى منهم اقتناع فإنه ليس

---

(١) الإبَّالة: الحُزْمَة من الحَطَب، والضِّغْث: قَبْضَةٌ من حشيش مختلطة الرطب باليابس، ومعنى المثل: اجتماع بَلِيَّةٌ على أخرى. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت – لبنان، (١/ ٢٣٢).

طالب حق وإنما هو طالب رواج وليس ممن يعنيهم الصواب وإنما ممن يعنيهم الربح فهو كالتاجر هَمُّه أن تروج بضاعته لا أن تُنْقَد فيُعلم جَيِّدُها من رديئها وكما أن التاجر إذا بَصَّرْته عيبَ بضاعته ناكَرَك وجاحدك كذلك الدكتور إذا ألمسته عيب ما يقول بيده جحد واستكبر؛ لأن ذلك يقف دون رواجه وربحه وإياهما يريد.

إن الذي أفسد على الدكتور أمره اعتقاده أن أمَّته أُمِّيَّة فهو يلقي إليها مباحثه على عواهنها لا يُعْنَى بتمحيصها ونفي الزائف عنها عالمًا بأنَّه ليس عندها من ملكة النقد ما يبين عيبه ويظهر شَيْنَه وقد مدَّ له في هذا الاعتقاد أنه يرى المعجبين برأيه والمُقَرِّظِين لعلمه مهما كان فيه من الباطل والخطأ.

ألا فليعلم الدكتور بعد أنه ليس ينشر بحوثه في أمة وحشية متبدية كقبائل الزنوج، وإنما هو ينشرها في أمة متحضرة متمدينة ضربت في العلم بسهم وأخذت منه حظًّا وأن بني قومه فيهم من ينقدون الآراء ويعلمون حقها من باطلها ويعلمون المغالطات مهما بولغ في تزيينها وأنهم لم تستعص عليهم نِحَل الفلاسفة ومعتقداتهم في الإلهيات والأخلاق والسياسة والاجتماع فنقدوها وعلموا زائفها من خالصها فكيف تستعصي عليهم آراء سطحية تتعلق بتاريخ أو شعر؟ وأنهم إن كانوا قليلاً ففي استطاعة هؤلاء القليل أن يُبَيِّنوا لجمهرة الأمة عثرات الرأي وكبوات الأفهام.

جاء شقيق عارضًا رمحه إن بني عمك فيهم رماح [١]

---

(١) البيت لحَجْل بن نضلة، والمعنى: جاء هذا الرجل واضعًا رمحه عارضًا مفتخرًا بتصريف الرماح، مُدلًا

نفى الدكتور طه حسين في الفصل الذي عنوانه (الشعر الجاهلي واللغة) وجود إبراهيم وإسماعيل وبناءهما الكعبة وهجرتهما إلى مكة وتَعَلُّمَ إسماعيل العربية من العرب العاربة الذين هم من قحطان وإن كان قد ورد ذكرهما في التوراة والقرآن، نفى ذلك الدكتور وليس له اختيار في هذا النفي؛ لأنه مضطر أمام الدليل القطعي، والدليل الذي اضطره إلى ذلك هو أنه قد ثبت أن لغة قحطان أي لغة جنوب جزيرة العرب تخالف اللغة العربية التي يتكلم بها أهل الحجاز فنِسْبَتُها إلى اللغة العربية كالنسبة بين اللغة العربية وبين أي لغة سامية فإذا كانت هذه القصة صحيحة وكان إسماعيل وبنوه قد تعلموا العربية من القحطانية فكيف بعد ما بين اللغة العربية العدنانية واللغة القحطانية؟

نحن إذًا بين أمرين إما أن نقبل هذه القصة ونرفض ذلك الدليل القطعي أو العكس، ولا مندوحة تُجَوِّزُ رفض الدليل القطعي فلا بد من رفض هذه القصة وإنكارِهَا والإذعان للدليل القطعي ننكرها بجملتها فلم يوجد إبراهيم وإسماعيل فضلاً عن بنائهما الكعبة وهجرتهما إلى مكة وتَعَلُّم إسماعيل العربية من القحطانية،

بشجاعته، دالًا ذلك على إعجاب شديد منه واعتقادٍ بأنه لا يقوم إليه أحد من بني أعمامه كأنهم كلهم عزلٌ ليس مع أحد منه رمح فقيل له: تنكب وخل لهم طريقهم لئلا تتزاحم عليك رماحهم وتتراكم عليك أَسِنَّتُها، إن بني عمك فيهم رماح كثيرة. الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م، ص ٣١.

نحن مضطرون إلى ذلك وإن حدَّثنا القرآن والتوراة عنها فإن ورود هذين الاسمين فيهما لا يكفي لوجودهما التاريخي.

هذا دليل الدكتور وسنبدأ في مناقشته قبل الدخول في تفصيلات المناقشة نذكر مقدمة ينبغي أن تُعْلَم وهي أن القرآن لم يعرض لحديث تعلم إسماعيل العربية من قحطان، وإنما الذي عرض له وجودهما وهجرتهما وبناؤهما الكعبة وإنما الذي عرض لتعلم إسماعيل العربية من القحطانية هم مؤرخو اللغة وبعد فسَنُسَلِّم للدكتور جدلًا كل ما قاله من البعد بين القحطانية والعدنانية بعدًا يجعلهما لغتين مستقلتين ومن أنه لو تعلم إسماعيل من القحطانية لكانت اللغتان متفقتين أو متقاربتين.

ولكننا نقول له: إن دليلك لا ينفي إلا أن إسماعيل تعلم اللغة العربية من القحطانين فأما وجودهما وهجرتهما إلى مكة وبناؤهما الكعبة وهي الأمور التي عرض لها القرآن فلا ينفيها ولا يتعرض لها، فمما يتفق مع دليلك أن يكون إبراهيم وإسماعيل قد وُجِدَا وهاجرا إلى مكة وبَنَيَا الكعبة وتعلم إسماعيل وأبناؤه العربية من غير القحطانيين من العرب الذين خلقهم الله يتكلمون العربية الحجازية التي بقيت إلى مجيء الإسلام فالدليل قطعي لا ينفي إلا شيئًا واحدًا وهو تعلم إسماعيل وبنيه العربية من القحطانية فمن الواجب أن يقتصر به على ذلك ولا يعدي إلى القصة جميعها فينفيها إذ لا منافاة بينه وبين بقيتها.

ومثل الدكتور في ذلك مثل من يسمع مؤرِّخَيْن أحدهما يقول: إن اللورد كتشنر كان عميد الدولة البريطانية في مصر والآخر يقول: إنه كان عميدها في مصر سنة ١٩٢٠م، فيقول: إن التاريخ يفيد أن اللورد كتشنر غرق زمن الحرب العظمى التي انتهت قبل هذا التاريخ فما قاله المؤرخان كذب ولم يكن اللورد كتشنر عميدًا لإنكلترا في مصر وقتًا ما، كذب المؤرخين وكذب القصة جميعها ولو اتبع المنطق لنفي كونه عميدًا في زمن سنة ١٩٢٠م، ولم يعد النفي إلى كونه عميدًا ولم يكذب المؤرخ الأول إذ لم يتعرض لتعيين الزمن وكذلك الأمر عندنا الدليل ينفي ما قاله المؤرخون من أن إسماعيل تعلم العربية من القحطانية فينفي به الدكتور القصة حتى ما ذكره القرآن من وجودهما وهجرتهما وبنائهما الكعبة مما لم ينفه الدليل ولم يتعرض له ويكذب القرآن فيما قاله وهو لم يعرض لما نفاه الدليل وإنما عرض لغيره.

فيا دكتور دليلك أَقْصَر من دعواك أنت تدعي نفي وجود إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناءهما الكعبة وتعلم إسماعيل العربية من القحطانية، ودليلك إنما ينفي الأخير، وهو تعلم إسماعيل العربية من القحطانية، فأما ماعدا ذلك فلا، ويسمي علماء المناظرة ذلك بمنع التقريب، والتقريب سوق الدليل على وجه يستلزم المطلوب ويقولون في مثل ذلك: إن التقريب غير مسلم، أي إنك سقت الدليل على وجه لا يستلزم المطلوب فمثلك مثل من ادَّعى أن هذا الشبح إنسان

ويستدل على هذه الدعوى بأنه متحرك بالإرادة وكل متحرك بالإرادة حيوان، نعم، الدليل مُسَلَّم ولكنه لا يستلزم المطلوب وهو أنه إنسان.

فالمنطق يأمرنا إذا نفى الدليل شيئًا أن نقصره على ذلك الشيء ولا نعديه إلى ما عداه وقد رأيت في مثال اللورد كتشنر كيف نخطئ إذا عدينا النفي إلى غير ما قام عليه الدليل، ولو أردنا أن نصوغ دليلك في قالب منطقي لكان هكذا: لو كانت الحجازية أصلها القحطانية لما بعد ما بينهما هذا البعد لكنهما متباعدتان إذن فليست الحجازية أصلها القحطانية هذه النتيجة فقط، ولكنك تزيد فيها ما يأتي: لم يوجد إبراهيم وإسماعيل ولم يبنيا الكعبة ولم يهاجرا إلى مكة وهذا هَوَسٌ ليس منطقًا.

ويظهر أن الدكتور طه عَلِم أن دليله لا ينتج تكذيب القرآن فيما ذكر فلم يُرَتِّب التكذيب على الدليل ولم يقل: وإذن. التي يستعملها دائمًا في كلامه، وقال فواضح جدًّا لكل من له إلمام بالبحث التاريخي عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية وهو بين شرَّين لا مفر منهما.

إما أن يكون اجترأ على تكذيب القرآن في وجود إبراهيم وإسماعيل بدون دليل وليس بيده إلا قوله: فواضح جدًّا، وحينئذ تكون دعوى لا دليل عليها، والدعاوى إن لم تقم عليها بينة لم يُعبأ بها.

وإما أن يكون قد كذب القرآن بذلك الدليل وقد علمنا أنه أقصر من دعواه ولا ينتج تكذيب القرآن.

هذا وقد رأى القراء أننا لم نناقش الدكتور على قاعدة أن القرآن نص يقيني وهو حجة على كل ما خالفه، وإنما ناقشناه على قاعدة أنه نص تاريخي كنص أي مؤرخ من البشر تنزلًا منا، وبيَّنَّا له أن دعواه لم تتم؛ لأن الدليل العقلي الذي استعمله لا ينهض فلم نلزمه بنصوص الدين لئلا يقال: إن ذلك لا يلزمه إلا المتدين وإنما ألزمناه بالأدلة العقلية المشتركة للإنسانية كلها من تدين منهم ومن لم يتدين.

ولا يظن ظان أن أدلة الدكتور الحديثة تقف عند هذا الحد من العبث والبطلان بل إن لها لونًا أخر من ألوان العبث والبطلان وهو ما سَنُبَيِّنُه.

يزعم الدكتور طه أن قصة إبراهيم وإسماعيل موضوعة وضعها اليهود لغرض وهو أنهم كانوا يريدون أن يُثبتوا القرابة بينهم وبين العرب ليعيشوا معهم عيشة راضية وقبلتها مكة لغرض سياسي وديني؛ لأنهم كانوا يريدون أن يتصل نسبهم بأصل من تلك الأصول الماجدة وقبلها الإسلام لغرض ديني وهو أنه يريد أن يثبت صلة بينه وبين اليهودية.

هكذا زعم الدكتور وليس معه نص تاريخي يفيد ذلك وليس بيده إلا أن ذلك يمكن أن يكون قد كان وإذا تصور على هذا الحال كان منسجمًا ونحن نقول له: يا دكتور إن التاريخ لا يثبت بمثل ذلك وليس كلُّ ما يُمكن أنْ يَكُون قَدْ كَانَ يَجِبُ أَنْ

يَكُونَ قَدْ كَان ولا يثبت الأمر بأن هذه العلة يجوز أن تكون له وأن مثلك في ذلك مثل مؤرخ يأتي بعد مائتي سنة يقول يزعم المؤرخون أن أمريكا اشتركت مع فرنسا في حرب ألمانيا في الميدان الغربي وهذا باطل فأين أمريكا من فرنسا إن بينهما المحيط الأطلنطي على سعته، القصة مكذوبة وقد اخترعها بعض الأمريكان ليقرب الشعبين الأمريكي والفرنسي بعضهم من بعض إن هذه القصة تفيد أنهما حاربا معًا جنبًا لجنب عدوًّا مشتركًا فهي تدعو إلى تآلف الشعبين فقد وضعت لذلك.

وإن الذي يدعوا إلى وضع علوم الأوائل كلها موضع الشك ولا يُثبت إلا ما قام العلم على إثباته لا يسوغ له أن يطلب منا الاقتناع بمثل هذه الظنون والأوهام وليس عنده من الحجة إلا أن ذلك يمكن أن يكون قد كان فيجب أن يكون قد كان اللهم إلا إذا كان يدعو إلى رفض تقليد الماضين إلى تقليده هو وإن قارئي كتابه يحتاجون إلى مقدار عظيم من البلاهة والغمارة حتى يقتنعوا بأمثال تلك الحجج التي هي كما قال الأول:

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقًّا وكل كاسر مكسور

إذا أراد الدكتور أن يقنع الأمة بكتابه فعليه أولًا أن يبدأ بإلغاء عقولها وعكس منطقها السليم وإحالة تلك العقول عن فطرتها حتى تكون على غرار عقله ثم يلقي إليها بعد أمثال تلك الأوهام وحينئذ تقنع بها وتصدق ويتم له ما يريد ولكن دون ذلك.

ألا لا يقولن الدكتور بعد اليوم: المنهج العلمي الحديث ولا البرهان العلمي ولا يتمسحن بأعتاب العلماء فقد أَطْلَعْنَا القراء على قيمة نهجه العلمي الحديث ومنطقه الجديد فعلموا أن ذلك ليس منطق العقلاء إنما هو منطق البله والأغمار والممرورين.

وبعد فكتاب الشعر الجاهلي إنْ كان أَلَّفه مؤلفه كتابًا في المغالطات وأمثلة على القياس الذي لم يستكمل شروط الإنتاج والأضرب العقيمة والحُجَّة الخِدَاج فهو كتاب جيد في بابه واف بالغرض الذي قصد إليه، وإنْ كان أَلَّفه مؤلفه كتابًا في تاريخ الشعر والأدب فليس من ذلك في قليل ولا كثير.

ولو أن في بلدنا مَجْمَعًا عِلْمِيًّا منظمًا لحَكَّمْتُه بيني وبين الدكتور ولرضيت حكمه فيما رميت به دعاوى الدكتور من أنها دعاوى يقيم عليها أدلة أقصر منها تارة ويدعيها بدون برهان تارة ويثبت الشيء بأنه ممكن تارة أخرى ولكان من وراء ذلك التحكيم الخير العظيم، فإنه إذا حكم عليَّ تواريت خجلا وأرحت الناس من هذا النقد وأمثاله وإذا حكم على الدكتور حمى شباب الأمة من التورط في آرائه وحماها أيضًا من عدوى ذلك المنهج الخاطئ في البحث أما والبلد ليس فيها مثل المجمع فأدعوا المشتغلين بالمنطق أن يبدوا آراءهم فيما بيني وبين الدكتور من خلاف، إنهم إن فعلوا ذلك خدموا العلم والحقيقة ومن أولى من هؤلاء بخدمة العلم المظلوم والحقيقة المهيضة ؟!.

دائرة المعارف الإسلامية والخلط في التاريخ والحقائق العلمية(١)

اطلعت على الجزء السابع من المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية التي تترجم الآن بمصر إلى اللغة العربية فوجدت فيه بعض مآخذ تحتاج إلى البيان والإفصاح عن الحق فيها. ونحن ذاكرون بعضًا منها فيما يلي:

(١)

جاء في صفحة ٤٤٥ من العدد المذكور ما نصه:

"وقد ذهب سنوك هرجرونيه(٢) Snouk Hurgronje :Die Mekkannischefeste ص ٨٦ وما بعدها إلى أن محرمات الإحرام قد غدت قاسية في نظر النبي؛ لذلك نجده أثناء مكثه قبل الحج يتحلل من هذه المحرمات، فلما نظر إلى صحابته نظرة عتاب واستفهام نزلت الآية: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الخامس، الجزء الرابع، ص ٥٥٦-٥٦٦

(٢) سنوك هرجرونيه: مستشرق هولندي ولد في ٨ فبراير ١٨٥٧م، حصل على الدكتوراه برسالة عنوانها: " موسم الحج في مكة "، وفي ١٨٨٤م قام برحلته المشهورة إلى الجزيرة العربية، ووصل إلى مكة تحت اسم مستعار هو: عبد الغفار، وفي ١٨٨٩م عمل في خدمة إدارة المستعمرات الهولندية في أندونيسيا، توفي في ليدن في٢٦ يونيو ١٩٣٦م. موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م، ص ٣٥٣-٣٥٥.

ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[(١)].

وعلى ذلك فإن ما تراءى للنبي ومعاصريه أنه إهمال يستوجب التفكير قد غدا في نظر الأجيال اللاحقة أمرًا مباحًا، والحجاج الذين يصلون مكة قبل الحج بوقت طويل يتخلصون مما حرم عليهم بالتمتع، فهم يخلعون ملابس الإحرام عقب الانتهاء من العمرة، ولكنهم يعودون فيرتدونها عند اقتراب موعد الحج، والتمتع مُحرَّم على الذين عندهم هدي للفدية (البقرة الآية ١٩٦). وكانت العمرة في الأصل تحدث في شهر رجب. وتذكر بعض الروايات أن العمرة إبان الحج لم تكن معروفة في الجاهلية" ا.هـ.

وفهم هذا الكلام يحتاج إلى مقدمة، وهي أنه كان في زمن الجاهلية لا يجوز أن يؤتى بالعمرة في أشهر الحج، فإذا أحرم المُحرم في أشهر الحج كان عليه ألا يتحلل من محرمات الإحرام إلا بعد انقضاء حَجِّه.

فلمَّا جاء الإسلام أجاز المتعة في أشهر الحج، فللقادم إلى مكة مثلًا أن يحرم بعمرة، فإذا دخل مكة وطاف وسعى تحلل من عمرته وجاز له أن يفعل كل ما كان مُحَرَّمًا عليه بالإحرام، فإذا قرب يوم عرفة أحرم بالحج وأتم حجه، ويسمى ذلك تمتعًا، وعليه لذلك هدي، وقد وقع ذلك في زمن النبي ﷺ في حديث سنذكره.

---

(١) البقرة: ١٩٦.

فجاء سنوك هرجرونيه وصور الواقعة على غير حقيقتها التاريخية، فزعم أن سبب هذا التشريع الذي يبيح التحلل من محرمات الإحرام في أشهر الحج هو أنَّ محرمات الإحرام قد غدت قاسية في نظر النبي ﷺ فتحلل من هذه المحرمات أثناء مكثه في مكة قبل الحج، فنظر إليه أصحابه نظرة عتب واستفهام، فنزلت آية البقرة التي تجيز التمتع الذي يستتبع التحلل من هذه المحرمات في زمن الحج.

والمسألة على هذا الوجه تخالف التاريخ والروايات الصحيحة، فالروايات تنبئنا أنه ﷺ في حجته تلك بقي على إحرامه لم يتحلل منه، وقد أمر أصحابه بالتحلل، وأبدى لهم الوجه في عدم تحلله فقال: إني لبّدت رأسي وقلّدت هديي فلا أحل حتى أنحر.

فهو يخبر أنه يحرم عليه التحلل لأنه ساق الهدي، ولا يجوز له أن يتحلل حتى ينحر هديه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أما من لم يسق الهدي فجائز له أن يتحلل من عمرته ثم يحرم بالحج.

ولا شك أن القارئ يرى معنا أن ذلك ليس فيه أقل مغمز في النبي ﷺ ولا في الشريعة الإسلامية، ومن الغريب أن الروايات فيما نعلم تكاد مجمعة على أن النبي ﷺ لم يتحلل، وإنما أمر أصحابه بالتحلل، وبيّن أنه لا يجوز له التحلل لأنه ساق الهدي فالأستاذ سنوك هرجرونيه قائل هذه المقالة على هذا يكون قد ترك ما جاءت به الروايات وما نطق به التاريخ، واخترع سبباً من عند نفسه لهذه المسألة.

وهذا ما يجعلنا نرى أن صاحب هذا البحث يسيء إلى الشريعة وإلى صاحبها ﷺ بسوء نية؛ لأنه لوكان حسن النية لما تجاهل هذه الروايات الصحيحة، ولما اختلق سببًا من عند نفسه يوقع في النفس الريبة والشك. وسنذكر من الروايات تفصيلًا يعلم منه فساد ما زعمه هرجرونيه، وما يناقضه مناقضة واضحة:

أخرج ابن جرير في تفسيره بسنده عن السدي – قوله: " فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي"، أما المتعة فالرجل يحرم بحجة، ثم يهدمها بعمرة. وقد خرج رسول الله ﷺ في المسلمين حاجا، حتى إذا أتوا مكة قال لهم رسول الله ﷺ: من أحب منكم أن يحل فليحل، قالوا: فما لك يا رسول الله! قال: أنا معي هدي"[(١)].

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن حفصة زوج النبي ﷺ أنها قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا شَأْنُ النَّاسِ حَلُّوا بِعُمْرَةٍ، وَلَمْ تَحْلِلْ أَنْتَ مِنْ عُمْرَتِكَ؟ قَالَ: «إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي، وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلاَ أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ»[(٢)].

وأخرج البخاري أيضًا عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ حَجَّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ سَاقَ البُدْنَ مَعَهُ، وَقَدْ أَهَلُّوا بِالحَجِّ مُفْرَدًا، فَقَالَ لَهُمْ: «أَحِلُّوا مِنْ إِحْرَامِكُمْ

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ –٢٠٠٠ م، (٣/ ٩١).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ك: الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج، وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي، حديث رقم (١٥٦٦).

بِطَوَافِ البَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَقَصِّرُوا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَلاَلًا، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ فَأَهِلُّوا بِالحَجِّ، وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مُتْعَةً»، فَقَالُوا: كَيْفَ نَجْعَلُهَا مُتْعَةً، وَقَدْ سَمَّيْنَا الحَجَّ؟ فَقَالَ: «افْعَلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ، فَلَوْلاَ أَنِّي سُقْتُ الهَدْيَ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ، وَلَكِنْ لاَ يَحِلُّ مِنِّي حَرَامٌ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ»[١].

فالقارىء يرى أن هذه الروايات مُجمعة على أن النبي ﷺ لم يتحلل بل بقي على إحرامه. فما ذكره أصحاب الدائرة من أن النبي ﷺ تحلل استثقالًا لمحرمات الإحرام يخالف هذه الروايات.

والمتتبع لكلام أصحاب دائرة المعارف في هذا الموضوع يتبين له جليًا الغرض الذي يرمون إليه، وذلك أنهم ساقوا في بيان الحاج الحديث الذي رواه ابن ماجه من أن النبي ﷺ لما سئل عن الحاج من هو؟ قال: «الشَّعِثُ، التَّفِلُ»[٢] واقتصروا على هذا الحديث ولم يضموا إليه ما يبين الغرض من الحج، ليوقعوا في نفس السامع أن الحج ليس هو إلا شعثًا وتغيير رأس وتقشفًا مع أن في القرآن ما يبين بوضوح أن الحج طهارة معنوية تهذب النفس وتزكيتها، وتروضها على الطاعة والابتعاد عن المعاصي، والرفث والفسوق والمشاحنة.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ك: الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج، وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي، حديث رقم (١٥٦٨).

(٢) أخرجه الإمام ابن ماجة في سننه، ك: المناسك، باب ما يوجب الحج، حديث رقم (٢٨٩٦).

قال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1].

والشريعة الإسلامية لم تطلب من الحاج أن يخرج عن حالته الاعتيادية إلا ليتوفر على الجانب المعنوي وعلى تهذيب النفس ورياضتها.

ولعل القارئ بعدما أطلعناه على مقدار خطئهم وعدم تحريهم للتاريخ والروايات المنقولة في هذه المسألة واختراعهم أسباباً لم يأت بها التاريخ، يقع في نفسه الارتياب في معلوماتهم، والشك فيما يأتون به، فيقف أمام ما يقولون موقف الحذر، ولا يأخذه إلا بعد التريث والتثبت بالرجوع إلى المصادر الإسلامية.

(٢)

قالت دائرة المعارف الإسلامية في صفحة ٤٣٨ و٤٣٩ في مادة إجماع من العدد المذكور:

(إجماع): أحد الأصول الأربعة التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، ويعرف بأنه اتفاق المجتهدين (هم الذين لهم الحق بفضل ما أوتوا من العلم أن يقرروا حكماً برأيهم (انظر مادة اجتهاد) من الأمة بعد وفاة الرسول في كل عصر وفي كل أمر ديني.

---

(١) البقرة: ١٩٧.

وإذا لم يكن الإجماع في أول أمره إلا وسيلة لتقرير المسائل التي لم تقررها الأصول الأخرى، فإنه قد أخذ كذلك على مر الزمن يطبع المسائل التي قررتها هذه الأصول بطابع الجزم والتوكيد، ويرجع هذا الشأن الذي للإجماع إلى العصمة عن الوقوع في الخطأ، وهي ميزة خص الله بها المسلمين.

والحديث النبوي الذي يعتبر أساس الإجماع هو: " إن أمتي لا تجتمع على ضلالة"[(١)]، يضاف إليه الآية (١١٥) من سورة النساء التي يتوعد فيها الله من يتبع غير سبيل المؤمنين، والآية (١٤٣) من سورة البقرة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾. (انظر شرح البيضاوي).

ثم قالت أيضًا: وعلى هذا فإنه يكون في مقدور الناس أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننًا لا أن يسلموا بما تلقوه عن طريق آخر فحسب. وقد أصبح بفضل الإجماع ما كان في أول الأمر بدعة (أي فعلة مخالفة للسنة، وبذلك تكون ضلالة) أمرًا مقبولًا نسخ السنة الأولى، فالتوسل بالأولياء مثلًا صار عمليًا جزءًا من السنة، وأعجب من هذا أن الاعتقاد بعصمة النبي قد جعل الإجماع ينحرف عن نصوص واضحة في القرآن، فلم يقتصر الإجماع هنا على تقرير أمور لمتكن مقررة من قبل فحسب، بل غير عقائد ثابتة وهامة جدًا تغييرًا تامًا، وعلى هذا فهو يعتبر

---

(١) أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه، ك: الفتن، باب السواد الأعظم، رقم (٣٩٥٠)، وفي إسناده أبو خلف الأعمي واسمه حازم بن عطاء وهو ضعيف، وقد جاء الحديث بطرق في كلها نظر.

اليوم عن الكثيرين - مسلمين وغير مسلمين - وسيلة فعالة للإصلاح، فهم يقولون إن المسلمين يستطيعون أن يجعلوا من الإسلام ما شاءوا على شريطة أن يكونوا مجمعين على أن الآراء غير متفقة فيما يمكن أن ينتظر للإجماع فجولدتسيهر Goldzihar ص ٩٦ الذي درس تاريخ الإجماع يعتقد أنه يمكن أن يكون له شأن كبير، على خلاف سنوك هرجرونيه الذي يرى أن الفقه قد جمد ولذلك فلا رجاء في الإجماع ا.هـ بنصه.

هذا هو الإجماع عند المسلمين في نظر أصحاب دائرة المعارف، وهو صورة مشوهة للإجماع لا حقيقة الإجماع، وهذه الصورة المشوهة تجعل الشريعة متناقضة، فهي تقرر أصولًا ينقض بعضها بعضًا، فأصل الإجماع قد ينقض الكتاب والسنة، فقد يجمع المسلمون على خلاف ما ورد في الكتاب والسنة، ويقول أصحاب الدائرة إن ذلك قد وقع، فالإجماع قد انحرف عن نصوص واضحة في القرآن، فلم يقتصر الإجماع هنا على تقرير أمور لم تكن مقررة من قبل فحسب، بل غير عقائد ثابتة وهامة جدًا تغييرًا تامًا، وهم يرون أن المسلمين يستطيعون أن يجعلوا من دينهم ما شاءوا بشرط أن يكونوا مجمعين، أي فالإجماع قادر على أن يغير في العقيدة فيجعل من التوحيد تثليثًا مثلًا، ويبدل الفرائض فيزيل ما يشاء ويبقي ما يشاء، فله أن يبطل فرض الحج والصلاة، وبذلك يكون عندهم وسيلة فعالة للإصلاح، فما شرع على نحو معين يمكن الأجيال أن تغيره بإجماعها.

ولا شك في أن هذه الصورة للإجماع تجعل الشريعة متناقضة كما قلنا، وتجعل المسلمين غفلًا أغرارًا يقبلون المتناقضات؛ فهم مع إيمانهم بعصمة الرسول يقبلون الإجماع الذي قد يبطل قول الرسول والكتاب؛ وتجعل الرسول بالموضع الذي يقرر مبدأ ينقض قوله وقول الكتاب معًا.

وأخيرًا تجعل الشريعة الإسلامية سوفسطائية ترى الاعتقاد كذا حقًا ودينًا في عصر ونقيضه حقًا ودينًا في عصر آخر إذا رأى المسلمون أن يبدلوا الاعتقاد الأول ويجعلوا محله نقيضه، ومن غريب الأمر أنهم زعموا أن ذلك قد وقع.

ونحن سنبين هنا حقيقة الإجماع، ونوضح أن هذه الصورة مشوَّهة، ونردها إلى الصورة الحقيقة التي يعلمها المسلمون وقررها علماؤهم فيكتبهم، وإذا عُلِمت هذه الصورة ودرست آثارها في الإسلام لم ير فيها هذه اللوازم الفاسدة، ولم يوجد لها هذه الآثار التي يزعمها هؤلاء المستشرقون.

فأولًا-إن أصحاب الدائرة قالوا: الإجماع أحد الأصول الأربعة التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، وهذا خطأ وخلط بين ما ينبني عليه الأحكام الفرعية العملية وما ينبني عليه الأحكام الأصلية الاعتقادية، فالأصول الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، لم يذكرها علماء الأصول على أنها أصول للعقائد، وإنما ذكروها أصولًا للأحكام الفرعية العملية، ولذلك لم يقل أحد إن القياس يثبت به

عقيدة أصلية، وإنما قالوا القياس تثبت به عقيدة أصلية، وإنما قالوا: القياس تثبت به الأحكام الفرعية العملية.

ثانيًا – إن أصحاب الدائرة عرفوا المجتهدين بأنهم هم الذين لهم الحق بفضل ما أوتوا من علم أن يقرروا حكمًا برأيهم. وهذا تعريف واسع، لأن الرأي قد يكون عن دليل من القياس على ما ثبت به بالكتاب والسنة، وقد يكون عن غير دليل من ذلك، ولا شك أن المجتهد هو الذي له الحق بفضل ما أوتي من علم أن يقرر حكمًا باجتهاده بالقياس على ما ثبت بالكتاب أو السنة، وليس له أن يقرر حكمًا برأيه مجردًا عما يدل عليه من أحد الأدلة الأربعة آنفة الذكر، وهذا التوسع في معنى المجتهدين قصد إليه أصحاب الدائرة ليتأتى لهم ما بنوه عليه من أنه يكون في مقدور الناس أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننًا.

ثالثًا – أنهم يرون أن الإجماع لم يكن في أول أمره إلا وسيلة لتقرير المسائل التي لم تقررها الأصول الأخرى. هذا الرأي الذي اختاروه ليس مختارًا عند الأصوليين، إذ المختار عندهم أن الإجماع لا يكون إلا عن مستند من الأصول الثلاثة الأخرى واستدلوا على ذلك بأن الإجماع عن غير مستند يستلزم الخطأ فتجتمع الأمة على الخطأ، وهو مخالف لقوله ﷺ: " لا تجتمع أمتي على ضلالة " وبأن اتفاق الكل لا لداع من مستند يستحيل عادة كالاجتماع على أكل طعام واحد.

وإذا كان الإجماع لا يكون إلا عن مستند من الكتاب أو السنة أو القياس، بطل زعمهم أن في مقدور الناس أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننًا، كما بطل قولهم: قد أصبح بفضل الإجماع ما كان في أول أمره بدعة أمرًا مقبولًا نسخ السُّنَّة الأولى.

على أننا سنجاريهم ونسلم جدلًا تلك الصورة المشوهة للإجماع، ونقول: إنه مع هذا التسليم لا يلزم ما ذكروه من أن في مقدور المسلمين أن يخلقوا بطريقة تفكيرهم وأعمالهم عقائد وسننًا، وأن المسلمين يستطيعون أن يجعلوا من الإسلام ما شاءوا على شريطة أن يكونوا مجمعين، وذلك لأنهم قالوا في صفحة ٤٣٩: "وكان اجتماع الصحابة بطبيعة الحال أمرًا مأخوذًا به عند الأجيال اللاحقة بصفة قطعية " وهذا يشير إلى ما قاله الأصوليون من أن إجماع أهل عصر على حكم ملزم للعصور اللاحقة لا يجوز لهم أن يخالفوه. وإذا كان ذلك كذلك بطل ما قالوه من أن المسلمين أن يجعلوا من الإسلام ما شاءوا بشرط أن يكونوا مجمعين، ومن أن الإجماع قد جعلهم ينحرفون عن نصوص واضحة في القرآن، وإنما بطل ذلك لأن العقائد الإسلامية قد تقررت وأجمع عليها في العصور السابقة، وإجماع العصور السابقة ملزم للعصور اللاحقة، فلا يجوز أن يجمعوا على خلافها.

على أن هذا اللازم الذي ذكروه وهو أنه يمكن أن يجعل المسلمون من دينهم ما شاءوا بشرط أن يكونوا مجمعين إنما يتصور إذا فرض أن هؤلاء المجمعين غير



مسلمين، فهم يقررون من العقائد والأحكام ما شاءوا ولو ناقضت الكتاب والسنة، ولكننا إذا راعينا شروط المجمعين وهي أن يكونوا مسلمين عارفين بالكتاب والسنة والقياس لم يتصور منهم ما ذكروه، لأنه لا يتصور من مسلم أن يناقض الكتاب والسنة برأيه فضلًا أن يجمع عليه المجتهدون، وزعمهم أن الإجماع انحرف عن نصوص واضحة في القرآن وغير عقائد ثابتة وهامة جدًا تغييرًا تامًا، زعم لا دليل عليه، وهم مطالبون بذكر مثال واحد من ذلك لتناقضهم فيه.

وأما زعمهم أن التوسل بالأولياء بفضل الإجماع صار عمليًا جزءًا من السنة فزعم غير صحيح لأن مسألة التوسل بالأولياء لا تزال مسألة خلافية لم يحصل فيها إجماع، ولم يستدل أحد المخالفين بالإجماع فيها، بل مناط الاستدلال بين الفريقين ظواهر من الكتاب والسنة.

ومن المفيد جدًّا أن نذكر هنا المعلومات الآتية:

قد علم الله تعالى ما يفعل الزمن وتطاول العهد بالعقائد والأديان من تغيير وتبديل، وما تفعله الأهواء والأغراض بها من نسخ وتحوير، فوضع من الأصول والقواعد في الشريعة الإسلامية ما يمنع وقوع مثل هذا في قواعدها وأصولها، فبين أن أصول الدين واحدة في جميع الأديان ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾[1]، وحذَّر من الابتداع ومخالفة السنة،

(١) آل عمران: ١٩.

وإحداث شيء في دين الله لم يكن فيه، وكتمان شيء منه، وتغيير أو تبديل أصوله. وقد نطق الكتاب الكريم بذلك في غير ما آية، والسنة النبوية طافحة بمثله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، وروي عن أبي وائل عن عبد الله قال: خط لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًا طويلًا فقال: هذه سبيل الله. ثم خط لنا خطوطًا عن يمينه ويساره، وقال: هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[3].

وروى ابن وهب أن النبي ﷺ أتي بكتاب في كتف، فقال: كفى بقوم حمقًا – أو قال: ضلالًا – أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى غير نبيهم، أو كتاب إلى غير كتابهم،

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود، رقم (٤١٤٢)، وإسناده حسن، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) الأنعام: ١٥٩.

فنزلت: " ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[(١)].

وقال ﷺ: "من رغب عن سنتي فليس مني"[(٢)] ثم تلا هذه الآية " ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٣)]، وورد في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها " من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد"[(٤)]، وخَرَّجَ مسلم عن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[(٥)]، وروى الترمذي وصححه وأبو داوود وغيرهما عن العرباض بن سارية قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، بَابُ مُخْتَصَرٌ فِي مُطَالَعَةِ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالرِّوَايَةِ عَنْهُمْ، رقم (١٤ ٨٥) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، (٢/ ٨٠٠). والحديث من المراسيل

(٢) أخرجه الإمام ابن خزيمة في صحيحه، ك: الوضوء، باب بَابُ التَّغْلِيظِ فِي تَرْكِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ رَغْبَةً عِنَ السُّنَّةِ، رقم (١٩٧)، وإسناده صحيح.

(٣) آل عمران :٣١.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ك: الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، والإمام مسلم في صحيحه، ك: الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، ك: الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث (٨٦٧).



ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

وعن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: "إن أحببت ألا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين الله حدثًا برأيك "(٢).

وقال: " من اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني "(٣)

وقد رسخت هذه الأصول والقواعد عند الأئمة والمجتهدين، فنطقوا بها في أقوالهم وآثروها في أعمالهم، قال ابن الماجشون: سمعت مالكًا يقول: " من ابتدع في

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، ك: السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والإمام الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح.

(٢) اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ -١٩٩٦م، (١/ ٢٠٣) قال: لا يصح، أبو همام محمد بن محبب قال يحيى: كذَّاب، وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث.

(٣) أخرجه عبد الرازق في مصنفه (١٠ / ٢٩١)، باب الرخص في الأعمال والقصد.

الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: اليوم أكملت " فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا "[(١)].

وكان إبراهيم التيمي يقول: " اللّٰهم اعصمني بدينك وبسنة نبيك من الاختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى، ومن سبل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ في الخصومات "[(٢)].

ولما بايع الناس عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ نَبِيٌّ، وَلَا بَعْدَ كِتَابِكُمْ كِتَابٌ، وَلَا بَعْدَ سُنَّتِكُمْ سُنَّةٌ، وَلَا بَعْدَ أُمَّتِكُمْ أُمَّةٌ، أَلَا وَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ حَلَالٌ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَا وَإِنَّ الْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ حَرَامٌ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ، أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِقَاضٍ وَلَكِنِّي مُنَفِّذٌ، أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِخَازِنٍ وَلَكِنِّي أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ، أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِخَيْرِكُمْ وَلَكِنِّي أَثْقَلُكُمْ حِمْلًا. أَلَا وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ "[(٣)].

---

(١) الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، (١/ ٦٤).

(٢) الاعتصام، (١/ ١١٦).

(٣) الاعتصام، (١/ ١١٦).

هذا قليل من كثير، وغيض من فيض، فالأمة التي حذرت من أن تحدث في دين الله شيئًا وقال الله لها: " اليوم أكملت لكم دينكم " وأشربت ذلك في قلوبها، واختلط بلحمها ودمها، لا يعقل أن يجتمع مجتهدوها على أن يهدموا عقائدهم، وأن يبتدعوا عقائد جديدة في دين الله، وأن يجعلوا من دينهم ما شاءوا بشرط أن يكونوا مُجْمِعِين.

لعل القارئ يرى من هذا أن الإجماع الذي صوره أصحاب دائرة المعارف ليس هو إلا صورة خيالية مشوهة لا يتفق مطلقًا مع ما قررته الشريعة السمحة ولا مع آراء علماء الأصول، فجميع اللوازم والفروع التي بنوها على هذه الصورة ليس لها أي ظل من الحقيقة.

أما الإجماع على حقيقته عند المسلمين فلا يلزمه أي شيء من تلك اللوازم الباطلة وليس فيه أدنى خطر ولا أقل عيب.

وسأوافي القراء بما وجدته من مآخذ أخرى، والله المعين.

دائرة المعارف الإسلامية

رأيها في أبي هريرة [(١)]

للمستشرق جولدتسيهر[(٢)] رأي في الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه نشره في العدد السابع من المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية.

هذا الرأي لا يستند إلى بحث تاريخي، ولا سند علمي، ونحن نود أن ننقل ما قاله هنا ونعقب عليه بما يبين زيفه، ويظهر داخله.

قال جولدتسيهر في ص ٤١٨ من العدد المذكور، في شأن أبي هريرة ما نصه: "وتظهرنا طريقة روايته للأحاديث التي ضَمَّنَهَا أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر على ما امتاز به من روح المزاح ؛ الأمر الذي كان سبباً في ظهور كثير من القصص (ابن قتيبة، طبعة فستنفلد ص ١٤٢) ويظهر أن علمه الواسع بالأحاديث التي كانت تحضره دائمًا (تشغل الأحاديث التي رواها أبو هريرة أكثر من ٢١٣ صفحة في مسند ابن حنبل: ج٢ ص ٣٢٨- ٥٤١) قد أثار الشك في نفوس الذين أخذوا عنه

---

(١) مجلد الأزهر، المجلد الخامس، ص ٦٣٩ – ٦٤٦، ونظرًا لأهمية المقال وشمولية مادته العلمية، فقد نقله بكامله محققو كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البر، ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) جولدتسيهر: مستشرق مجري يهودي ولد ١٨٥٠م، رحل إلى سوريا ١٨٧٣م، وفلسطين، مصر ١٨٧٣م، من أشهر مؤلفاته: العقيدة والشريعة في الإسلام، توفي ١٩٢١م. المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦ م، (٣/ ٤٠ – ٤١).

مباشرة، والذين لم يترددوا في التعبير عن شكوكهم بأسلوب ساخر (انظر أيضًا البخاري، فضائل الأصحاب رقم ١١) وقد اضطر أحيانًا أن يدفع عن نفسه تَقَوُّلَ الناس، كل هذه الظروف تجعلنا نقف من أحاديث أبي هريرة موقف الحذر والشك، وقد وصفه شبرنجر [(١)] (بأنه المتطرف في الاختلاق ورعًا)، ويجب أن نلاحظ هنا أن كثيرًا من الأحاديث التي تنسبها الروايات إليه إنما قد نُحِلَتْ عليه في عصر متأخر "ا. هـ.

وهذا القول في أبي هريرة يتضمن طعونًا عدة، وكلها تدور حول عدم أمانته في نقل الأحاديث، فقد ذكر جولدتسيهر أنه مختلق ومسرف في الاختلاق، وأنه كان يفعل ذلك بداعي الورع، وأن الذين أخذوا عنه مباشرة قد شكوا فيما ينقل، وعَبَّرُوا عن هذا الشك بأسلوب ساخر، وأنه كان يُضَمِّنُ أحاديثه أتفه الأسباب بأسلوب مؤثر، وذلك يدل على روح المزاح التي كانت فيه والتي كانت سببًا في ظهور كثير من القصص، وصاحب هذه المطاعن يعزو مطاعنه إلى كتب إسلامية ليلقي عليها ثوبًا خلابًا ليوقع في رُوع الناس أنها صحيحة، وهذه طريقة فيها كثير من الخدع واللبس والتزوير. وسنميط اللثام عما فيها وبالله التوفيق:

---

(١) لويس اشبرنجر :Sprenger Aloys مستشرق نمساوي، ولد ١٨١٣م. وتجنس بالجنسية البريطانية، ونال الدكتوراه في الطب بعنوان (أصول الطب العربي على عهد الخلفاء)، اشتغل في مدرسة دهلي ومطبعة كالكوتا في الهند عام ١٨٤٢، واشتهر بكتابه عن حياة النبي محمد، وتوفي ١٨٩٣م. المستشرقون، نجيب العقيقي، (٢/ ٢٧٧).



إن أبا هريرة الذي يجرحونه هذا التجريح ويسيئون إليه هذه الإساءة، هو من جلة الصحابة ومن أوسعهم رواية، بل هو أوسعهم رواية لا مستثنيًا أحدًا إلا ابن عمر، وتجريح هذا البحر الذي مُلِئ علمًا وأدَّاه إلى من حملوه عنه وأدوه إلى من بعدهم حتى وصل إلينا، تجريح لهذا العلم الغزير، ورفع للثقة عن كل مروياته، وفي هذا فساد كبير، ولو كان لهذا الطعن وجه من الصحة لاحْتُمِل، ولكنه طعن باطل لا حق فيه.

هذا الإمام قد روى عنه ثمانمائة من أهل العلم كما قال البخاري، وهذا فيه الدلالة على ثقتهم به، لأنهم لو لم يثقوا به لما رووا عنه، وهو ثبت ثقة عند الصحابة وأهل الحديث.

قال ابن عمر: أبو هريرة خير مني وأعلم بما يُحَدِّث[(١)].

وقال طلحة بن عبيد الله أحد العشرة: ولا شك أن أبا هريرة سمع من رسول الله ما لم نسمع[(٢)]، وروى النَّسَائي أن رجلًا جاء إلى زيد بن ثابت فسأله عن شيء، فقال زيد: عليك أبا هريرة، فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى ونذكره إذ خرج علينا النبي ﷺ حتى جلس إلينا فسكتنا، فقال عودوا للذي

---

(١) تهذيب التهذيب في رجال الحديث، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ٢٠١٣م، (٧/ ٥٢٦).

(٢) المرجع نفسه، (٧/ ٥٢٦).

كنتم فيه، قال زيد فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة وجعل رسول الله ﷺ يوافق على دعائنا، ثم دعا أبو هريرة فقال: اللّٰهم إني أسألك ما سألك صاحباي وأسألك علمًا لا يُنْسَى، فقال رسول الله ﷺ: آمين. فقلنا: يا رسول الله ونحن نسأل الله تعالى علمًا لا يُنسى، فقال: سبقكم بها الغلام الدوسي[1].

وكان كثير الحفظ، شديد الضبط، شهد له بذلك أهل العلم والثقات، قال الشافعي أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره.

وحدث الأعمش عن أبي صالح قال: كان أبو هريرة أحفظ أصحاب محمد ﷺ، وقال أبو الزعيزعة كاتب مروان: أرسل مروان إلى أبي هريرة فجعل يحدثه وكان أجلسني خلف السرير أكتب ما يُحَدِّثُ به حتى إذا كان في رأس الحَوْلِ أرسل إليه فسأله وأمرني أن أنظر، فما غَيَّرَ حرفًا عن حرف. إلى غير ذلك مما لا نطيل بذكره، فمن أراده فليطلع على كتب الرجال.

هذه آراء الثقات أصحاب هذا الشأن فيه، فمن عدلوه فهو الثبت الذي لا يجرح، ومن بهرجوه فهو الزائف الذي لا يعدل، ومن حظي بمثل هذا الثناء من هؤلاء العلماء الأفاضل والجلة الأماثل فلا يضيره ما يقال بعد ذلك فيه.

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانًا عليَّ لئامها

(١) أخرجه الإمام النسائي، ك: العلم، باب فضل العلم، مسألة علم لا ينسى، حديث رقم (٥٨٣٩).

وكان بحسبنا هذا الإجمال فيه، ولكن لا بد لنا من أن نعرض لهذه الشُّبَهِ التفصيلية التي أثاروها ونُفَنِّدُهَا:

لقد زعم أصحاب الدائرة أن علمه الواسع بالأحاديث أثار الشك في نفوس الذين أخذوا عنه مباشرة فلم يترددوا في التعبير عن شكوكهم بأسلوب ساخر. ثم أحالوا القارئ على البخاري في كتاب فضائل الأصحاب رقم ١١.

وهم يريدون بهذا ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي سعيد المقبري أن أبا هريرة قال: إن الناس كانوا يقولون أكثر أبو هريرة وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني حتى لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان وفلانة وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع – إلى آخر الحديث.

هذا هو الأثر الذي في البخاري، والذي أراد أصحاب الدائرة أن يمتطوه للطعن على أبي هريرة، والمنصف يرى من هذا الأثر أن بعض الناس قال: أكثر أبو هريرة تعجبًا من كثرة حفظه وروايته، وحق لهم أن يعجبوا، لأن أبا هريرة صحب النبي ﷺ نحوا من ثلاث سنين فقط وأكثر الرواية عنه. والمتعجب من شيء يحتاج إلى بيان السبب، فإذا ظهر السبب بطل العجب، وقد أظهر لهم السبب في كثرة روايته وحفظه، وهو أنه كان ألزم الناس لرسول الله، وأنه ما كان يعنيه الغنى وإنما كان يعنيه الأخذ عن رسول الله، وكان يلصق بطنه بالحصباء من الجوع، وما كان يشغله

عن رسول الله تجارة ولا زراعة، فحفظ ما لم يحفظوا، وسمع مالم يسمعوا، فلما بَيَّن لهم السبب سكتوا عنه.

ولْنُسَلِّمْ ما زعمه أصحاب الدائرة من أن الناس حين قالوا أكثر أبو هريرة كانوا شاكين في روايته لا متعجبين، ولكن المطلع على تاريخ الواقعة يرى أنهم لما أظهر لهم ما أعانه على الحفظ سكتوا عنه وتركوه يحدث وأخذوا عنه، ولو استمر شكهم لما تركوه يُحدِّث وأخذوا عنه، وهذا الأثر يدل على عناية أصحاب الرسول ﷺ بحديث رسول الله وتحريهم فيه، وما كان يمنعهم في سبيل التحري والضبط مانع، فإنهم لما استقلوا زمن صحبة أبي هريرة واستكثروا ما يرويه على هذه المدة لم يمنعهم ذلك من أن يجاهروا أبا هريرة بما في نفوسهم، فلما بين لهم سببًا معقولًا اقتنعوا بما قال، وتركوه يروي عن رسول الله وأخذوا عنه ولم يمنعوا أحدًا من الأخذ عنه، وكان علي رضي الله عنه إذا حدَّثَه مُحَدِّثٌ عن رسول الله ﷺ استحلفه فإن حلف له صَدَّقَه.

فإذا كان أصحاب الدائرة من أخذوا من هذا الأثر أن أخذوا عن أبي هريرة مباشرة شكوا فيه وعبروا بأسلوب ساخر، أفما كان يجب أن يأخذوا من تركهم إياه يحدث بعد ذلك مدة عمره – وقد عمَّر بعد رسول الله ﷺ نحوا من خمسين سنة – أنهم اقتنعوا بتعليله، وزالت هذه الخلجة من نفوسهم لما بين لهم من السبب في كثرة حفظه وحسن ضبطه ؟ ونحن نعلم من الوقائع بين أبي هريرة وبين عمر وعثمان



وعلي وعائشة أكثر مما يعلمه جولدسيهر، ولكننا نستقري روح التاريخ فنعلم أنهم وثَّقُوه إذ لو كانوا يرون في حديثه بأسا لكفوه عن التحديث ولباعدوا بينه وبين الناس، وهم من نعلم في المحافظة على حديث رسول الله، وفي الخوف أن يتسع الناس فيه ويدخله الشوب ويقع فيه التدليس والكذب.

وأما زعمهم أن روايته ضمنها أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر، وذلك يدل على ما امتاز به من روح المزاح، الأمر الذي كان سببا في ظهور كثير من القصص، وعزوهم ذلك إلى ابن قتيبة، فليس شيء أوغل في التضليل والإبهام من هذا.

نحن لا نعلم ابن قتيبة قد نسب إلى أبي هريرة شيئا من ذلك، ولا نعلمه إلا مدافعا عنه مبينا صدقه وأمانته، رادا على من انحرف عن سبيل القصد فيه كالنظَّام.

ولو شئنا لذكرنا ما قام به ابن قتيبة من تشييد بذكر أبي هريرة وثناء عليه وإجلال وإعظام له، ولكن المقام لا يتسع لذلك. فنحيل القارئ على كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٤٨ وما بعدها.

ولا ندري ما هي الأحاديث التي ضمنها أتفه الأشياء والتي كانت سببا في ظهور كثير من القصص، وكان يجب على أصحاب الدائرة أن يبينوها لنا لنناقشهم فيها، وكان يجب عليهم إذ عزوا إلى ابن قتيبة أن يسموا الكتاب الذي لابن قتيبة، فإن لابن قتيبة مؤلفات كثيرة وقد طبع منها شيء كثير.

فلو عزوا إلى كتاب معين لرجعنا إليه، ويقيننا أننا كنا نبين لهم أن ما في ابن قتيبة ليس كما فهموه؛ إذ لا يغفل أن يثني ابن قتيبة الثناء المستطاب على أبي هريرة ثم ينسب إليه ما ذكره أصحاب الدائرة.

وأما ما نقلوه من وصف شبرنجر لأبي هريرة بأنه المتطرف في الاختلاق وَرَعًا، فلسنا ممن يؤمن بقول شبرنجر وغير شبرنجر من المتطرفين في الاختلاق على أصحاب رسول الله ﷺ تضليلا للمسلمين وتشويشا على الدين وإيذاء للحقيقة وسترا للواقع وكان بحسبنا أن نقول: هذا طعن لا مبرر له وتجريح لا يستند على سند.

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء[(١)]

ولكننا سنبين هنا طبيعة عقلية أبي هريرة، وأنه يستحيل عادة أن يكون صاحب هذه الطبيعة كذَّابًا ومُخْتَلِقًا على الرسول وهذا بحث نفسي نراه ينفع في مثل هذا الموضوع: إن أبا هريرة كان من الدين والورع بمكان عظيم؛ فقد روى عن أبي عثمان النهدي قال: تَضَيَّفْتُ أبا هريرة سبعا فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثا: يصلي هذا، ثم يوقظ الآخر فيصلي، ثم يوقظ الثالث، ورُوى أنه كان له خيط فيه ألف عقدة لا ينام حتى يُسَبِّحَ به.

(١) الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية على متن الهمزية في مدح خير البرية للبوصيري، على حرازم بن العربي التيجاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٥م، ص ٢٥١.



ومن كان بهذه المكانة من الدين والورع والايمان لا يجرؤ على أن يرتكب كبيرة الكذب على رسول الله ويصر عليها إلى أن يموت مع أنه يعلم أن الكذب عليه موجب لإفساد الدين وإدخال ما ليس منه فيه.

وقولهم إنه المتطرف في الاختلاق ورعا كلام متهافت؛ لأنا لا نعلم الورع إلا مانعا من الاختلاق على الناس فضلا عن الاختلاق على رسول الله وكيف يختلق أبو هريرة على رسول الله وهو راوي حديث «من كذب عَلَيَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وكان يبدأ بهذا الحديث عندما يريد أن يحدث! فرجل سمع من فِيِّ رسول الله ﷺ هذا الحديث ووعاه وأَدَّاه وكان يستذكره ويذكر به ويقدمه أمام تحديثه عن رسول الله ﷺوهو مؤمن ورع تقي، يستحيل في العادة أن يكذب على رسول الله فضلا عن أن يتطرف في الكذب عليه وأن يرى أن الاختلاق والكذب عليه دين وورع.

وأما قولهم إن كثيرا من الأحاديث التي عزيت إلى أبي هريرة نُحِلَتْ عليه في عصرٍ مُتَأَخر فنحن نُسَلِّمُ أن أحاديث كثيرة وُضِعَتْ وَعُزِيَتْ زورا إلى أعاظم المحدثين مثل أبي هريرة ولكن رجال نقد الحديث قد عنوا ببيان الموضوع منها وبهرجوا الزائف ولم يخف عليهم بطله وأفسدوا على الوضَّاعِينَ طريقهم.

ويظهر أن رجال دائرة المعارف الإسلامية لهم غرض في أن يُشَوِّهُوا الرجال الذين للمسلمين فيهم اعتقاد حسن ويوقعوا الشك والارتياب في نفوسهم منهم فقد

عَرَّضُوا بعفة السيد أحمد البدوي إذ قال فولزر فيها وأنا الآن أميل إلى الاعتقاد بأن النضال الذي ذكرناه بين أحمد البدوي وفاطمة بنت بري والذي لم يُفَسَّر بَعْدُ، أعمق من أن يكون قاصرا على ترويض امرأة بدوية جامحة.

وطعنوا في شخصيته وعقله وعلمه فقالوا:

ويؤخذ من سلوك أحمد البدوي أنه كان من طبقة الدراويش الدنيا الذين هم أشبه شيء بطائفة اليوجا في الهند كما كانت شخصيته ضئيلة القدر من الوجهتين العقلية والأدبية إلى آخر ما قاله أصحاب الدائرة.

ومن قرأ تاريخ السيد أحمد البدوي علم أنه كان كثير العبادة كثير الصمت لا يفصح عما يجول في خاطره إلا إشارة معتزل الناس كثير الصيام وكان هو وأصحابه يلزمون السطوح لعبادتهم حتى لُقِّبُوا بالسطوحية وكان دائم الوله بالله.

ومن كان في هذه الحال من التقشف والزهد ارتدت عنه سهام المستشرقين خائبة ونبت عنه مضاربهم وكان معهم كما قال الشاعر:

وإنا وما تلقي لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق[1]

وبعد فإذا كان أصحاب دائرة المعارف قد ألَّفُوهَا لغرض أن تكون صورة صحيحة للمعارف الإسلامية فما أبعدها عن أن تكون كذلك وما أبعدهم فيها عن نيل هذا

---

(١) البيت منسوب لزياد الأعجم. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ١٤٣.



الغرض وإذا كانوا قد أَلَّفُوهَا لغرض تقبيح حال المسلمين في نظر الغربيين وتشويش عقائد المسلمين وفتنة الشباب في دينهم فهي صالحة لهذا الغرض مؤدية له.

وإني لأرتعد فَرَقًا كُلَّمَا فَكَّرْتُ في أن هذه الدائرة ستنشر وستصبح مرجعا للشبان المتعلمين تعليما مدرسيا فيما يريدون من معلومات عن الاسلام والمسلمين.

لو أن أمام الناس دائرة معارف إسلامية حَرَّرَها رجال يُعْتَمَدُ عَلَيْهِمْ في نقل المعارف الاسلامية الصحيحة وكانت بلغة في متناول الجمهور لكان ضرر نشر هذه الدائرة أقل.

أما وليس أمام الناس مثل هذه الدائرة والكتب الإسلامية فيها صعوبة على غير الذين لم يزاولوها ولم تكتب بالطريقة العصرية السهلة التي توافق روح هذا العصر وهي مُفَرَّقَةٌ غير مجتمعة فليس أمام شبان هذا العصر والعصور الآتية مرجع عن المعلومات الإسلامية إلا هذه الدائرة وفيها من الأغلاط ما قد ذكرنا بعضه

وقد فكرت كثيرا في ملافاة أو تقليل بعض هذا الضرر فهداني البحث إلى أن خير طريق تتبع الآن - إذا كان لابد من نشر هذه الدائرة - أن يُضم عالمٌ أو عالمان إلى مترجمي الدائرة فيَطَّلِع على الترجمة قبل طبعها وكُلَّما رأى فسادا في المعلومات وضع المعلومات الصحيحة في صلب دائرة المعارف معزوة إلى صاحبها فنحصل بذلك أمرين :

أولهما: الأمانة في النقل.

ثانيهما: تصحيح المعلومات للأجيال الحضرة والمستقبلة.

الكتب الفلسفية
وما اعتراها من تحريف الوراقين
وسبيل إصلاحها [1]

في مصر الآن نهضة لإحياء كتب الفلسفة والعلوم القديمة، تقوم بذلك وزارة المعارف إذ قررت أن يُطبع كتاب «الشفاء لابن سينا» وسائر كتبه المنطقية والرياضية والإلهية والأخلاقية احتفالًا بذكرى مرور ألف سنة على وفاته، ويقوم بذلك بعض دور النشر وبعض الأفراد كالأستاذ عبد الرحمن بدوي[2]، إذ نشر من كتاب المنطق لأرسطو خمسة كتب: المقولات، والعبارة، والقياس، والبرهان، والجدل، ويقوم به أيضًا في خارج مصر بعض المستشرقين كالأب بويج[3] إذ نشر تهافت الفلاسفة للغزالي، وتهافت التهافت لابن رشد، وتفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد أيضًا، وبعض كتب أخرى، وهذه جهود تشكر لهم؛ لأنهم يعانون الأَمَرَّين من

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء الرابع، ص ٤٢٤-٤٢٩، غرة ربيع الثاني ١٣٧٢هـ / ١٩ ديسمبر ١٩٥٢م.

(٢) أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين وأغزرهم إنتاجا، إذ شملت أعماله أكثر من مائة وخمسين كتابا تتوزع ما بين تحقيق وترجمة وتأليف، ولد في ٤ فبراير ١٩١٧، وتوفي في ٢٥ يوليو ٢٠٠٢م. انظر: سيرة حياتي، د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.

(٣) الأب بويج (١٨٧٨-١٩٥١م) P.M. Bouyges ولد في أوفرني، وانضم إلى الرهبانية، وتخرج في الكلية الشرقية ببيروت ثم سمي أستاذًا فيها (١٩٠٦م) واشترك في تحرير مجلاتها. معجم أسماء المستشرقين، د. يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ص ١٨٧.

هذه الكتب الخطية القديمة، لأنها رديئة الرسم أحيانًا وغريبة الاصطلاح أحيانًا، وقد يكون عدا عليها الدهر فأكلتها الأَرَضَةُ، أو أصابها بَلَلٌ فمحا بعض سطورها، وإن أحدهم ليبحث عن النُّسَخِ المتعددة من الكتاب الواحد في العالم فينسخها أو يصورها، ويقابل بعضَهَا ببعض ويبين مواضع الاختلاف في مطبوعه وهذا جهد ليس بالقليل فهو مُضْنٍ وفوق الطاقة، يُقِرُّ بذلك من كابد بعض الكتب الخطية القديمة.

وإنني أذكر أنني علمت أن جامعة فؤاد الأول استحضرت صورًا من كتاب المنطق لأرسطو عن مخطوط بباريس، فذهبت إلى كلية الآداب، وحاولت أن أنتفع به، فلم أفلح لرداءة خَطِّه وطَمْسِ سُطوره، وقيل لى: إن التصوير غيرُ متقن، فما هو إلا أن رأيته بعد ذلك بإخراج الأستاذ عبد الرحمن بدوي مطبوعًا طبعًا أنيقًا، وعلى ورق مصقول فأخذت أقرأ لا تعييني القراءة، فكم من يد أسداها لمحبي العلم، وكم من يد يسديها الناشرون، وكم يد تسديها وزارة المعارف بتذليل الكتب العلمية القديمة، وتيسيرها للقارئين والدارسين، لقد ذكرنا أنهم لم يألوا جهدًا في تيسيرها للقارئين فهم يحرصون بأمانة على أن يجعلوا المطبوع صورة مطابقة للأصل من المخطوط، وإن كانت هناك نسخ متعددة بينها اختلاف بينوه، ولكن هناك معضلة في هذا الإحياء كله ليست معضلة كتاب واحد وإنما هي معضلة الكتب جميعًا، ذلك أن هذه النسخ الخطية قد اعتراها المسخ والتشويه والتبديل، فالمؤلف أو

المترجم يخرجها صحيحة مبرأة من العيب، ولكن الحاجة تقضي بأن تعم وتتداول فينسخ منها ناسخ، فيصحف كلمًا ويسقط كلمًا ويزيد كلمًا، وتصبح نسخته هذه إمامًا فينسخ منها ناسخ فيعتريه ما يعتري الأول فيقع في خطئه ويزيد عليه مثل أو أكثر، مما صنع الأول، وهكذا تتعاوره النُّسَّاخ ويتداوله الوَرَّاقُون حتى يعود خطأ بحتًا وباطلًا صرفًا.

فإذا حافظ الناشرون على أوضاع هذه النسخ فهم يحافظون على الخطأ، ويتحرون الفاسد، وكثرة ما يطبع من هذا القبيل، وإنه في الكتب الفلسفية العلمية أكثر، وفي الكتب الدينية والأدبية أقل، ذاك لأنه هذه قد اتصل سندها وكثرت العناية بها، فكانت تقابل وتدرس وتتحرى حتى جاءت أقل خطأ وتحريفًا أما الفلسفة فقد انقطع سندها وقَلَّ المشتغلون بها، وكان الناسخون لكتبها يجهلون ما فيها، ومن هنا وقع النسخ والتغيير والتبديل والتحوير.

وإني أريد أن أمثل لما قلته بكتاب المنطق لأرسطو الذي أخرجه الأستاذ بدوي، لقد ذكرت أنه قام بجهد عنيف مشكور حين أخرجه، وحين أبرز هذه النسخة القديمة البالية، في هذا الثوب القشيب.

لقد عكفت على قراءته فلم أفهم، وعاودت القراءة فلم أفهم، فأنكرت نفسي أولًا، ثم أنكرت النسخة ثانيًا واتهمتها بالتحريف، فقرأت على أن لا أتَّبع الألفاظ ولا أتقيد بالكلمات، وإنما أفهم من السطور ومِنْ بين السطور، وأستخلص المعنى من

مجموع الكلام، فإذا ما استوى لي ذلك، بحثت عما كان يلزم من الألفاظ لتستوي العبارة، فإذا التصحيف تارة، وإذا الحذف تارة، وإذا الزيادة تارة أخرى، فإذا ما كَمُل ذلك في الباب أو الفصل سَهُلَ فَهْمُه، وعَذُبَ مَوْرِدُه، لا إغلاق فيه ولا إلغاز، وسأمثِّل:

ورد في نسخة المنطق المطبوعة ص ٣١٠ في أوائل كتاب البرهان: «وقد تجب ضرورة ما يقدم فيعرف على جهتين، فبعضها تحتاج من الضرورة إلى أن تتقدم فتتصور أنها موجودة، وبعضها الأولى أن تفهم على ماذا يدل القول، وبعض الأشياء قد تدعو الضرورة إلى أن يتقدم فيعرف من أمرها كلا الصنفين».

وهذه عبارة تجدها قلقة مضطربة لا تكاد تفهم فإذا علمت أنه يريد أنه يقسم مبادئ البرهان التي يجب أن تعرف قبل البرهان إلى ثلاثة أقسام: الأول ما يجب التصديق بوجوده، والثاني ما يجب تصور ما يدل عليه اللفظ، والثالث ما يجب فيه الأمران جميعًا، علمت ما في العبارة من تصحيف وإن كان حقها: «وقد تجد ضرورة ما يقدم فيعرف على جهتين فبعضها يحتاج من الضرورة إلى أن يتقدم فيتصور أنها موجودة، وبعضها إلى أن تفهم فيها على ماذا يدل القول».

فانظر كيف وقع التحريف فَسَدَّ طريق الفهم فلما أُصْلِحَ تَيَسَّرَ فهمه، وورد في ص ٣١٣: «وأما البرهان من أوائل غير مبرهنة فذلك أنه لم يكن فذلك أنه لم يكن يوجد

السبيل إلى أن تُعْلَم إذا لم يكن عليها برهان، وذلك معنى أن تعلم الأشياء التي عليها برهان لا بطريق العرض إنما هو أن تَقْتَنِيَ البرهانَ عليها».

فإذا علمت أنه يريد بهذا أن يبين أن البرهان لابد إلى أن ينتهي إلى أوائل ليس عليها برهان، لأنه إذا كان عليها برهان لم يمكن أن تعلم إلا به، فتسلسل والتسلسل محال، أدركت في العبارة تصحيفًا وأنه يجب أن يقال بدل إذا لم يكن عليها برهان: إذا لم يُقْتَنَ عليها برهان.

وقد تجد تصحيف الكلمات من فتح حرف فيها إلى كسرة يجعل العبارة مغلقة لا تفهم، فإذا فتح الحرف بعد كسرة عرف ما يراد منها كما ورد في الصفحة نفسها: «وأما أنه أقدم فإن كانت عللًا» بكسر همزة فإن – وإذا كانت عللًا فماذا؟

فإذا علمت أن أرسطو يشترط في مبادئ البرهان أن تكون أقدم من النتيجة، واستدل على ذلك بأن المبادئ يجب أن تكون عللًا لما قدمه، فيلزم أن تكون أقدم، لأن العلة أقدم من المعلول، علمت أن حق العبارة «وأما أنها أقدم فأن كانت عللًا»، بفتح همزة (فإن) أي فلأن كانت عللًا».

ومثال التحريف بالنقص ما ورد في ص ٤٦٢: «وأما أن العلم الذي يعتبر بغير ذوات وسط أترى هو واحد بعينه أم ليس كذلك».

وفى العبارة نقص وحقها: «وأما أن العلم الذي يغير ذوات وسط والعلم الذي لا بذوات وسط أثرا هما واحد بعينه».



أي العلم بالمبادئ التي بدون برهان، والعلم بالأشياء التي هي ببرهان، أهما علم واحد أم جنسان مختلفان؟

ومثال التحريف بالزيادة، ما ورد في ص ٤٦٤: «ومن التجربة عندما يثبت ويستقر الكلي في النفس».

وحقها: ومن التجربة يثبت ويستقر الكلي في النفس، بحذف (عندما)، وهذه بعض أمثلة وسبيلنا أن نُمَثِّلَ ولا نستقصي.

وإذا وقع هذا التصحيف والتحريف في هذه النسخة المطبوعة، وهي منقولة عن نسخة منقولة من نسخة الحسن بن سوار، وقوبلت بنسخة كتبت من نسخة عيسى بن إسحاق بن زرعة، المنقولة من نسخة يحيي بن عدي، فكان أيضًا موافقًا – كما ثبت بآخر كتاب البرهان – ومعنى ذلك أن هذه النسخة أنجبها أصل فلسفي، وهي نسخة الحسن بن سوار، وزكَّاها عدل مقبول وهو نسخة عيسى بن إسحاق بن زرعة، المنقولة من نسخة يحيي بن عدي، وهما اثنان من الفلاسفة، ولهما مرتبة عليا فيها، فما بالك بنسخة لم تظفر بمثل هذا النسب العالي، وبمثل هذه التزكية.

أرأيتم أنه لا يغني التصحيح الأول عن التصحيح الثاني، وأنه لا يمكن الفهم إلا بهذا التصحيح المعنوي.

أرأيتم هذا الجهد المضنى، أرأيتموه يَقِلُّ تَعَبًا وعُمْرًا عن رفع الأثقال وقطعِ الأحجار، بل ربما كان قاطع الأحجار أَبَلَّ ريقًا وأسهلَ طريقًا، وكان صاحبُ هذا

الجهد محبوسَ الأنفاس، منقبضَ العضلاتِ، مرهفَ الحسِّ، مخافة أن يَنِدَّ عنه ما يوشك أن يَقَعَ فِي شِبَاكِهِ.

أرأيتم جهدًا أيمن من هذا الجهد، وتعبًا أجدى من هذا التعب.

إنه لا تَقِل جدواه عن جدوى المعلم الأول أرسطاطاليس الذي ألفه، ولا جدوى أبي بشر متي بن يونس الذي ترجَمه، فإذا كان الأول قد ألف، والثاني قد ترجم وبذلك سهلاه ويسراه للمتعلمين، فإن الزمن قد جار عليه، وغَيَّرَه وبدَّلَه فلم يعد ينتفع به إلا بهذا الجهد الأخير الذي أزال النسخ والمسخ، وعاد به كيوم ألَّفه المؤلف وترجمه المترجم.

إن التصحيح الأول عمل عضوي لا يحتاج إلى عمل حاسة البصر، فالمصحح يقرأ النسخ المختلفة ويعرف مواضع الاختلاف وينبه عليها، أما التصحيح الثاني فهو عمل عقلي شاق عميق يقتضي أن يكون صاحبه عارفًا بالعلم الذي يصحح فيه، وقل في زماننا من يُعنى بهذه العلوم الفلسفية، فَقَلَّ مَنْ يَعْلَمُ المنطق على طريقة أرسطو، وقلَّ من ينظر في علم الطبيعة على طريقة الفلاسفة المتقدمين، وقلَّ من يعرف علوم ما بعد الطبيعة على وعورتها، وقلَّ مَنْ يصبر على هذه العلوم مع انصراف الناس عنها، وانقطاع السند فيها وعدم الجزاء المادي عليها، وإنه لا يتوفر على دراستها إلا من أُوتي حَظًّا من حُبِّ الحِكْمَة مَلَكَ عَلَيه أمره، فهُو يصرفه في

بَيْدَاءِ الفِكْرِ وشعاب العلم، يقضي فيها نهاره وليله يسعد بما فيها، وإنه ليكتفي بذلك ويزهد فيما في أيدى الناس من متاع وزخرف.

لابد إذًا من العالِمِ بهذه العلوم الفلسفية ليصحح هذا التصحيح المعنوي، ولكن لابد من أن يحافظ على الأصل فيكتبه وينبه على أن المعنى يقتضي كذا ويثبت ما يقتضيه في أسفل الصفحة.

وإنما أوجبنا ذلك لأن المرء موكل به النسيان والغلط، فربما زيف فهمًا صحيحًا، وربما أصلح فأفسد، وأزال التحريف فأوقع في التحريف، ولِعِلَّةٍ أخرى وهي عدم التحكم في القارئ فهو بذلك يقول لمن ينظر في هذا الكتاب: هذا هو الأصل وما يقتضيه عليَّ هو كذا ولك الخيار فيما تأخذ وما تدع، وحبذا لو كتب خلاصة لكل باب يترجمه إلى لغة العصر لتكون أعون على فهمه.

هذا ما نراه في إخراج الكتب الفلسفية ولعل وزارة المعارف تقتنع به وتراعيه لأنه إذا أخرجت الكتب الفلسفية بدونه، تكون قد أحيت ولم تحيي ويسرت ولم تيسر وأخرجت للناس كتبًا شبيهة بأقوال المجانين لا نظام يجمعها ولا معنى يفهم منها

كما قال أبو تمام:

عذلًا شبيهًا بالجنون كأنما قرأت به الوَرْهَاءُ[١] شَطْرَ كِتَابِ

وأحب أن أنبه إلى أنه يجب إذا ظفرت وزارة المعارف بمن يصححون منها هذا التصحيح ألا تطلب منهم الكثير فإنهم لا يعنون بالكثرة، وإنما يعنون بالجودة، وكل قليل من الجهد فهو كثير لو لم يكن إلا أن يُخْرِجَ أحدهم كتاب الشعر أو الخطابة أو البرهان لأرسطو لكفاه ذلك، فبحسبه أن أَخْرَجَ كتاب البرهان أو الشِّعْرِ أو الخطابة مقروءًا مفهومًا وبحسب الأُمَّة أن تظفر بذلك.

وأُحِبُّ أيضًا ألَّا تضن عليهم فتحاسبهم بالورقة أو بالملزمة بل تكافئهم مكافأة من يعلم قيمة علمهم وجدواه، وما فيه من صعوبة، فهو خلاصة تعب العمر وجهد الحياة.

ليس بكثير على رجل أنفق عمره في خدمة العلم والاشتغال بعلوم الأوائل حتى استوى له أن يصحح كتابًا من كتب المعلم الأول، أو كتب ابن سينا أو ابن رشد، تصحيحًا يزيل غلط الدهور وخطأ الأحقاب، أن يأخذ من أموال الدولة ما يوازي تعب عقله ونصب فكره، وما يغبن أن تُعْطِيَ الدَّوْلَةُ مَنْ يَسَّر لها كتابًا مما تَوَدُّ نشره من كتب العلم ما يكافئ عمله فهي ليست تنشده وتبذل الجهد والمال في إخراجه

---

(١) الوَرْهاءُ: الحمقاء التي تتكلم لحمقها بما لا يُفْهَم، ككلام مَنْ بِهِ خَبَل. شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمدية، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠١٢م (٥/ ١٥١).

للناس إلا للانتفاع به، ولا ينتفع به ويتيسر فهمه إلا بهذا التصحيح المعنوي الذي قلناه.

إنه يجب أن تتغير نظرتنا إلى العلم والعلماء فلا نستكثر على العلماء ما لا نستكثره على من لا يغنون غناءهم وينفعون نفعهم.

إذا أراد المرء أن يعرف مقدار تقدم أمة في الحضارة نظر إلى ما ينفق فيها ويُرَوَّجُ، فإن كان الذي ينفق فيها المضحكات والمسليات، فهي أمة ذات نصيب قليل من التقدم والرُّقي، وإن كان الذي ينفق فيها على الجد والعلم عرف أنها تعرف للعلم خطره، وللجد أثره، وخير للأمة المصرية أن تتجاوز الطور الأول إلى هذا الطور الأخير.

نقد كتاب: خرافة الميتافيزيقا - ١ -[(١)]

خرافة الميتافيزيقا كتاب أَلَّفَهُ الأستاذ زكي نجيب محمود أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب بجامعة القاهرة، والميتافيزيقا التي جعلها خرافة هي علم ما بعد الطبيعة، أو علم الإلهيات من الفلسفة.

والأستاذ زكي نجيب كان مترجمًا أولًا، فقد ترجم كتبًا لأفلاطون، ثم اشتغل بالتأليف، فألف المنطق الوضعي، وكتاب خرافة الميتافيزيقا هذا الذي نريد تعريف القراء به وبيان منزلته، وهو وإن كان تأليفًا ولكنه نقل فصولًا بأكملها عن بعض فلاسفة أوربه مثل: كانت وكارناب، وبرتراند رسل.

ولقد قسا المؤلف في كتابه هذا على الفلاسفة المتقدمين، وهزئ بهم وسخر من عقولهم، وجعل قضاياهم في الميتافيزيقا قضايا فارغة، خالية من المعنى، وقد استعان المؤلف على تأييد نظرياته بآراء بعض الفلاسفة الأوروبيين، أو قُلْ إن الآراء لهم وقد أخذها وشرحها ثم أتى بأقوالهم بعد ذلك لتكون جلية واضحة بعد ما قدمه من بيان.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الخامس والعشرون، الجزء الثالث، ص ٢١٩-٢٢٢، غرة ربيع أول ١٣٧٣هـ / نوفمبر ١٩٥٣م، وفي هذا المقال والذي يليه؛ صفحة من المناقشة العلمية الهادفة والمعتمدة على المنطق، وتتغيا الوصول إلى الحق، وقد رجع الدكتور زكى نجيب محمود (ت:١٩٩٣م) رحمه الله عن آرائه التي حاد فيها عن الصواب ومن بينها ما أثاره موضوع هذين المقالين.



وإني أريد هنا أن أدل القارئ على تهافت الكتاب وتناقضه وفساده، وأُنَبِّهَ المؤلف إلى أن آراء الفلاسفة من الأوروبيين ليست كلها صوابًا يؤمن بها المرء بدون بحث ولا تروٍّ، بل إنَّ مِنْهَا ما هو مُهَلْهَل ومُتَدَاعٍ لا يصبر على النقد ولا يقوى على التمحيص، وأريد أخيرًا أن أحافظ على تراث العقل البشري وأُبَيِّنَ ثباته ورسوخه وأنه أقوى من أن يذهب به نقدٌ أو يزعزعه تجريح.

وأول ما أبدأ به: كلامه في التناقض والنقيضين، فهو يرى أن قول المناطقة المتقدمين «والنقيضان لا يجتمعان»، ليست قضية عقلية يلزمنا بها العقل، وإنما هي مواضعة واصطلاح، فقد تواضع الناس على أن النقيضين لا يجتمعان، فكان ما تواضعوا عليه وجرى استدلاهم واستنتاجهم ومحاورتهم على هذا الاصطلاح ولو اصطلحوا على أن النقيضين يجتمعان لاستقام لهم ذلك ولجرى استدلالهم وبحثهم، ونحن نسوق من كلامه ومن كلام الفلاسفة الأوروبيين الذين ترجم لهم واستشهد بكلامهم ما هو صريح في ذلك أو نص فيه، ثم نكر عليه بالنقض والإبطال.

قال في ص ٢١٢: لكن إذا كان صدق العبارة معناه مطابقتها للشيء الخارجي أو للواقعة الخارجية، فماذا نقول في صدق قواعد المنطق نفسها مع أن هذه القواعد صدقها ضروري يستحيل عليه الخطأ؟ خذ مثلًا قاعدة «إن النقيضين لا يجتمعان»، فلا يجوز قبول عبارة كهذه «س ولا س»، هذه قاعدة «صادقة» بالضرورة، فما معنى

صادقة هنا، مع أنه ليس في عالم الأشياء ما نرجع إليه لنطابق بينه وبين قولنا إن «س ولاس» لا يجتمعان؟

هنا يقول «كارناب» إن قواعد المنطق صادقة بمعنى أننا اتفقنا عليها، حين اتفقنا على رموز اللغة، وطريق استخدامها، فقواعد المنطق مختارة منا اتفاقًا، وصدقها اتفاقي، كأن يتفق اثنان مثلًا على أن يتفاهما برمز معين مثل هذا الرمز « – »، وعلى أنه يعني عدم وجود الشيء الذي يجيء هذا الرمز سابقًا لاسمه، فإن قال أحدهما: « – س» فهم الآخر أن س غير موجود فإذا وجدا بعد ذلك أن الرمز « – » يدل على معنى معين لما جاز لهما أن يعجبا لأن دوام معناه ودوام صدقه هو نتيجة اتفاقهما، وقد كان في مستطاعهما أن يتفقا على خلاف ذلك، كأن يتفقا مثلًا على أن الرمز نفسه دال على وجود الشيء الذي يجيء الرمز سابقًا لاسمه، فقولنا عن العبارتين الآتيتين «نابليون ولد في كورسكا»، و«نابليون لم يولد في كورسكا»، فإنهما جملتان متناقضتان أى أن الواحدة منهما تنفي الأخرى منطقيًا معناه أننا اصطلحنا بحكم القواعد التي تواضعنا عليها في اللغة واستعمالها على أن كلمة النفي «لم» إذا وجدت في جملة كان معناها أن الجملة تصبح متناقضة مع نفس الجملة إذا خلت منها بحيث صدَّقهما معًا أو كذَّبَهُما معًا.

ولقد تعرض الأستاذ «آير» لهذه النقطة فشرحها شرحًا واضحًا نلخصه فيما يلي:

إن مما أدته الحركة التحليلية في الفلسفة خلال الخمسين السنة الأخيرة هو أنها أزالت الإشكال الذي كان يظن أنه ملازم لقضايا المنطق الصوري والرياضة البحتة، إذ كان الرأي مجمعًا على أن هذه القضايا صادقة بالضرورة، لكن نشأت الصعوبة حين أرادوا معرفة كيف أتيح للإنسان أن يعلم أنها صادقة بالضرورة: لماذا يكون العالم منطقيًا؟ كيف أتيح لنا أن نوقن بأن قوانين المنطق لن تخالف الواقع؟ الجواب: هو أنه لا معنى لقولنا إن العالم منطقي أو غير منطقي إذ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوصف بكونه منطقيًا أو غير منطقي استدلال عبارة من عبارة أخرى، والاستدلال المنطقي هو ما نجريه وفق قوانين المنطق، وقوانين المنطق هو قواعد وضعناها لإجراء مثل هذا الاستدلال.

إن قوانين المنطق يستحيل أن تتعارض مع الواقع لأنها في ذاتها لا تقول شيئًا عن الواقع، إننا بتطبيقنا لقوانين المنطق نستطيع أن نشتق عبارة صحيحة من عبارة أخرى صحيحة لأن ذلك موكول إلى الخبرة وحدها، كل ما يستطيع المنطق أن يقوله هو أنه إذا صدقت عبارة – أو مجموعة عبارات – وصفية فلابد أن تصدق كذلك عبارة وَصْفِيَّة أخرى هي كذا وكذا، لكن لماذا نلزم أنفسنا اشتقاق العبارة الثانية من العبارة الأولى؟ الجواب هو أننا إذا سلمنا بالعبارة الأولى الصحيحة، ورفضنا أن نسلم بالعبارة التي تلزم عنها فإننا نكون بمثابة من يناقض نفسه.

والسؤال الآن هو: ولماذا ينبغي لنا أن نجتنب مناقضة أنفسنا؟ أليس ذلك لأن العالم مُكَوَّن على نحوٍ يستحيل معه أن يصدق النقيضان معًا؟ وإذا كان أمر العالم كذلك، فهو إذن عالم يجري على اتفاق مع قوانين المنطق، لكن الجواب على هذا كله هو أنه ليس ثمة ما يلزمنا بألا نقبل التناقض، إنما هو اتفاق بيننا نشأ عن اتفاقنا على طريقة معينة نستخدم بها لغة التفاهم، إننا اتفقنا على أن يكون لأداة النفي «لا» معنى معين، بحيث إذا قلنا عبارة كهذه (ق ولاق) جاءت بغير معنى أى لم نجد مدلولًا في عالم الأشياء، وليس ذلك لأن في طليعة العالم نفسه ما يأبى ذلك بل لأننا نحن الذين صممنا لغتنا على نحو يجعل ضمَّ القضية إلى نقضيها لا يفيد وصفًا لشيء.

إن قولنا إن «عدم اجتماع النَّقِيضين» قانون من قوانين المنطق، مساو لقولنا إننا إذا اتفقنا على استخدام معين لأداة النفي، وكان يجوز لنا أن نبني نسقًا منطقيًا آخر يخرج على هذا القانون – قانون عدم اجتماع النقضين – إذ يجوز لنا مثلًا أن نبدأ بناءها المنطقي الجديد باشتراطنا صدق (ق ولاق)، ثم نأخذ في استدلال النتائج من هذا الاشتراط الأول، وعندئذ يكون اجتماع النقيضين هو الصحيح، وهو الذي ترتب على صدقه صدق القضايا التي تستدل منه، وإذا بدا هذا القول مشكلًا غريبًا فلأننا نظن أن علامة النفي ستظل في البناء المنطقي الجديد المقترح، محتفظة بمعناها الحالي مع أنه واضح طبعًا أننا لو أبقينا لها معناها الحالي الذي يجعل عدم اجتماع

النقيضين صحيحًا، استحال أن يكون اجتماع النقيضين صحيحًا أيضًا. (من ص ٢٢٢ وما بعدها).

ونحن نرى والعقلاء يرون معنا أن «النقيضين لا يجتمعان» قضية عقلية يُقْضَي بها بالعقل في كل زمان وفى كل مكان، وهي من القضايا الأزلية التي كانت كذلك في القدم، وهي من القضايا الباقية التي ستبقى كذلك إلى آخر الزمن، تزول الجبال ولا تزول، بل تزول الأرض والسموات ولا تتململ ولا تزول، بل هي أبقى على الدهر من الدهر، وليست مرتهنة باصطلاح مُصْطَلِحِين، ولا تواضع متواضعين، وهي مركوزة في العقول، وراسخة في الفِطَر، تقول لابنك الصغير: اشتريت لك حصانًا، ثم تقول: لم أشتر، فيحاجك ويقول: ألم تقل إنك اشتريته؟ وما ذلك منه إلا لإيمانه بأن النقيضين لا يجتمعان، وتقول لك خادمتك التي لم تبلغ رُتبة في التفكير: فلان لم يأخذ كذا، ثم تقول: إنه أخذه، فتقول لها: ألم تقولي إنه لم يأخذه؟ فَتَنَبَّهِت، وربما تقول: لم يأخذه صباحًا، وقد أخذه في المساء، فتحل التناقض باختلاف الزمن، وكأنها تعلم أن من شرط التناقض الاتحاد في الزمن، وكيف يمكن أن يجتمع النقيضان؟ هل يمكن أن يصدق: سقراط إنسان، سقراط ليس بإنسان، أو هذا حجر وهذا ليس بحجر، والإسكندر وجد ولم يوجد، هذا محال في العقل وباطل في الفكر، ومِنْ عَجَبٍ أن الأستاذ " آير " لمَّا قرر: «أننا لو تواضعنا على أن النقيضين يجتمعان لاجتمعا، ولاستقام ذلك». أحسَّ بحرجِ مَوْقِفِه وتهافُت قوله،

فأراد التخلص منه فقال: كأنك تظن أن حرف النفي سيبقى له معناه في اصطلاحنا الجديد، إنه سينسلخ عن معناه وسيكون معناه معنى آخر يمكن أن يجتمع مع الإثبات، كأنما يظن أن التناقض إنما هو بين الألفاظ مجردة من معانيها، والواقع أنه لا تناقض بين الألفاظ دون نظر إلى معناها، ولا يتحقق التناقض إلا في المعنى، ولذلك قالوا في تعريفه: التناقض اختلاف قضيتين بالإيجاب والسلب بحيث يلزم لذاته من صدق إحداهما كذب الأخرى، وبالعكس، فالتناقض إنما يكون بين إثبات ونفي، فإذا جُرِّدت أداة النفي من معناها لم يكن تناقض فلا يصح قوله: إننا نجرد أداة النفي من معناها، ويصح إذن قولنا النقيضان يجتمعان، لأننا نقول له إنهما إذن ليسا بنقيضين.

ونكتفي بهذا القدر وسنعرض في المقال الآتي إن شاء الله للخيال الذي لاح وأخطأهم التعبير عنه.

خرافة الميتافيزيقا - ٢ -[(١)]

بينا في المقال السابق ما قاله كرناب وآير والأستاذ زكي نجيب محمود في قوانين المنطق، ومنها قانون التناقض، وتلونا قول الأستاذ آير: إن قوانين المنطق يستحيل أن تتعارض مع الواقع، لأنها في ذاتها لا تقول شيئًا عن الواقع، وقوله إنه ليس ثمت ما يلزمنا بألا نقبل التناقض، إنما هو اتفاق بيننا نشأ عن اتفاقنا على طريقة معينة نستخدم بها لغة التفاهم، إننا اتفقنا على أن يكون لأداة النفي «لا» معنى مُعَيَّن بحيث إذا قلنا عبارة كهذه – ق ولاق – جاءت عبارة بغير معنى، أي لم تجد لها مدلولًا في عالم الأشياء، وليس ذلك لأن في طبيعة العالم نفسه ما يأبى ذلك، بل لأننا نحن الذين صنعنا لغتنا على نحو يجعل ضم القضية إلى نقيضها لا يفيد وصفًا لشيء، وتلونا قول كارناب: إن قواعد المنطق مختارة منا اتفاقًا، وصِدْقُهَا اتفاقي، إننا اصطلحنا بحكم القواعد التي تواضعنا عليها في اللغة واستعمالها، على أن كلمة النفي – لم – إذا وجدت في جملة كان معناها أن الجملة تصبح متناقضة مع نفس الجملة إذا خلت منها، بحيث يستحيل صدقهما معًا أو كذبهما معًا.

وقد رددنا على ذلك إجمالًا واليوم نريد أن نتناول الردَّ بشيء من التفصيل، ونبينَ الخيال الذي تراءى لهم فأوقعهم في هذا الغلط.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الخامس والعشرون، الجزء الثالث، ص ٣٥٠-٣٥٢، غرة ربيع أول ١٣٧٣هـ / نوفمبر ١٩٥٣م.

لا يجتمع في الواقع: سقراط وُجِدَ، سقراط لم يوجد، ولا يجتمع: الإسكندر إنسان، الإسكندر ليس بإنسان، وأمثالهما مما هو إثبات شيء لشيء ونفيه عنه في آن واحد، ومكان واحد، هذا في الواقع والوجود الخارجي، وإن لم توجد لغة ولم يوجد إنسان.

وقد لاحظ العقل ذلك فاستخرج هذا القانون الكلي وهو أن النقيضين لا يجتمعان، وهذا في العقل ولو استطاع الإنسان أن يفكر بدون لغة، وتواضع واصطلاح.

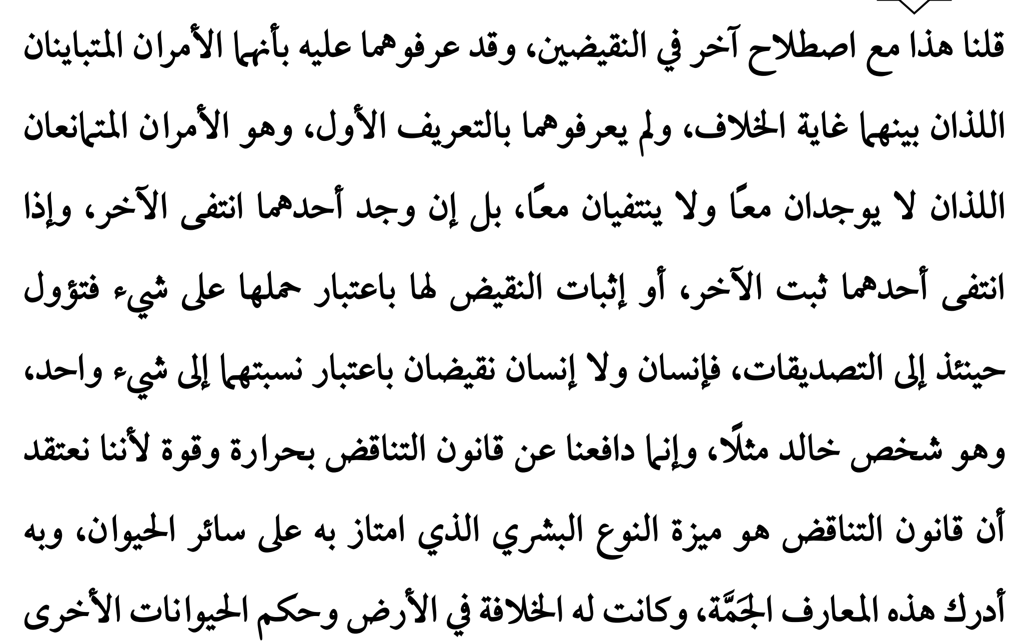
وقد وضع الإنسان اللغة واصطلح عليها وعلى دلالة ألفاظها على معانيها، ومن ذلك الكلمات والأدوات التي تستعمل في القضايا، مثل سقراط وجد، سقراط لم يوجد، فقد اصطلح على معنى كلمة -لم- وهو النفي، وعلى معنى المفردات سقراط، ووجد، ويوجد، فهذا اصطلاح في الدلالة ما في ذلك شك، وكان يمكن أن يجعل لكلمة -لم- معنى غير النفي، ولكن ينبغي أن نفرق بين التواضع على دلالة الألفاظ وعلى القانون الذي بينا أنه منتزع من الخارج، ولو لم يوجد تواضع واصطلاح، ولم يدرك الأستاذ كارناب وآير الفرق بينهما فَحَكَمَا بأن قانون التناقض مواضعة واصطلاح تواضعنا عليه عندما تواضعنا على معاني الألفاظ، وبعبارة أخرى ينبغي أن نُفَرِّقَ بين شيئين، بين دلالة الألفاظ على معانيها، وبين قانون التناقض الذي بينًّا أنه منتزع من الخارج ولو لم توجد لغة ولم يوجد تواضع

واصطلاح، فليس إثبات المواضعة في دلالة الألفاظ على معانيها هو إثبات المواضعة لقانون التناقض ولا مستلزماته.

وهنا مسألة فنيَّة نحب أن ننبه عليها، لقد مثل الأستاذان آير وكارناب للتناقض برمزي ق ولا ق، وهما رمزان إلى تصورين لا إلى قضيتين، والتناقض إنما هو التصديقات لا في التصورات، لأن النقيضين هما الأمران المتعاندان اللذان يتنافيان فلا يجتمعان ولا يرتفعان.

ولا تعاند في التصورات فإنسان ولا إنسان يجتمعان في الخارج وفي التصور، إن إنسان أفراده: خالد وإبراهيم وعلى وحسين، ولا إنسان أفراده: النبات والحجر والجمل والطاووس من كل حيوان غير إنسان، وهي موجودة في الخارج كلها وموجودة في التصور، فلا تعاند ولا تنافي بين التصورات إنما هو التعاند بين التصديقات، فإذا نسب التصور إلى شيء ثم نفي عنه بذاته كان التناقض كقولنا: إبراهيم إنسان، إبراهيم ليس بإنسان، فلا يمكن أن يجتمع في الخارج أن يكون هو إنسانًا ولا إنسان، وإذا كان إنسانًا لم يكن لا إنسان وإذا كان لا إنسان لم يكن إنسانًا.

ولعل قائلًا يقول: كيف نقرر أن التصورات لا نقائض لها، وقد عقد المناطقة بابًا لبيان النسبة بين الكليين، وأثبتوا فيه نقائض للتصورات حيث قالوا: نقيضا الكليين المتساويين متساويان.



قلنا هذا مع اصطلاح آخر في النقيضين، وقد عرفوهما عليه بأنهما الأمران المتباينان اللذان بينهما غاية الخلاف، ولم يعرفوهما بالتعريف الأول، وهو الأمران المتمانعان اللذان لا يوجدان معًا ولا يتتفيان معًا، بل إن وجد أحدهما انتفى الآخر، وإذا انتفى أحدهما ثبت الآخر، أو إثبات النقيض لها باعتبار حملها على شيء فتؤول حينئذ إلى التصديقات، فإنسان ولا إنسان نقيضان باعتبار نسبتهما إلى شيء واحد، وهو شخص خالد مثلًا، وإنما دافعنا عن قانون التناقض بحرارة وقوة لأننا نعتقد أن قانون التناقض هو ميزة النوع البشري الذي امتاز به على سائر الحيوان، وبه أدرك هذه المعارف الجَمَّة، وكانت له الخلافة في الأرض وحكم الحيوانات الأخرى التي هى أضخم أجسامًا، وأمضى أسلحة طبيعية، وأعظم قوى، وهو الهادي في بيداء المجهولات والمؤدي إلى حد واحة المعرفة.

انظر إلى القاضي الذي يستمع إلى شهادة شاهد فيراه يثبت الشيء ونقيضه، ألا تراه يعلم بذلك كذبه لأن النقيضين لا يجتمعان، وانظر إليه حين يسمع دفاع المحامي فيراه يترك نفى التهمة وينفي شيئًا آخر ما يمكن أن يجتمع مع إثبات التهمة لأنهما ليسا نقيضين، ألا تراه يبادر برفض الدفاع.

وانظر إلى الباحث حيث يستدل من إثبات شيء على نفي نقيضه أو من نفي شيء على إثبات نقيضه، ألا ترى ذلك مبنيًا على قانون التناقض، وهو أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، بل إن الشكل الأول الذي يكاد يكون بديهي الإنتاج وهو

قريب من الطبع جدًا، ذاك لأنه مبني على قانون التناقض، ولو لاحظ المرء حركات فكره حين يبتكر أو يستنتج لرأى قانوني التناقض كعَلَمَيْن في طريق موحش يهديانه إلى الجادة، وينكبانه كل مهلكة فهما شعاع مشرق ونور هاد، هما من نور الله الذي هو كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.

ونحن نشكر الأستاذ زكي نجيب محمود إذ أتاح لنا أن نناقش أعلامًا من أعلام الغرب مشهودًا لهم بالعلم والفلسفة، في مسألة عقلية يسهل إدراكها، ووجه الحق فيها، فتكون فرصة طيبة لإعادة الثقة بالعقل الشرقي في نفوس الشرقيين، إذ يرون أن الصواب ليس بجانب الغرب دائمًا، وأن الضعف والانحطاط ليسا مُلَازِمَيْن للشرق، بل في استطاعة الشرق أن ينازل الغربيين في العلوم العقلية، ويستعين بما ورثه عن آبائه الصيد الأماجد، من علوم ومعرفة على الفوز والفلح.

وليس بقليل أن نعيد للشرقيين الثقة بعقولهم وعلومهم، فليس أفسد للأمم وأدعى إلى فتور الهمم من فقدان الثقة بالنفس، وليس أدعى للتسامي والجد من الثقة بالنفس والإيمان بالقدرة والمقدرة.

كما نشكره على أن أتاح لنا أن نناقش مسألة من المنطق أمام القراء، فلعل ذلك يكون حافزًا لدرس هذا الفن والاشتغال به، وهو كسب عظيم أيضًا، لأن المنطق

ميزان الفكر ومعيار العلم، وقد أنتج اليونان هذه الثروة العظيمة في العلم حين علموا قوانين الفكر وكذلك العرب، وهذه الحضارة وليدة اشتغال الغرب بعلوم المنطق وبحثها ونقدها، وإني أرى أنَّ نهضتنا العلمية في بلاد الشرق تنقصها العناية بالمنطق ومعرفته على وجهه وهذا يكون بتعاون الأزهر والجامعة تعاونًا علميًا.

دفاع عن الأزهر[1]

شر ما تبلى به أمة من الأمم شك بعضها في بعض، وانعدام الثقة بين أفرادها، فكلما أشار عليها أولو الأمر فيها شكوا في مشورتهم، وأساءوا بها الظن، وذهبوا يلتمسون الأسباب والعلل للتفلت منها.

وإنا نحس تدبيرًا خفيًا يعمل في الظلام للتفريق بين الأمة وعلماء الدين فيها، ويبذر بذور الشك في أقوالهم ونصائحهم وفتاواهم، لقد سارت الأمة منذ عهد بعيد منذ مجيء الإسلام على حسن الظن بهم والتماس مشورتهم في كل حادث جَدَّ وفى كل خَطْبٍ نَزَلَ، وكانت تأتمر بأمرهم وتصدر عنهم رأيهم وكانوا يُحَذِّرُونَهَا من أعدائهم ويُرُونَهَا مكرَهم ودسائسَهُم، ويُعَرِّفُونَهَا كيف تَتَّقِي حبائلهم وتأمن مكرهم، ولم يخف ذلك على أعدائها فسعوا في غرس الشك في قلبها وخلقوا سوء الظن بهم، لتتفرد عن علمائها وينفرد أعداؤها بها: «وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».

وقد أصابوا بعض النجاح في ذلك، فلا يخطئك أن ترى في بعض الصحف تشويهًا لهم وإساءة ظن بمشورتهم، ونحن إذا التمسنا العذر لبعض الكاتبين، فلا نجد عذرًا لبعض علماء الدين الذين يبذرون الريب والشكوك في العلماء، ويصورونهم بصورة من باعوا دينهم وضمائرهم لدنيا يصيبونها أو عرض يقتنونه، وقد رأينا منهم من يطعن في قدماء العلماء ومُحْدَثِيهم فإذا رأوا فتوى في أمر هو مجال الاجتهاد

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء السابع، ص ٧٨٣-٧٨٥، غرة رجب ١٣٧٢هـ / مارس ١٩٥٣م.

طعن فيهم إذ لم يأخذوا بالرأى المخالف، وإذا كانت الفتوى صحيحة ليست باطلة، جعل الباعث عليها سيئًا، والأمور تسوء بسوء الباعث عليها حتى العبادات نفسها، قال رجل في مجلس الأمير: سبحان الله استعظامًا لأمر وقع من بعضهم ليغري به الأمير، فقال بعض العلماء: ما علمت أن سبحان الله معصية إلا في هذا اليوم.

وإذا رأى العلماء ينزلون على الأمر الواقع حين غزا نابليون مصر وتغلب عليها نعى عليهم ذلك، كأنما كان يريد بعد أن سقطت المقاومة أن يقاوموا ويحملوا المصريين على المقاومة ليبيدهم أعداؤهم، وإن حكم الشرع والعقل يأبى ذلك، قال الشاعر القديم:

فإن أنت لم تقدر على أن تهينه فدعه إلى اليوم الذي أنت قادرُه

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة وصمّم إذا أيقنت إنك عاقرُه[(١)]

وقد رأينا الألمان في الحرب الثانية يغزون الممالك فلا تقف أمامهم إلا أيامًا، وكانوا أعظم المحاربين شجاعة وإقدامًا، ولكنهم لما سقطت مقاومتهم خضعوا للأمر الواقع وساروا على حكم الوقت، فحوكم قوادهم واستجابوا لما يفرض عليهم.

فهل كان يطلب من علماء الدين في عهد احتلال الفرنسين غير ذلك؟ وهل كان يطلب منهم أن يقودوا الأمة إلى حتفها بعد أن سقطت مقاومتها؟ لا، إن العقل

---

(١) الأبيات منسوبة لأوس بن حبناء، شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م، ص ٤٦٤.

يقضي بمسايرة الأمر الواقع، والعمل على التخلص والصبر حتى تمكن الفرصة كما كان، فقد جاءت الفرصة وأُخرج نابليون والفرنسيون من مصر.

هذا مرض يجب أن يطب علماء الدين له، ويجب أن يعنوا به، ويتعرفوا أسبابه وعلله، فليس ذلك يمس أشخاصهم فحسب، وإنما ذلك لمصلحة العامة وخير المجتمع.

إن العلماء هم الهُدَاةُ المُرْشِدُون بحكم الدين، وإنه لا يقبل قولهم ولا يسمع نصحهم إلا إذا وثق بهم، وهذه الحملة المُدَبَّرة عليهم تفقدهم هذه الثقة.

إننا نعلم أن صلة العالم المسيحي بالبابا وبرجال الدين فيهم صلة تجعلهم إذا أمروهم بأمر نفذوه في بلدان العالم المختلفة.

وإن اليهود في جميع العالم يرتبطون برباط وثيق، وإن الأمر ينزل عليهم من هيئتهم العليا، فإذا هو قول مطاع وحكم منفذ، وهذا سر قوتهم ونجاحهم، وإن قادتهم يروون في الأمر فتبين لهم وجوهه المختلفة فيختارون ويضعون الخطة ولو لمئات السنين، ويعلمون اليهود في جميع بقاع الأرض بذلك، فيأخذون جميعًا في التنفيذ، فليست آراء مرتجلة، ولا عمل وقتي ولا رأي شخصي، وإنما هو الرأي المدروس المتفق عليه الذي هو أمنية الأجيال والقرون.

أما نحن فلا نزال على عتبة الباب، ولا نزال متفرقين مختلفين لا يعلم بعضنا شيئًا عن بعض، ولا يزال بعضنا ينزع الثقة من بعض، حتى نصير بددًا متفرقين، لا نجتمع على رأي ولا نستجيب لنداء.

إن الأمرَ جدٌّ خطير، يجب أن نلتمس له الدواء لإعادة الثقة وحسن الظن، ولعلَّ هذا هو الذي دعا الرئيس اللواء محمد نجيب [(١)] إلى أن يستقري التاريخ حتى يعثر على مواقف مشرفة لعلماء الأزهر من وقوف في وجه ظالم أو عمل على رفع مظلمة، أو إنقاذ الأمة من جار متعنت، فيسجلها في خطبه العامة ويُشِيدُ بها في مواقفه التاريخية، فقد ذكر في خطبته في عيد التحرير يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٥٣ ما يأتي: «لقد أرادت مناهج التربية والتعليم في الماضي أن تطمس هذه الصفحة المشرقة من تاريخ بلادنا لينشأ أبناؤنا على الذِّلَّة وليستقر في أذهانهم أنهم كانوا عبيدًا أبدًا، لذلك أراني اليوم مطالبًا بأن أعلن أن أجدادنا كافحوا من أجل الحكم الصالح، وأنهم جاهدوا في سبيل الدستور الصحيح منذ أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان، فقد عزل الشعب في ١٣ مايوا سنة ١٨٠٣م، واليًا مُعَيَّنًا من قبل السلطان، فقال الوالي: إني مُوَلًّى من طرف السلطان فلا أُعْزَلُ بأمر الفلاحين، فرد عليه علماء الأزهر، وكانوا وقت ذاك نواب الشعب، إن الشعوب طبقًا لما جرى به العرف قديمًا ولما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية الحق في أن يقيموا الولاة ولهم أن

(١) أول رئيس لجمهورية مصر العربية بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

يعزلوهم إذا انحرفوا عن سَنَن العدل، وساروا بالظلم، لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة، فحركتكم التي تحتفلون اليوم بعيدها كما ترون موصولة الأسباب بجهاد أجدادكم، فما قاله الأجداد في سنة ١٨٠٣ قاله الأحفاد في ٢٣ يوليو الماضي».

وفى خطابه الذي افتتح به أعمال لجنة الدستور أشار إلى إحدى الثورات الدستورية التي قامت في مصر بقيادة الشيخ أحمد الدردير(١) والشيخ الشرقاوي(٢)، وقد قال الرئيس: إن هذه الثورة قام بها شعب مصر قبل أن يستتب الأمر لثورات أوروبا الكبرى.

هذا ما نسجله للرئيس اللواء محمد نجيب مغتبطين له، مُقَدِّرِين هذا الشعور النبيل، وهذا التوجيه النافع، فماذا يجب على علماء المسلمين أن يعملوه، وماذا يجب أن يساعدوا به في إعادة الثقة بهم.

---

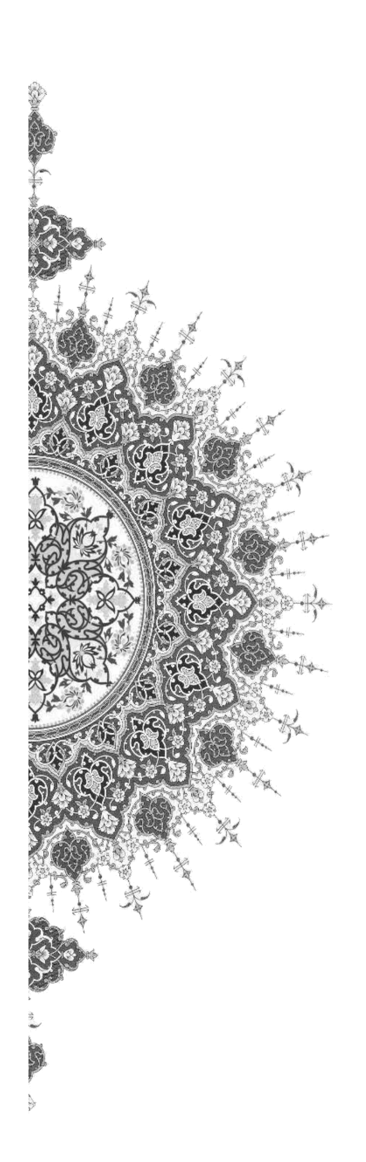
(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي الأزهري الفقيه المالكي الشهير بالدردير، ولد ١١٢٧هـ ببني عدي بمحافظة أسيوط، وتولى مشيخة الطريقة الخلوتية، والإفتاء بمصر، وتوفي في ٦ ربيع الأول ١٢٠١هـ. الأعلام، الزركلي، (١/ ٢٤٤).

(٢) هو عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي، ولد في قرية الطويلة بمحافظة الشرقية سنة ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م، صنَّف كتبًا في العقيدة، والفقه الشافعي، والتصوف، تُوفِّيَ بالقاهرة، ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م. موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، عزيزة فوال بابيتي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، (٢/ ٤٤١).

إن البون بينهم وبين النظام الواجب شاسع، ولكن ذلك لا يمنع من جعله غرضًا ساميًا يسعون للوصول إليه ويلتمسون له الأسباب، إن الثقة لهم هي التي تجعل قولهم مقبولًا وأمرهم مطاعًا، ولن تنال هذه الثقة إلا بأن يؤمن رجال الدين بأنهم لم يخلقوا لأنفسهم، وإنما خلقوا لهداية أمتهم، وأنهم مسئولون عنها إذا زاغت أو ضَلَّت، وبأن يعملوا على مقتضى هذا الإيمان، فيجب أن تجدهم أمتهم إذا اشتجرت الآراء، وعمَّت الأهواء ناصحين هادين، ويجب أن ترى فيهم تضحية بأموالهم ومناصبهم وبأرواحهم إذا اقتضى الأمر في سبيل خيرها وإنقاذها، يجب أن تعلم فيهم أنهم لا يجبنون عن قول الحق ولا ينكصون عن نصرة الصدق.

ويجب أن يتحللوا من ذلك الواجب الذي يفرض على المرء ألا يتحدث عن أعماله وألا يُزَكِّي نفسه، فما عليهم أن يتحدثوا عن أعمالهم، ويُبَيِّنُوا خدماتهم وتضحياتهم ما داموا يدافعون عن أنفسهم ويردُّون قول خصومهم، وما داموا يرجون من وراء ذلك إعادة الثقة أو توطيدها برجال الدين ليتمكنوا من بذل التضحية ومن توجيه الأمة إلى خير العمل وعمل الخير.

المجموعة الثامنة
رؤى لإصلاح التعليم



المجموعة الثامنة
رؤى لإصلاح التعليم

تحتوي على المقالات الآتية:

١- فتياتنا في الأزهر الشريف.

٢- مشكلات التعليم في مصر.

٣- مشكلة التوسع في التعليم العالي والثانوي.

فتياتنا في الأزهر الشريف (١)

لم يدخل كثير من الفتيات المسلمات الأزهر الشريف، وإنما دخلنه على الندرة والشذوذ، فكان الأزهر يأتيه في كل عام ألوف من الصبيان المسلمين يتعلمون فيه، فمنهم من يُتِمُّ تعليمه، ومنهم من يقف في الطريق، ولكنه يغترف من منهله على قدر ما قضى فيه من الأيام أو السنين.

ولم تكن الفتاة المسلمة كذلك، فكانت قليلًا ما ترد حياضه، وتلج أبوابه. وكان ذلك من حُكْمِ العادة الجارية والعرف المألوف، ولم يكن من حظر الدين الإسلامي؛ فإنه لم يحظر على الفتاة أن تتعلم من العلوم الشرعية والعقلية ما تشاء وما تتسع له قدرتها، وتطيقه منتها، بل إن فيه حَضًّا على أن تتعلم وتخرج من ظلمات الجهل إلى رحاب العلم المنيرة الواسعة، فإن الآيات التي وردت في فضل العلم والحض عليه عامة في الرجال والنساء وليست مخصوصة بالرجال، فقوله تعالي ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨)، فهذا الفضل الذي جُعِلَ لأولي العلم، وهو أنهم هم الذين يخشون الله، يستوي فيه من حاز صفة العلم من الرجال والنساء.

وكذلك قوله تعالي: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩)، عام أيضا لا يستوي العالم والجاهل ولا العالمة والجاهلة .

---

(١) مجلة الهلال، العدد (١) ١ يناير ١٩٥٥م .

والآيات التي تحض على النظر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء تشمل الرجل والمرأة، وهي في إيجابها النظر والتفكير توجب أسبابه ومعداته سواء كان على الفتى أو الفتاة، بل إن في السنة النبوية ما يفيد أن من المسلمات من كن أئمة في الدين يؤخذ عنهن العلم ومن أولئك السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوج النبي ﷺ.

وورد في الحديث الصحيح:" أن النساء قلنا للنبي ﷺ غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكِ يَوْمًا. قَالَ: فَوَعَدَهُنَّ. قَالَ: فَلَقِيَهُنَّ، فَوَعَظَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ»، قَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوِ اثْنَيْنِ؟ قَالَ: «أَوِ اثْنَيْنِ» [(١)]، ولم يكن رسول الله ينتظر حتى يدعوه النساء لتعليمهن ووعظهن، بل كان يأتيهن حيث كن في مصلاهن ويعظهن ويعلمهن. روي أن النبي ﷺ قام ذات عيد فبدأ بالصلاة، ثم خطب، فلما فرغ نزل فأتي النساء فذكرهن وأمرهن بالصدقة، وهو يتوكأ على بلال، وبلال باسط ثوبه.. فجعلت النساء يلقين فيه بصدقاتهن حتى كانت المرأة تلقي بقرطها وخاتمها[(٢)]. ولم يكتف الإسلام بهذه المنزلة، منزله التعلم للنساء؛ بل أراد

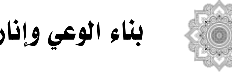
---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم ؟، رقم (١٠١)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، رقم (٢٦٣٣) .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب عظة الإمام النساء وتعليمهن، رقم (٩٨) .

أن يكون منهن معلمات ومرشدات ومبلغات عن الله ورسوله ورد ذلك في القرآن، وقد كلف نساء النبي بذلك، فقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾(الأحزاب:٣٤)، ومن القليل اللائي دخلن الأزهر وتعلمن علومه ما حدثنا به بعض شيوخنا، فقد قالوا: دخلت فتاة الأزهر وتعلمت علومه، من فقه ونحو وتفسير وحديث ومنطق وأصول الفقه وعلم الكلام...إلخ، حتى رأت نفسها أهلًا لدخول الامتحان وأخذ شهادة العالمية، فتقدمت وأخذت التعيين في العلوم وذاكرته، وجلست أمام لجنة الامتحان. وكان التعيين في أصول الفقه مسألة (لا تكليف إلا بفعل) فسألها رئيس اللجنة مغالطًا: ما المراد من الفعل: الماضي أم المضارع أم الأمر؟

فبهتت ثم قالت: " دا فعل بشأة" فأثار ذلك ضحك اللجنة وأسقطتها، ولو كنت في اللجنة لرأيت ذلك جوابًا لأن الغرض إفهام المعني، وهي تقول إن هذا الفعل المذكور في المسألة يخالف الفعل الماضي والمضارع والأمر، إلا أنها أخرجت هذا المعني بلغتها النسوية. وكان على اللجنة أن تسألها بعد: وما الفرق بينهما، فإن عرفت الفرق فبها وإلا أخذت به، ولا أدري مبلغ هذه القصة من الصحة، ولكن أخبرني صديق لي أنه رأى في سنه ١٩١٥ تقريبا فتاة محتشمة تغطي وجهها وسائر بدنها تجلس في حلقات دروس الأزهر وتتردد عليها، والآن تقضي المصلحة بأن ينشأ قسم في الأزهر لتعليم الفتيات المسلمات الدين وعلومه وأخلاقه، لأن المرأة



إذا خرجت من أميتها الدينية والأخلاقية أمكنها أن تبث ذلك في أولادها وزوجها وأسرتها. وهي تدخل البيوت وتختلط بالأسر، فهي أقدر على الوعظ فيها والإرشاد وتبليغ الدين.

وإذا كان يجب علي الدولة أن تعلم الفتى لنفسه، فإنه يجب عليها أن تعلم الفتاة لنفسها أولًا، ولأولادها ثانيًا، ولزوجها ثالثًا، ولمن يحيط بها من خدمها وأسرتها رابعًا.

علموا المرأة دينها ونشئوها على أخلاقه تبث ذلك في كل من يحيط بها، فهي أقدر على التأثير، وهي التي تتلقي الأبناء صحيفة بيضاء تنقش فيها صورة نفسها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

إذا رأيت شعبا جاهلًا متخلفًا فاعلم أن وراءه نساء جاهلات متخلفات، وإذا رأيت شعبًا عالمًا متقدما فاعلم أن وراءه نساء عالمات متقدمات.

اغرسوا في المرأة أصول العقيدة، واجعلوها تؤمن بالله والجزاء في الدار الآخرة، تبث ذلك في أبنائها، وتخرِّج رجالا مؤمنين بالله، وبالمثل العليا، وبذلك تنقذونهم من المادية المخربة، والإلحاد المدمر فتنقذون وطنكم من أعظم الأخطار، وأشد الأضرار.

علموهن الدين في بساطته وسهولته ويسره، كما كان في الصدر الأول، واعفوهن من التفريعات الكثيرة والقواعد الاصطلاحية، وجنبوهن التعقيد الفلسفي والآراء الجدلية...فإن ذلك لا يلائم طبيعتهن ولا يساير شيمتهن.

افرضوا ما شئتم على الفتيات من الصيانة، وحوطوهن بما ترون من الرعاية، واجعلوا هذا التعليم خاصا بهن لا يختلطن فيه بالفتيان ولكن لا تحرموهن من علوم الدين، وتقوية اليقين.

مشكلات التعليم في مصر [1]

للتعليم في مصر مشكلات كثيرة، لا مشكلة واحدة، فهناك مشكلة التوسع في التعليم العالي، ومشكلة التوسع في التعليم الابتدائي والثانوي، وكيف نجعل المدرسة تُرَبِّي في التلاميذ العقول والأخلاق والإرادات ليكونوا أعلمَ بزمانهم، وأقدرَ على مواجهة مشكلات عصرهم والتغلب عليها، وكيف نُدخل في عقول الأمة أن الغرض من التعليم هو هذا، ونصرفها عن أن يكون الغرض منه التوظيف؟ وكيف نُعيد للمدرسة احترامها؟ وكيف نعيد إليها النظام؟ وكيف نحبب العلم إلى التلاميذ؟ وكيف نعيد إلى الأستاذ حب تلاميذه والشفقة عليهم كما يشفق الوالد على ولده، ويكدح ليله ونهاره لإفادتهم وحل مشكلاتهم؟

هذه وغيرها هي مشكلات التعليم عندنا.

ومن العجب أن بعضها مرتبط ببعض، وأن بين الفساد والفساد تلازمًا، كما بين الصلاح والصلاح تلازم، حتى إن الأمر الواحد في التعليم إذا فسد جرَّ إليه ما لا يُحْصَى من الفساد، وإذا صلح جَرَّ ما لا يحصى من الصلاح، ومثال ذلك: نظر الأمة إلى التعليم وغايتها منه، فإذا تَلَمَّسْتَ غاية التلميذ أو أبويه من التعليم وجدتها الحصول على وظيفة من وظائف الدولة، ولما كان السبيل إلى ذلك هو الحصول على الشهادة، وكان نوال الشهادة موقوفًا على جواز الامتحان، تعلقت الأنظار كلها

(١) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرون، الجزء التاسع، ص ١٠٣٩-١٠٤٤، رمضان ١٣٧٢هـ /مايو ١٩٥٣م.

بالشهادة وجواز الامتحان، حتى أنظار المُعَلِّمِين والنُّظَّار وإدارة التعليم، وجعل ذلك غاية، والتمست الأسباب والسبل للوصول إليه، فمنها الحفظ ولو بدون فهم، ومنا السبل غير الجائزة وأنواعها كثيرة لا تحصى، ولا يمكن إصلاح التعليم ما دامت هذه هي الغاية، وما دامت الشهادة هي الغرض، ومن الواجب الحتم أن تصلح الغاية من التعليم فتجعل تثقيف العقول وتهذيب الأخلاق واستقلال الفكر واكتساب ملكة الإقدام والعزم والقدرة على المساهمة في بناء هيكل العلم بابتكار علوم جديدة أو باستغلال العلم في الحياة.

وإذ كان الأمر كذلك أردنا أن نتكلم عن ذلك كله إجمالًا وسنبدأ بالكلام عن:

مشكلة التوسع في التعليم العالي والثانوي:

وقد اختلفت الآراء: أنفتح أبواب التعليم على مصاريعها يدخل من شاء، أم نضيق من أبوابه ونضع حراسًا عليها، فلا يسمحون بالدخول إلا لمن كانت فيه أهلية التعليم الثانوي ثم العالي والسبيل إلى معرفة ذلك هى اختبار المتقدمين بمقاييس الذكاء، والقائمون على التعليم الآن من أنصار الرأي الثاني، والذين كانوا يقومون عليه قبل من أنصار الرأي الأول، ولهم في ذلك أقوال كثيرة، وآخرها تهكم مُرٌّ على مِقْيَاس الذَّكَاء ومُنَاداة لرجال الثورة بأن يتوسعوا في التعليم العالي على مقدار التعليم الثانوي، وفى التعليم الثانوي على مقدار التعليم الابتدائي، وقد طال هذا الخلاف وقَدُم، وكلما تولت طائفة جرت بالتعليم على نحو ما تذهب إليه من توسع أو تضييق.

وإنَّ المسألةَ جدٌّ خطيرة يجب أن تعالج ويقطع فيها برأي، وتوضع لها سياسة ثابتة لا تتغير، ويلزم كل وزير باتباعها لأمور: منها أن لها أثرًا عظيمًا في حياة الأمة واستقرارها، ومنها أن المحو والإثبات والجزر والمد في سياسة التعليم مما يدعو إلى اضطرابه وعدم ثباته.

إنه يجب على من يريد أن يحكم على التعليم العالي في مصر أيتوسع فيه أم يضيق منه أن ينظر إلى فِعْلِه وإلى مَنْ يُخَرِّجُهم، فإن كان فعل التعليم أن يُخَرِّجَ رجالًا نافعين لأنفسهم وللأمة مهما كثروا ومهما بلغ عددهم وجب أن يتوسع فيه ما أمكن الجهد وما بلغته الطاقة، وإن كان فعله أنه يسد حاجة جزئية وأن من يخرجهم إذا زادوا على هذه الحاجة لم ينفعوا أنفسهم ولا الأمة بشيء بل ضَرُّوا أنفسهم وضرُّوا أمتهم وجب أن يقتصر فيه على مقدار هذه الحاجة الجزئية وألا يتوسعوا فيه لئلا يأتي بالضرر.

ولعمري إن هذا دليل منصف، وإن الناس ليستعملونه في حياتهم اليومية، فمن عنده مصنع ينتج جوارب يجد لها الرواج فإنه يتوسع فيه، ولكن إذا كانت لا تروج إلا بعدد محدود فإنه لا يتوسع فيه إلا بقدر هذا العدد وبمقدار هذا الرواج.

والواقع أن المُخَرَّجين من التعليم العالي يطلبون جميعًا وظائف في الدولة فإن وسعتهم وإلا تعطلوا، والدولة قد فتحت لهم أبوابها في أيام اليسر فكانت تشتق من

الإدارة الواحدة إدارات كثيرة وتُعَيَّن لها المديرين والوكلاء والكتاب، وما هناك من أسماء.

وكانت بذلك تستوعب المتخرجين وتضر بالادخار والمشروعات الإنتاجية، فلما جاءت أيام العُسْر وتقلصت ميزانية الدولة كفَّت الدولة عن التوظيف فتَعَطَّل خريجو التعليم العالي إلا قليلًا، وسيزداد عدد المتعطلين عامًا بعد عام، حتى يصير جيشًا عرمرمًا يطلب القوت ويهدد سلامة البلاد وتنتشر فيه المبادئ الخطرة.

إن التعليم بحاله الراهنة لا يُرَبِّي المتعلمين على الإقدام والاعتماد على النَّفْسِ في الحياة وكسب الرزق، وإنما يعتمدون على الدولة فإن أسعفتهم وإلا عاشوا متعطلين وملأوا المقاهي والمنتديات.

إن التعليم بحاله الراهنة يأخذ أبناء الأمة من الصناعة والتجارة والزراعة، ويدفع بهم إلى حالتين لا ثالثة لهما: إما وظائف الدولة، وإما البطالة والعطل، وهو على خير حالتيه يخرجهم عن زمرة المنتجين الحقيقيين الذين يفيدون المجتمع والدولة بزراعتهم وصناعتهم وتجارتهم، أي من الذي يكسبون للدولة إلى الذين يكسبون منها، ويعتمدون في حياتهم ورزقهم عليها، وشتان بين من يكسب للدولة ومن يكسب منها ومن يزيد في الإنتاج القومي ومن ينقص منه.

إن التلميذ يسير في مراحل الدراسة الشاقة وأمامه غاية واحدة وهي الوظيفة وإن مرتبها المضمون وعلاواتها الرتيبة ودرجاتها المتدرجة لتسهل عليه مشاق التعليم.

وإن والدي التلميذ لينفقان عليه ويتحملان شظف العيش ويحرمان أنفسهما من اللقمة واللباس ليوفرا ذلك لولدهما في التعليم، يفعلان ذلك رجاء أن يظفر بوظيفة كابن جارهما القاضي أو كيل النيابة أو المستشار أو المعلم أو ناظر المدرسة أو ما إلى ذلك من وظائف، ومن البديهي أن عدد وظائف الدولة محدودة ومتناه، وعدد المخرجين غير محدود ولا متناه، والمحدود المتناهي لا يسع غير المحدود وغير المتناهي.

إحدى اثنتين: إما أن يكون عند الدولة وظائف تتسع لكل من يتخرج، ولها حينئذ أن تتوسع في التعليم ما تشاء، وإما ألا يكون عندها ما يتسع، وحينئذ يجب عليها أن تضيق منه حتى لا يتعطل الخريجون وتفقد البلاد إنتاجهم، فإما ألا يكون عندها متسع في الوظائف وتفتح هذه المصانع الهائلة التي لا تصنع إلا موظفين وتتوسع فيها، فهذه جناية عظمى، جناية على التلاميذ لأنها صرفتهم عن تعلم حرفة أو زراعة أو تجارة تكسبهم قوتهم إلى سراب خادع أطمعهم فلما جاءوه لم يجدوه شيئًا، وجناية على آبائهم لأنهم أرهقوا من أمرهم عسرًا لغاية لم ينالوها،

وجناية على الأمة لأنها حرمتها من كد صفوة شبابها في الأعمال المنتجة ورمت بهم في زمرة غير المنتجين.

يقولون من حق من يطلب العلم ألا نغلق أبوابه دونه، ومن حقه أن تُيَسِّر له الدولة سبله كلما أراد.

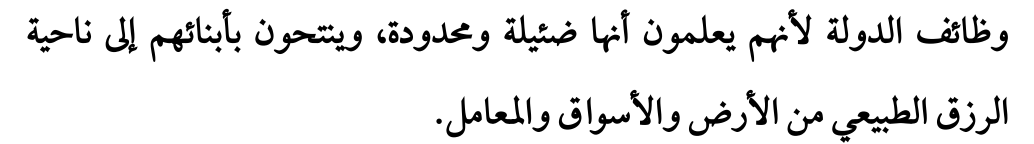
ونحن لأنها لا تخفى عليها أسرارنا وأغراضنا، وتعلم أننا لا نريد العلم للعلم، وإنما نريد الوظيفة، فعلى الدولة أن تحد من التعليم العالي إذا لم تكن الوظيفة.

وإننا نعلم أن التلاميذ وآباء التلاميذ يتذرعون بحب العلم وبغض الجهل، فإذا نالوا الشهادة طلبوا الوظيفة وألحوا في طلبها واعتقدوا أن حقًا على الدولة أن تيسر لهم.

يقولون إن الديمقراطية توجب أن تيسر الدولة لكل راغب في الازدياد من التعليم رغبته كأنما الديمقراطية توجب أن تنشر الدولة البطالة والتعطل وتحرم الأمة من جهود شبابها.

إنها رغبات مخطئة، ويطلب من الدولة أن تلبيها فتتوسع في التعليم وتكدس الطلاب في الفصول ثم لهم الوظائف أخيرًا.

لو تغير هذا الأساس الفاسد في التعليم لما كانت هناك أزمة في الجامعة، ولما كان هناك عدد جم من المتعطلين وكان أولياء التلاميذ لا يسرفون في الطمع في



وظائف الدولة لأنهم يعلمون أنها ضئيلة ومحدودة، ويتنحون بأبنائهم إلى ناحية الرزق الطبيعي من الأرض والأسواق والمعامل.

إلى أن يكون ذلك، وإلى أن يصلح التعليم فيُعنى بتربية الأخلاق والملكات ويعلم البحث العلمي، ويعين على الإنتاج الفكري، ويربي في المتعلمين ملكة الإقدام والمغامرة والاعتماد على النفس، يجب أن يجد من هذه المصانع التي تصنع الموظفين، ولا يكون منها إلا ما تمس إليه الحاجة.

في حديث للسيدة سهير القلماوي أن بعض حملة شهادة كلية التجارة لم يجد وظيفة في هذه الأيام، فعلق شهادته على عربة وسار حول الجامعة يبيع لِبًا، ليُعَبِّرَ بذلك عن سخطه على الجامعة، ولو كنا نحسن الاعتبار لسخطنا على ميولنا وميول آبائنا وعلى فكرتنا في التعليم.

يقولون إننا سنرفع التعليم العالي ونزيل عيوبه ونجعله يربي في المرء الشجاعة والإقدام والاعتماد على النفس، فلا خوف بعد من التعطل لأن المخرجين إما أن يجدوا أماكن في وظائف الدولة، وإما أن يجدوا أماكن في الحياة الحرة.

قلنا فلنتريث في التوسيع حتى يصلح، أما وهو بهذه الحال فحرام أن نتوسع فيه وأن نشير بالتوسع فيه.



التوسع في التعليم الابتدائي:

وأما التوسع في التعليم الابتدائي أو التعليم العام، فهذا ما لا يُخَالِفُ في وجوبه أحد، ولكن مع المحافظة على الجودة في التعليم.

لقد أصيبت مصر بِحُمَّى التوسع في التعليم في السنين الأخيرة، فلم تَسِرْ إليه رويدًا وعلى مهل، محافظة على الجودة وعلى تثقيف العقول وتهذيب النفوس وتنمية الملكات، ولم تنظر إلى إمكانيات الدولة ولا إلى الظروف الاجتماعية ولا إلى مرافق الإنتاج الأخرى التي هي بأشد الحاجة إليها، بل سارت إليه قفزًا وطفرة، فلم يعقها مكان ولا إمكان، فحشدت التلاميذ في الرَّدَهَات وفى الفصول حشدًا يمنع المدرس أن يراعيهم ويُعنى بهم، ورمت بنظريات قواعد التربية وعلم النفس، وهزئت بهما، وقاست قياسًا عجيبًا وهو أن الجهل حريق والعلم ماء، وكما أنه لا ينتفي الماء الذي يطفأ به الحريق فيطفأ ولو بماء آسن كذلك يجب أن يزال الجهل ولو بتعليم فاسد غير صالح.

إذا كان الجهل هو عدم معرفة القراءة والكتابة، والعلم هو معرفتهما فتلك لا تزيد على أن تكون صنعة يدوية لا تُصْلِحُ نَفْسًا ولا تُرَبِي ملكة، وإن كان العلم معرفة قوانين الكون وطرق تربية الملكات من العقل والخلق والعاطفة، وكانت التربية الحقة هي أن يتفوق امرؤ فيما ذكرنا ويطبع تلاميذه على غراره، فهذا لا يحسنه إلا المعلم الصالح، ولا يوصل إليه إلا التعليم الصالح، وفاقد الشيء لا يعطيه، فلا تطلب من ضعيف في العقل والتفكير أن ينمي ملكة العقل في غيره، ولا تطلب من

ضعيف الخلق لا يؤمن بالفضيلة أن يربي غيره على الفضائل النفسية، وأن يحليهم بمكارم الأخلاق وحميد الصفات.

إنكم إلى الآن تنظرون إلى التعليم نظرة بدائية، لا يعنيكم منه إلا الكم دون الكيف، فجهدكم ينحصر في كثرة المتعلمين، أما كيفه وجودته وما الذي يحققه وكيف يربي العقل وينميه ويجعله أقدر على الاستنباط وعلى الابتكار أو على الانتفاع بعلومه وتطبيقها في الحياة، وكيف يربي العزم والشجاعة والاستقلال والاعتماد على النفس، وكيف يكون مواطنًا صالحًا ينفع مجتمعه وينتفع منه، نقول أما هذا وما ينخرط في سلكه فلا يعنيكم، ولا تنظرون إليه، ولا تتفاخرون به، مع ما تتفاخرون به من الكم والعدد والكثرة.

مصادر ومراجع الهوامش والتعليقات

١. الآثار الكاملة، عبد الله بن المقفع، حققها وشرحها: د. عمر الطبَّاع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

٢. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣. الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية على متن الهمزية في مدح خير البرية للبوصيري، على حرازم بن العربي التيجاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٥م.

٤. الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٥. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ) الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر -أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٦. الأمالي، أبو علي القالي، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م

٧. الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق،

ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٨. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٩. الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

١٠. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي البغدادي، شرح وتصحيح: محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٤م.

١١. بهجة المجالس وأنس المجالس، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النَّمَري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٢. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان،الشهير بالجاحظ(ت ٢٥٥هـ)،دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٣. تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

١٤. التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

١٥. تهذيب التهذيب في رجال الحديث، ابن حجر العسقلاني، تحقيق:عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،ط٢٠١٣،٢م.
١٦. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م
١٧. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ –٢٠٠٠ م.
١٨. جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
١٩. جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، د.محمد عمارة، دار الشروق، ط٢، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٢٠. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٢١. الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي (ت٦٠٩هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م

٢٢. دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة

٢٣. ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام (ت ٢٣١هـ)، شرحه: شاهين عطية اللبناني، المطبعة الأدبية – بيروت، ط١، ١٨٨٩م.

٢٤. ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٥. ديوان الفرزدق، شرح وضبط: علي فَاعُور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٢٦. ديوان حاتم الطائي، دار الصادر–بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م

٢٧. زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، دار الجيل – بيروت.

٢٨. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (ت ٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٢٩. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت ٢٧٥هـ)، خرج أحاديثه: الحافظ أبوطاهر زُبير عَلي زئي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

٣٠. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك،الترمذي،أبو عيسى (ت٢٧٩هـ) المحقق: بشار عواد معروف،

الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩٨م.

٣١. السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ -٢٠٠١ م

٣٢. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الحديث-القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٣٣. سيرة حياتي، د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣٤. شرح السُّنَّة، بو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش

٣٥. شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمدية، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠١٢م.

٣٦. شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م.

٣٧. شرح ديوان الحماسة، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، دار القلم – بيروت، ط١.

٣٨. شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، سيف الدين الكاتب، أحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.

٣٩. شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨)، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، سنة النشر: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م

٤٠. الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) الناشر: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

٤١. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ –١٩٩٣م.

٤٢. صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (ت: ٣١١هـ) المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي –بيروت.

٤٣. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ) ترقيم وترتيب، محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة ابن كثير، الكويت، ٢٠٠٨م.

٤٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام، الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٥. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو،

الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٤٦. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٨هـ

٤٧. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. إبراهيم المخزومي، د.مهدي السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٥م.

٤٨. عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٨هـ

٤٩. فتوح البلدان، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (٢٧٨هـ)، القاهرة، ط١، ١٩٠١م.

٥٠. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.

٥١. الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، الإصدار العاشر، الطبعة الأولي ٢٠١٧م.

٥٢. اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م

٥٣. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ٢٠١٤م

٥٤. مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٣م

٥٥. مجلة الأزهر.

٥٦. مجلة الرسالة.

٥٧. مجلة المنار.

٥٨. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

٥٩. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العُمري، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠١٠م

٦٠. المستدرك علي الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م.

٦١. المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦ م.

٦٢. معجم أسماء المستشرقين، د. يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٦٣. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت الحموي، تحقيق:

د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٣م

٦٤. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٦٥. المُنَجَّد في اللغة، علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، (ت بعد ٣٠٩هـ)، تحقيق: أحمد مختار عمر، ضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م

٦٦. موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، عزيزة فوال بابيتي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.

٦٧. موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م، الناشر: المكتب الإسلامي –دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٦٨. نزهة الألِبَّاء في طبقات الأُدَبَاء، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت ٥٧٧هـ) المحقق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، ط ٣، ١٤٠٥ هـ –١٩٨٥ م.

٦٩. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، (١/ ٥٢٨).

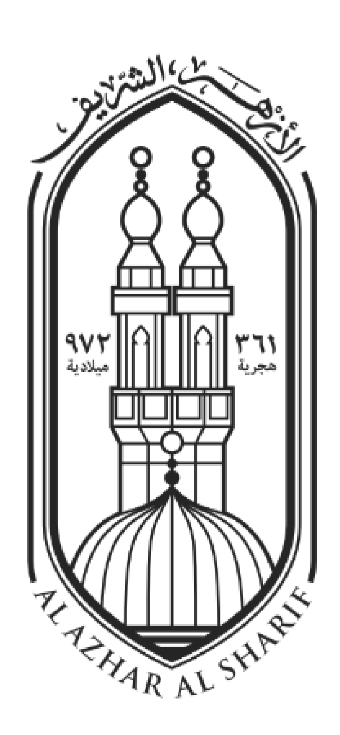
٧٠. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار

الحديث، مصر، ط ١، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.

٧١. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ) المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٧٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

فهرس المحتويات


الأزهر الشريف
٩٧٢
ميلادية
٣٦١
هجرية
AL AZHAR AL SHARIF

الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء